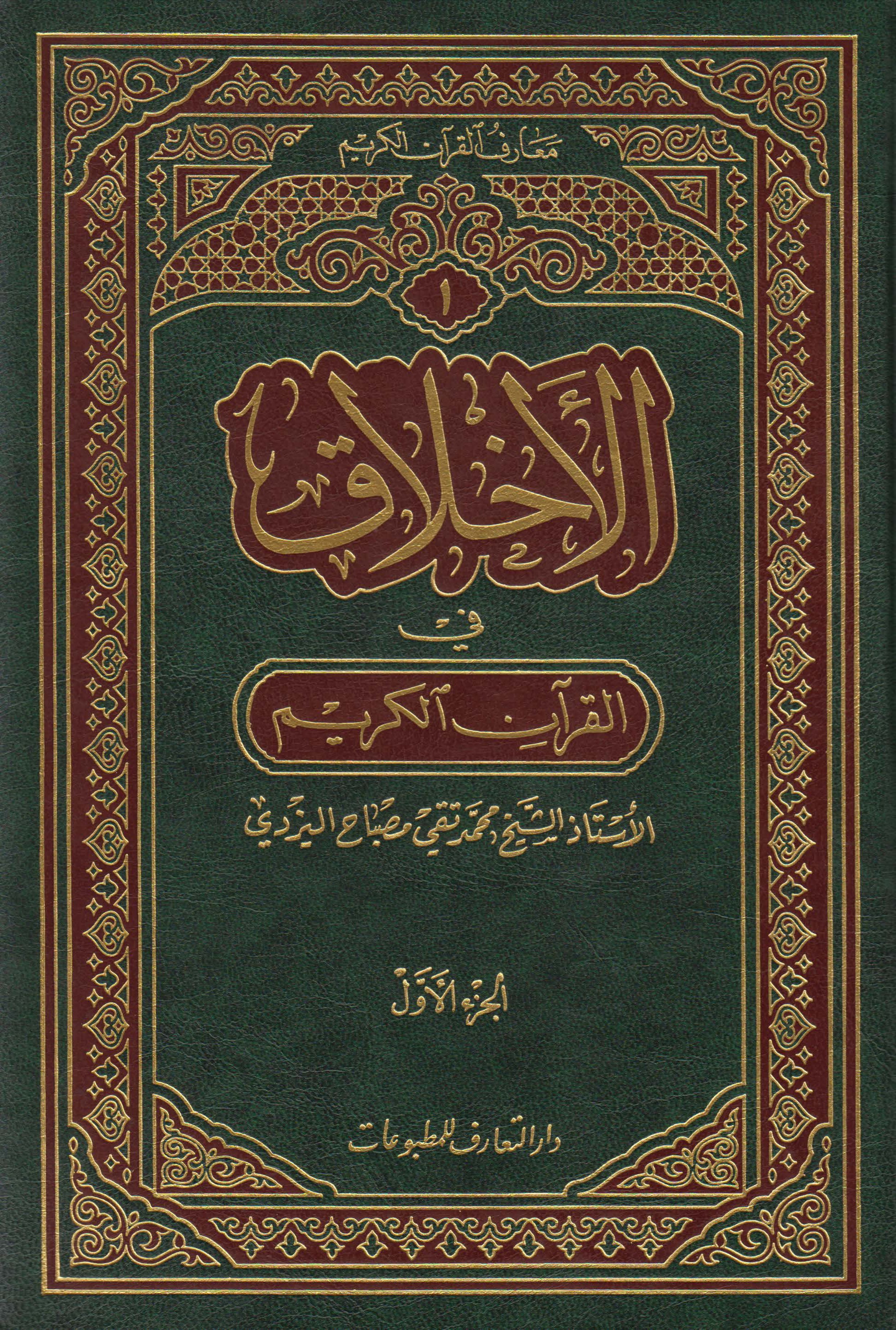


معارف القرآن الكريم
١
الأخلاق
في
القرآن الكريم
الأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
الجزء الأول
دار المعارف للمطبوعات

الأخلاق
في
القرآن الكريم

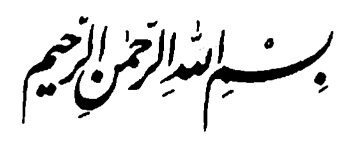
معارف القرآن الكريم / ١

الأخلاق
في
القرآن الكريم

الجزء الأول

محاضرات
الأستاذ الشيخ محمدتقي مصباح يزدي

تدوين وتحقيق:
محمد حسين اسكندري
نقله الى العربية:
الشيخ كاظم الصالحي



١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ مـ

دار التعارف للمطبوعات:

الإدارة والمعرض ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين ـ
تلفـــــون: ٢٧١٩٠٧ / ٠١ ـ ٢٧١٩٠٨/ ٠١ ـ ٨٢٣٦٢٠ / ٠٣
ص.ب: ٨٦٠١ / ١١ ـ ٦٤٣/ ١١ ـ فاكس: ٢٧١٩٠٨ (٠٠٩٦١١)

المقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[1].

و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[2].

﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

والصلاة والسلام علىٰ رسول الله الذي أرسله ﴿شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[4] وبعثه ليتمّم مكارم الأخلاق في نفوس المؤمنين، ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وعلىٰ آله الاخيار والائمة الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

---

(١) الكهف: ١ و ٢.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) المائدة: ١٦.

(٤) الاحزاب: ٤٥ و ٤٦.

القرآن الكريم هو الهبة الإلٰهيّة الكبرىٰ التي منّ الله بها علىٰ الإنسان بتنزيله علىٰ رسول الإسلام ﷺ. القرآن نور ينير القلوب، ودواء يسكن الآلام ويشفي الصدور وهو موعظة ينبّه الإنسان من الغفلة، (**وهو الدليل يدلّ علىٰ خير سبيل**).

(**من جعله أمامه قاده الىٰ الجنة ومن جعله خلفه ساقه الىٰ النار**).

قد بيّن كلّ ما يحتاجه الإنسان ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (**جعله ريّاً لعطش العلماء وربيعا لقلوب الفقهاء**)[2].

(**نور لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبو توقّده، وبحر لا يدرك قعره وينابيع العلم وبحوره...وعلما لمن وعى**)[3].

(**لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه**)[4].

وعنه عليه السلام: (**ولا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء**)[5].

ما طرق سمعنا من آيات وروايات في تعريف هٰذا الكتاب الإلٰهي والسماوي إنّما ينطق بهٰذه الحقيقة وهي أن نتدبر في القرآن الكريم أكثر فأكثر، ونغوص في أعماقه ونتزوّد من ينابيعه ومعارفه الصافية والنفيسة قدر المستطاع، وما ورد فيها من تأكيد علىٰ ما في تلاوة القرآن واحترامه والأُنس معه من فضيلة كبيرة هو لإدراك معارف القرآن والعمل بآدابه وأحكامه، والخطوة الأُولى لذلك هو التدبر والتأمّل في القرآن.

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

(٤) اصول الكافي: ٢: ٥٩٨.

(٥) تفسير العياشي.

القرآن بدوره يدلّ في موارد كثيرة علىٰ أنه أنزل لكي يتدبر الناس في آياته ويزدادوا علماً بمختلف التعابير كـ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢] و﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[٣] ليرغّب الناس في التدبر في آياته لكي يقتبسوا من الأنوار الالٰهيّة.

القرآن الكريم مجموعة متكاملة من المعارف البشرية والعلوم الإنسانية، فهو يتحدّث عن التأريخ، والحقوق، والسياسة، والأخلاق، والتربية، والعقائد، والأحكام، وعلم الاجتماع و... ويطرح رؤيته الخاصّة في جميعها، فعلىٰ العلماء المسلمين اكتشاف الرؤية القرآنية في كلّ واحد من الموضوعات المذكورة، من خلال التأمّل واجراء الدراسة اللازمة وتقديمها للمجتمع، سيّما جيل الشباب المتعطش في العصر الحاضر ـ في ضوء الموجة العارمة التي أوجدتها الثورة الإسلامية في العالم ـ لإدراك المعارف الإسلامية أكثر من ذي قبلُ، ويرغّب في التعرف علىٰ الرؤية القرآنية في المجالات المذكورة وما شاكلها.

ولحسن الحظ فقد أنجزت خطوات كبيرة بهٰذا الشأن، وتحققت إنجازات أساسية في كشف وتبيان وطباعة ونشر معارف القرآن، وإن قام علماء ومفسّرو العصور السالفة بكتابة تفاسير متعدّدة وتفصيلية في الغالب بأساليب مختلفة، وقاموا بدراسة الآيات القرآنية من زوايا مختلفة، في حين تعتبر الدراسة التفصيلية لمعارف القرآن في المجالات المذكورة وخاصّةً مبادئ العقيدة والأخلاق وملاحظة أبعادها ومسائلها المتنوعة ابتكاراً وانجازاً حديثاً.

في هٰذا الباب ينبغي أن نشير الىٰ المفكّر البارع والأستاذ الفذّ آية الله الشيخ

---

(١) النحل: ٤٤. (٢) يوسف: ٢.

(٣) ص: ٢٩.

مصباح يزدي(حفظه الله) الذي حقق بأُنسه الكبير مع القرآن الكريم، ونور قلبه ومساعيه الكثيرة في التحقيق إبداعاتٍ وإنجازاتٍ نافعة حقاً في معارف القرآن، وقد تمّ لحدّ الآن نشر أقسام كثيرة منها.

لقد قام سماحته بالتحقيق في معارف القرآن متّبعاً طريقاً وبرنامجاً ونظاماً خاصّاً، وعرض حصيلته بدقةٍ كدروس منذ عام ١٩٧٤م في دورات تعليمية وتحقيقية في (مؤسسة في طريق الحق) بقم المقدسة وأبدى ملاحظاته الخاصّة وذلك في فترات ومجموعات مختلفة. وقد تمّ نشر أقسام منها بعد تكميلها وتنقيحها وإعدادها.

ومن الأقسام المهمة لـ(معارف القرآن) هو قسم الاخلاق. والأخلاق في القرآن الكريم ذو أهمية بالغة، وطبق الآيات والروايات تعتبر تزكية النفس ـ وهي المحور الأساس فيها ـ من أهمّ الأهداف في تنزيل القرآن وبعثة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

للأخلاق علاقة وطيدة مع الملكات النفسيّة، التزكية وتهذيب النفس، الأعمال والسلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية للإنسان. وتقوم بتنظيم علاقة الإنسان مع ربه، وهكذا العلاقات بين أبناء المجتمع، وتنطلق بالفرد والمجتمع الىٰ الفلاح والكمال، وبكلمة واحدة: إن لها الدورَ الأساس والشامل في حياة ومصير الفرد والمجتمع الإنساني.

من بين الموضوعات القرآنية المختلفة خصّص سماحته قسطاً من اهتماماته التحقيقية وجهده العلمي لدراسة موضوع الأخلاق في القرآن الكريم، وله في هٰذا القسم نكات وآراء وإبداعات قيّمة حقاً، وقد قام بتدريس حصيلة هٰذا التحقيق والجهد في دورات تعليمية وتحقيقية أقامتها مؤسسة (في طريق الحق) في الفترة

١٩٨٤ ـ ١٩٨٦ م ولا تزال كراساتها وأشرطتها موجودة.

ونظراً لعزمه علىٰ طباعتها ونشرها أوكل إليَّ شرف القيام بتكميلها وتنقيحها وإعدادها. وقد سعيت بقدراتي الضعيفة ولقلة الفراغ والانشغال الفكري أن لا أقصر في ذلك ما أمكن، ومع ذلك فقد أنجزت المهمة ببطء وتأخير.

في بحث (الأخلاق في القرآن) يكون لعوامل مختلفة دور في صدور أفعال الإنسان الاختيارية التي تمثّل المحور والموضوع الأساس فيه، أي إن بعض أفعال الإنسان ذات منشأ غريزي، فيما يترتب البعض الآخر من سلوكه على الانفعالات الروحية كالوحشة والاضطراب وغيره، وفي الكثير من الموارد تكون ميول الإنسان ورغباته الفطريّة والخاصّة منشأً لتحقّق أعمال وسلوك خاص، وبالتالي فانّ سلوك الإنسان ينشأ في بعض الموارد بتأثير من عوامل حسية وعاطفية أعمّ من الأحاسيس والعواطف الايجابية من قبيل الأُنس والحبّ، ومن المشاعر والعواطف السلبية كالحقد والنفور، ويمكن تقسيمها حسب عواملها المختلفة الىٰ أربع مجموعات مختلفة.

ومن جهة أُخرىٰ يمكن تقسيم السلوك الاختياري للإنسان وفق لحاظ آخر، أي يمكن تبويبه بلحاظ كونه ذا جهات مختلفة وارتباطه بموجودات مختلفة.

في تبويب قسم (معرفة الأخلاق) من معارف القرآن اختار سماحته التقسيم الثاني إطاراً ومنهجاً للبحث، وقام بتقسيم السلوك الاختياري للإنسان حسب الهدف من ممارسته ومتعلقه الىٰ ثلاث مجموعات عامّة:

المجموعة الأُولى: الأعمال التي ينجزها الإنسان حسب ارتباطه بالله سبحانه كالتوجه الىٰ الله، والرجاء من الله، والإيمان بالله، والخوف والخشوع بين يدي الله و... وتكون منشأً لعبادة الله.

المجموعة الثانية: السلوك الذي يرتبط في الأصل بالإنسان نفسه وإن ارتبط بالآخرين عرَضاً وبنحو ثانوي، أو لوحظ فيه الإرتباط مع الله سبحانه.

المجموعة الثالثة: الأعمال التي ينجزها الإنسان بحكم ارتباطه بالآخرين والعلاقات التي يقيمها معهم.

وعلىٰ أساس هٰذا التقسيم استعرضوا الأخلاق في القرآن في ثلاثة أقسام عامّة وتحت ثلاثة عناوين عامّة:

١ ـ الأخلاق الإلٰهيّة.

٢ ـ الأخلاق الفردية.

٣ ـ الأخلاق الاجتماعية.

ولدينا مجموعة من الموضوعات والمفاهيم العامّة التي تمثّل في الواقع فلسفة الأخلاق من وجهة نظر القرآن، فنتطرق قبل الخوض في البحث حول الأخلاق الإلٰهيّة والأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية الىٰ دراسة وتحقيق هٰذه المسائل والقضايا من قبيل: المبادئ الموضوعة في علم الأخلاق، خصائص المفاهيم الأخلاقية، المفاهيم الأخلاقية العامّة في القرآن، فرق النظام الأخلاقي في الإسلام مع النُّظم الأخرى، أساس القيمة الأخلاقية في الإسلام، وقضايا كثيرة أُخرىٰ من هٰذا القبيل.

وكتاب (الأخلاق في القرآن الكريم) الذي ينشر في أجزاء ثلاثة يقسّم وفق الأُطروحة العامّة والتقسيم المذكور في ضوء القضايا المذكورة كمقدمة الىٰ اربعة أقسام عامّة:

القسم الأول: مفاهيم عامّة.

القسم الثاني: الأخلاق الإلٰهيّة.

القسم الثالث: الأخلاق الفردية.

القسم الرابع: الأخلاق الاجتماعية.

ينشر القسم الأول والثاني في الجزء الأول من الكتاب، والقسم الثالث في الجزء الثاني والقسم الرابع في الجزء الثالث منه.

نسأل الله تعالىٰ مزيداً من تأثير الأخلاق القرآنية في المجتمع سيّما جيل الشباب، آملين أن يتقبل أعمالنا بفضله وكرمه، ولا يؤاخذنا علىٰ كلّ تقصير وقصور، ويوفقنا برعايته لإكمال هٰذا المشروع.

٣٠ / ١ / ١٣٧٦ ه.ش

محمد حسين اسكندري

القسم الأول

مفاهيم عامّة

القسم الأول



المبادئ الموضوعة في علم الاخلاق

أ ـ الإنسان موجود مختار

ب ـ الإنسان ذو غاية نهائية

الغاية النهائية..رؤية قرآنية

حياة الإنسان..رؤية قرآنية

ج ـ دور سعي الإنسان في الوصول الىٰ الغاية

إشكالات وردود

المبادئ الموضوعة في علم الاخلاق

أ ـ الإنسان موجود مختار

تتيسّر عملية التزكية وتهذيب الأخلاق وبناء الذات حينما يؤمن الإنسان بقدرته علىٰ كسب الكمال والقيم، فان ظنَّ أن لا ثمرة لسعيه ولا تأثير علىٰ تكامله وتغيير مصيره فلا مجال حينئذ لتزكية نفسه وتهذيبها.

السبب هو أن الإنسان إذا كان مجبَراً في أعماله، وافتقد إرادته في تقرير مصيره فانّ الأمر والنهي المتوجّهين إليه سوف يفقدان محتواهما وهو: ينبغي أن تفعل كذا أو لا ينبغي.

ان جميع النُّظم الأخلاقية إما تصرح بكون الإنسان مختاراً كمبدأ موضوعي، وإما تسلم به ضمناً وإن لم يلتفت إليه أتباع ذلك النظام، وسيتمّ بيان هٰذه الحقيقة كمبدأ موضوعي في النظام الأخلاقي في الإسلام.

من هنا إنّنا حينما نبحث عن أُسس النظام الأخلاقي في الإسلام، وتعريف مبادئه الموضوعة نعتبر (اختيار الإنسان) المبدأ الأول فيها، وهو ما تمّ بحثه ـ الىٰ حدّ ما ـ في الحلقات السابقة من معارف القرآن سيّما مبحث (معرفة الإنسان) ولا

مجال لبحثه هنا، واستناداً الىٰ ما مضىٰ إنّنا نفترض صحته وننتفع به كمبدأ موضوعي.

انّ الإلتفات الىٰ المبدأ المذكور ـ إضافةً الىٰ ما ذكر ـ ذو أهمية بالغةً تربوياً، فانّ ظهور لون من الجبر في الإنسان واعتقاده بعدم الاختيار في أعماله، ورضوخه للمؤثرات الخارجيّة سوف يثبّط عزيمته ويجرّده من الشعور بالمسؤولية. إنّ المهملين ـ الذين لا يكلفون أنفسهم ما يتعبها، ولا يرغبون في التحرك نحو الجهاد مع النفس أو العدوّ ـ يتولد لديهم عادةً لون من الميل نحو الجبر، ولو سئلوا لماذا لا تزكّون أنفسكم لحاولوا في الإجابة إسناد سلوكهم الىٰ عامل جبري فيقول أحدهم : إنها قضية وراثية، فقد كان والدي هكذا فأصبحت كذلك، أو يقول: لقد أنشأتني الظروف بهٰذا النحو فلست مقصّراً، ولو كان مؤمناً متديّناً لاستعان بالفلسفة والعرفان قائلاً: الأمور كلها بيد الله فلا دور لنا، أو بالقضاء والقدر بقوله: إن ما يجب وقوعه سوف يقع ـ شئنا أم أبينا، عملنا أم لم نعمل ـ وغيرها من الأقاويل المشابهة.

هٰذه الإجابات ـ في الحقيقة ـ ذات جذور نفسيّة في اهمال الإنسان وترفيّته. فحتّىٰ لو تحدّث عن قضايا حقة فانّه يصل بها الىٰ نتائج باطلة.

وقد أثبتنا في باب التوحيد أن جميع الأعمال تنتسب الىٰ الله تعالىٰ بصورة مستقلة، وقد أشار القرآن الكريم في بعض الآيات الىٰ هٰذه الحقيقة في باب الأخلاق و هي أن الله سبحانه هو الذي يهدي الإنسان، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١].

﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٢].

---

(١) القصص: ٥٦. (٢) الحجرات: ٧.

وينسب كلّ شيء الىٰ الله حتّىٰ الجزء الأخير منه وهو ما يترتب عليه من أجر أُخروي، فالله هو الذي يرحمكم، وهو الذي يدخل المؤمنين الجنة ويتفضل عليهم بالرحمة.

هٰذه حقائق مُسلّم بها جميعاً، والقرآن الكريم يؤكّد عليها كثيراً، ومع ذلك قيل في محله إنها لا تعني سلب الاختيار من الإنسان أبداً، لأن الفاعلية الإلٰهيّة في طول الفاعلية الإنسانية ولا تعارضها لكي تنفيها.

علىٰ أيّ حال، فإنّ الذين لا يعيرون أهمية للدين يتشبثون بمجموعة من العوامل الماديّة من قبيل: قانون الوراثة، الجبر الذي تفرضه الظروف والتأريخ وتلهج بها الألسن أحياناً، وما هي في الحقيقة الاّ حجج لتبرير ما هم عليه.

وبما أنّ الإنسان يكره ظهوره بصورة المذنب بين يدي الوجدان أو الآخرين ـ علىٰ الأقل ـ فانّه يسعى للتخلي عن المسؤولية تمسكاً بهٰذه الذرائع، وإلقاء ذنوبه علىٰ عاتق الآخرين (الوالدين، والأستاذ، والبيئة، والتأريخ، و...).

كما أن بعض المؤمنين والمتدينين الذين لم يتعرفوا علىٰ التعاليم الإسلامية جيّداً، ولم يدركوا حقيقتها تنتشر في أوساطهم الخرافات والانحراف في استيعاب مفهوم القضاء والقدر والتوحيد الأفعالي وما شاكل. وتظهر في بعضهم اتجاهات صوفية فيتنصّلون عن المسؤولية تجاه المجتمع وشؤونه، ويتحاشون عن حمل العبء الثقيل الذي تفرضه الواجبات الاجتماعية بذريعة أن ما يقع هو فعل الله فلا بدّ من وقوعه، شئنا ام أبينا.

أجل، إن لهٰذه العقائد المنحرفة والأفكار الخاطئة تأثيرَها البالغ علىٰ السلوك الإنساني في المجال المادي أو الإلٰهي.

أما القرآن الكريم فانّه بدون جحد لتأثير هٰذه العوامل أو الفاعلية الإلٰهيّة ـ يلقي علىٰ الإنسان مسؤولية أعماله، فهو يرىٰ أنّ الفاعلية الحقيقية والتأثير

المستقل مختص بالله وحده، ولكن ذلك لا يعني تجريد الفواعل والعلل القريبة عن تأثيراتها أبداً، وكذلك توجد في هٰذا العالم عدة عوامل من قبيل الوراثة، والبيئة، واللبن والطعام،و... تفرض تأثيراتها علىٰ أفعال الإنسان، ولكن الرؤية الإسلامية رغم قبولها لتأثير جميع العوامل المذكورة تؤكّد بشدّة على دور اختيار الإنسان نفسه باعتباره العامل الأهم من بينها، أي إن هٰذه العوامل ليست عللاً تامّة للفعل بل هي مجرّد معدّات له، وبما أن إرادة الإنسان هي التي تعيّن وتتمّ الفعل فانّه مسؤول بمقدار ما يمتلك من إرادة واختيار.

إنّ العوامل المذكورة لا تسلب الإنسان اختياره، ولا يمكن التمسك بها كذرائع لارتكاب الذنوب وانحراف الإنسان، حيث لا جبر في أيّ شرط من الشرائط المذكورة بل يكون الإنسان مختاراً فيها.

إن الإلتفات الىٰ هٰذه الحقيقة يجرّد الإنسان من هٰذه الذرائع، ويحيي فيه الشعور بالمسؤولية ويعدّهٰ مجاهداً وناشطاً، الأمر الذي يحظىٰ بأهمية بالغة في المجال التربوي.

إنّ الرؤية الكونية والأيديولوجيات التي تزرع الميول الجبرية في أذهان أتباعها تنشيء أناساً مهمِلين، وغير مسؤولين، وأنانيّين، ومعجَبين بأنفسهم، ومتشبثين بالذرائع، وأُناس لا يكتفون بارتكابهم المستمر للمعاصي والآثام، بل يسعَون دوماً لاتّهام غيرهم بذنوبهم وأخطائهم، أو العوامل الأُخرىٰ كالظروف والتأريخ والمجتمع وغيره.

ممّا ذكر نستنتج أن علينا الإعتماد الأكبر علىٰ اختيار الإنسان في دراسة النظام الأخلاقي في الإسلام، والتدقيق جيّداً عند استيعاب المعارف الإسلامية وهي: التوحيد، والقضاء والقدر والمعارف الأُخرىٰ التي تترتب علىٰ التساهل فيها خسائرٰ وانحرافات. كما إن علينا الحذر من أن يكون الضعف والإهمال

والانحراف سبباً للإنحراف الفكري فينا، وذريعة للتنصل عن حمل المسؤولية والواجبات الاجتماعية.

هٰذا وينبغي الإلتفات الىٰ هٰذه النقطة وهي أن اختيار الإنسان من بديهيات المبادئ الأخلاقية في الإسلام، ومن أرسخ المعارف والعقائد الإسلامية التي ينبغي إيضاح التشابه في المعارف ورفع الإبهام في العقائد الأُخرىٰ بهٰذا المبدأ الراسخ والقاطع قبل أن تكون سبباً لتردُّدنا في هٰذا المبدأ، فالقرآن الكريم يشهد كله علىٰ اهتمامه بالإنسان بوصفه موجوداً مختاراً، ويتعامل معه كموجود مسؤول.

ب ـ الإنسان ذو غاية نهائية

بعد التسليم بأن الإنسان فاعل مختار كمبدأ أول، وبإمكانه اختيار عمل دون آخر، أو ممارسة فعل على تركه، سوف نستنتج منه المبدأ الثاني وهو (غائية الإنسان).

الإنسان المختار ينتخب غايةً ثمّ يباشر أفعاله الاختيارية بُغية الوصول إليها.

ويطلق علىٰ الغاية المنشودة (علة غائية) ولها الدور الأساس بين العلل الاربعة لإيجاد المعلول.

ومن اللازم الإلتفات الىٰ وجود فارق كبير بين العلة الغائية وبين الغاية، فكلّ حركة وإن كانت ذات غاية لا يمكن اعتبار أيّة غاية علةً غائية، أي إنّ العلة الغائية تُذكر فقط في فعل الفاعل المدرِك الذي يؤديه عن علم وإرادة ويمكن القول: إنّ العلة الغائية لأيّ فعل هي الغاية التي يصبو إليها الفاعل المدرك وتدفعه نحو انجاز

العمل، ويجوز أن يكون لذلك العمل آثار وغايات أُخرىٰ لا تعتبر علةً غـائية له لعدم تركيز اهتمام الفاعل ودافعه عليها اثناء العمل، وعليه فانّ العمل الذي نباشر به لا يكون مقصوداً لنا بالذات، بل يكون مقدمة للثمرة التي ننشدها وتعود علينا إثر ذلك العمل، ويطلق عليها الغاية والعلة الغائية لذلك العمل.

وينبغي القول هنا: إنّ الغاية التي ننشدها في أيّ عمل قد تصبح مقدمة لأمـر آخر، وهو بدوره يصبح مقدمة لتحقيق غاية ثالثة وهكذا، ولكن هناك نقطة نهائية نصبو إليها في عملنا حين انجازه وإن كان ارتكازياً وغير ملتفت إليه بنحو كامل، نطلق عليها (الغاية النهائية).

فمثلاً: غاية العامل من عمله هو كسب الأجرة، الاّ انّها لا تكون غاية نهائية له عادة، بل يستلمها لتوفير الطعام الذي يُقصد بدوره للأكل الذي يتمّ بهدف الشبع.

قد ينتهي النشاط المذكور بهٰذا الحدّ فلا يقصد الإنسان غـاية أُخـرىٰ وراءه، فيكون الشبع غاية نهائية ومثل هٰذا الإنسان يكون مصداقاً واضحاً لقوله تعالىٰ:

﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾[1].

بينما العظماء ذوو الهمة العالية من البشر ليس همُّهم الأخير هو إشباع البطن، بل ينشدون غايات أكبر وراء ذلك، والخواص من عباد الله ـ وهم المؤمنون المتقون ـ يأكلون الطعام لتوفير الطاقة اللازمة لعبادة الله وخدمة خلقه، هٰؤلاء لا يكون الشبع لديهم غاية نهائية، بل مقدمة لتحقيق غاية نهائية كبيرة.

علىٰ أيّ حال، هناك غايات نقصدها عند انجاز أعمالنا، وبما أنّ التسلسل في الغايات أمر غير ممكن فإنّا نلاحظ غايةً نهائية لتلك الأعمال، وقد تكون أمـوراً

---

(١) محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٢.

مختلفة، الاّ أن من بين ما يترتب علىٰ أفعال الإنسان هناك شيء لا يمكن تصوُّر غاية أكبر منه ويكون مطلوباً لذاته، وكلّ مقصود سواه يكون مقدمة له أو يمكن أن يكون كذلك.

وعليه فانّ الإنسان يتابع غايةً نهائية واحدة ـ مهما كانت تلك الغاية ـ وينجز الأعمال لتحقيقها، وقد لا يكون ما يمثّل غايةً نهائية لشخص كذلك لشخص آخر بل يستخدمه كمقدمة لغاية أُخرىٰ، الاّ من الطبيعي أن تنتهي نشاطات الثاني وحركاته في حدّ فيكون بالضرورة ذا غاية أو غايات نهائية متعدّدة.

ممّا ذكر نستنتج أن أيَّ إنسان ذو غاية أو غايات نهائية ويسعىٰ لتحقيقها، وهٰذه الحقيقة تطرح في عالم الأخلاق كمبدأ، لأن تزكية النفس وتهذيب الأخلاق يقعان في إطار الأعمال الاختيارية للإنسان، وتنجَز بقصد الوصول الىٰ الغاية والمطلوب النهائي، وعليه فانّ المبدأ الثاني من المبادئ الموضوعة للنظام الأخلاقي هو: (انّ الإنسان ذو غاية نهائية).

الغاية النهائية ... رؤية قرآنية

هناك سؤال يطرح نفسه: هل بالإمكان استخراج مثل هٰذا المبدأ من القرآن الكريم؟ وهل بالامكان معرفة الغاية النهائية من هٰذا الكتاب السماوي؟

للإجابة لابدّ أولاً من معرفة المقصود من السؤال، فهل هو أن نعرف العنوان العامّ للغاية النهائية أو مصداقها المرتبط بالعنوان العامّ؟

إنّ النُّظم الأخلاقية تشترك في هٰذه العقيدة وهي وجود غاية نهائية، الاّ أنّها تختلف في تعيين مصداقها.

بمقدار ما يرتبط بالنُّظم الأخلاقية كافة ويتحدّث عنه القرآن الكريم بصورة عامّة يمكن القول بأنّ الغاية النهائية هي ما يطلبه الإنسان بفطرته ونعبّر عنه بـ(السعادة، والفلاح، والفوز و...) وبما أنه مقصود بالذات فلا يتحمل السؤال، ولا يمكن تعليله بشيء آخر وتوجيهه في إطار غاية مقصودة أُخرىٰ.

يمكن السؤال من العامل: لماذا تعمل؟ فيجيب مثلاً: لكي أكسب المال. ثمّ يُسأل: لماذا تأخذ المال؟ فيجيب: لشراء الطعام. ويُسأل: لماذا تشتري الطعام؟ فيجيب: لكي آكل وأشبع وأشعر باللذة. ولكن لا يمكن السؤال منه: لماذا تريد الشعور باللذة، لأن اللذة مرادة للإنسان بالذات، ولا ينحصر ذلك في الإنسان، بل إن كل ذي شعور يبحث عن اللذة، والإنسان يدرك هٰذه الحقيقة بعلمه الحضوري والشهودي، ولا يصحّ لومه علىٰ ذلك لأنّها حقيقة فطرية قهرية خارجة عن دائرة اختيار الإنسان، فقد أوجد أساساً علىٰ هٰذه الصورة، و خلقه الله عزّوجلّ علىٰ هٰذه الشاكلة، ولأجل ذلك لم تجعل في حقل الاخلاق.

ومن خلال البحث القرآني نجد هٰذه الملاحظة: وهي أنّ القرآن يبشّر الناس بأنكم ستفلحون من خلال التزكية والتهذيب بهدف حثّهم علىٰ فعل الخير وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس في حين لا يرغّبهم في الفلاح ولا يأمرهم به بصورة مباشرةً.

وعليه إنّنا وإن لم نلحظ تعبيراً قرآنياً صريحاً عن الغاية النهائية بقوله: إنّ الإنسان ذو غاية نهائية ويسعىٰ نحوها ـ شاء أم أبى ـ الاّ أنّنا قلنا من خلال التحليل الذي قُدّم في هٰذا المجال سابقاً: من الممكن تعليل أيّ عمل بذكر عمل آخر كغاية له، وتعليل العمل الآخر بذكر غايته أيضاً، هٰذا التعليل المتسلسل سوف ينتهي في نقطة لا علة لها.

أجل، بهٰذا التحليل يمكن القول: إنّ القرآن قد طوىٰ هٰذا المسير أيضاً، ويقدِّم

أخيراً مثل هٰذه المفاهيم التي لا علة لها، ولا تكون واسطة لتحقيق غاية اُخرىٰ وتنطبق مع الغاية النهائية من قبيل مفاهيم السعادة، والصلاح، والفوز، والفلاح المتقاربة جدّاً في المعنىٰ.

انّ مفهوم الفلاح مثلاً يتضمن هٰذه الملاحظة وهي أنّ الإنسان في حال ابتلاء دائم في حياته، أو أنّ هناك موانعَ تصدُّه عن تحقيق غايته، فعندما يزيحها ويصل الىٰ مقصوده نقول: إنّه قد أفلح أي تحرّر. الفلاح إذنْ يعني التحرّر من الابتلاء ويلازم السعادة، والإنسان يكون سعيداً حينما لا يواجه ما لا ينسجم معه ولا يرتاح اليه.

ولتوضيح مفهوم السعادة يمكن القول: إنّ السعادة واللذة متقاربان جدّاً والفارق الرئيس بينهما هو أنّ اللذة تستعمل في الموارد التي تنتهي في لحظات أيضاً، في حين تستعمل السعادة في اللذّات الدائمة وشبه الدائمة فقط، فمثلاً: لا يستعمل مفهوم السعادة فيمن يتناول طعاماً لذيذاً في لحظات، بل يقال: إنّه التذّ بتناول الطعام ولا يقال: إنّه سعيد بتناول هٰذا الطعام اللذيذ.

وعليه فانّ السعادة تتضمن اللذة الدائمة، فاذا اُتيح للإنسان أن يلتذ باستمرار في حياته فانّه سعيد تماماً، ولكن نظراً لعدم وجود حياة خالية عن الآلام والمعاناة أمكن القول: إنّ اسعيد في هٰذا العالم هو من فاقت لذّاته آلامَه ومعاناتِه كماً وكيفاً ويلاحظ فيه أولاً: التفوق كيفاً، وثانياً: الدوام كماً.

والقرآن الكريم لدىٰ مقارنتة بين اللذّات الدنيويّة والاُخروية، ومن أجل الترغيب في الآخرة والحثّ علىٰ التحرك في طريق السعادة المعنويّة يركّز في تعبيراته ـ نظير **﴿وَالآخرةُ خَيرٌ وأبْقىٰ﴾** ـ علىٰ هاتين الخصوصيتين ويذكّر دائماً بهٰذه الحقيقة: إنّ اللذة في الآخرة هي الأفضل كيفاً، و الأدوم كماً من اللذة في الدنيا.

حياة الإنسان... رؤية قرآنية

في الرؤية الإلٰهيّة تتضمن حياة الإنسان مرحلتين:

مرحلة الدنيا ومرحلة الآخرة، وتكون الحياة الدنيويّة كطرفة عين قياساً الىٰ الحياة الأُخروية بحيث لا يمكن القياس بينهما، ولا تُعتبر شيئاً يذكر بالنسبة الىٰ الحياة الخالدة.

وعليه إذا كانت دنيا الإنسان كلُّها قرينة الآلام ومليئة بالمعاناة لم تكن شيئا يذكر قياساً الىٰ اللذّات الدائمة في الحياة الآخرة، والتي تكون أبدية وأفضل. ومتىٰ ما فاز الإنسان بالآخرة إزاء الآلام في الدنيا كان سعيداً، وعلىٰ العكس إذا كانت حياته الدنيويّة عامرة باللذة و لكن كان ثمنها الشقاء والعذاب الأُخروي فلا يمكن اعتباره سعيداً أبداً. الاّ أنّنا ننسىٰ الآخرة والحياة الأبدية تماماً، فينقسم الناس الىٰ فئتين: سعداء وأشقياء، أما السعيد فهو الذي ينعم بمزيد من اللذة، وأما الشقي فهو الذي فاقت معاناته لذّاته في الدنيا.

لقد استعمل مفهوم السعادة في موضع قرآني واحد بنحو منسجم مع الرؤية الإلٰهيّة الواسعة عن الإنسان وذلك في الآية:

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[١].

بناءً على ذلك إذا لاحظنا حياة الإنسان وفق الرؤية الإلٰهيّة وفي ضوء المعارف

(١) هود: ١٠٥ ـ ١٠٨.

القرآنية كانت حياته الدنيويّة لا شيء قياساً الىٰ المجموع، فمن يخلد في النار ـ وإن فرضنا له عمراً مليئاً باللذة في هٰذه الحياة المؤقّتة ـ كيف يمكن القول إنّه إنسان سعيد؟

وعلىٰ العكس إذا كان سعيداً في الحياة الأبدية خالداً في الجنة ـ كما يعبّر القرآن الكريم ـ فانّه حتّىٰ لو قضىٰ لحظات العمر القصير في الدنيا معذّباً، فانّه سيكون سعيداً، ولا تُعتبر معاناته في الدنيا شيئاً يذكر قياساً الىٰ المجموع.

وعليه فانّ ملاك السعادة والشقاء في الرؤية الإنسانية الإسلامية هو اللذة والعذاب الدائمان، بمعنىٰ أنّ الاسلام لا يغيِّر مفهوم السعادة والشقاء، ولا يأتي بمفهوم جديد في هٰذا السياق بحيث يكون بعيداً عن إدراك الناس وفهمهم، بل يرىٰ السعادة بمعناها الشائع وهو اللذة الدائمة، ويرىٰ الشقاء بمعناها العرفي وهو العذاب والألم، الاّ أنه يُجري تغييراً في مصاديقهما، وذلك لأن اللذائذ والآلام في الدنيا غير دائمة وغير ثابتة، فيشير الىٰ اللذائذ والآلام الدائمة في عالم الآخرة كمصاديق صحيحة وحقيقية للسعادة والشقاء.

ولفظ (الفلاح) يستعمل بمعنىٰ التحرّر من الابتلاء والمعاناة والموانع، والوصول الىٰ الغاية والمقصود. والإنسان في طريقه اليهما يصارع الموانع والأعداء، ويتوفق بجهاده وسعيه لرفعها، ثمّ يصل الىٰ غايته ومقصوده فيقال حينئذ إنّه (قد أفلح) أي تحرّر وارتاح وتغلّب علىٰ عدوّه. انّ لفظ الفلاح يستعمل في مثل هٰذه الموارد.

والقرآن الكريم قد استعمل لفظ الفلاح في مواضع منها:

ـ حينما تقرّر أن يستعرض سحرة فرعون قوّتهم أمام موسىٰ عليه السلام، يحكي القرآن ما قاله فرعون لتشجيعهم ودعمهم:

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾[١].

فاستعمل لفظ (أفلح) بدلاً عن انتصر وتغلّب علىٰ الخصم، كما استعمله في المجال المعنوي وذلك بالنسبة للذين ينجون من العذاب والبلاء و بحظور بالحياة السعيدة الطيّبة. لنلاحظْ هٰذه الآيات:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾[٢].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[٣].

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤].

أجل، إنّ تزكية النفس وتهذيبها ليسا مؤثرين في وصول الإنسان الىٰ الفلاح فحسب، بل ينحصر الطريق إليه فيهما، كما ذكر القرآن الكريم ذلك كثمرة للعبادات والأعمال الصالحة للإنسان في آيات أُخرىٰ، واستعمل معها لفظ (لعلّ)، كقوله تعالىٰ:

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦].

في مثل هٰذه المواضع التي أراد الله عزّوجلّ ترغيب الناس الىٰ ذكر الله والتقوىٰ واجتناب المعاصي يشير بعبارة «لعلكم تفلحون» إلىٰ أن الغاية النهائية للإنسان هي الفلاح، ويعلّم الإنسان أنّ الوصول إليها يستدعي ممارسة الأعمال الصالحة وترك الأعمال القبيحة.

ويعرض القرآن الكريم (الفلاح) غايةً للأعمال الصالحة، ولذا ينبغي امتثال

---

(١) طه: ٦٤.

(٢) الأعلىٰ: ١٤.

(٣) الشمس: ٩.

(٤) المؤمنون: ١.

(٥) الجمعة: ١٠.

(٦) آل عمران: ١٣٠.

العبادات والأفعال الحسنة للوصول اليه. لكن لا يذكر للفلاح نفسه هدفاً وغاية أبداً، ولا يقول ماذا سيحصل لمن يفلح؟ وذلك لعدم وجود غاية أُخرىٰ وراء الفلاح.

للمثال نلاحظ الآيتين:

﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهىٰ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[2].

نجد قد عبّر فيهما عن ذكر الله والابتعاد عن الفحشاء والمنكر غايةً للصلاة ونلاحظ الآية:

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

نجد أنه اعتبر لذكر الله ـ وهو المذكور كغاية للصلاة في الآيتين السابقتين ـ غايةً، وهي الوصول الىٰ الفلاح، ولكن سوف لا نجد حتّىٰ في موضع قرآني واحد عبارة تَعتبر شيئاً آخر كغاية للفلاح، مثل أن يقول (افلحوا لعلكم كذا...).

من هنا نستنتج إنّ الفلاح هو الغاية النهائية والمقصود الذاتي، كالسعادة التي هي تعبير آخر عن الغاية.

ولفظ (فوز) هو الآخر يعني الفلاح والوصول الىٰ المقصود ـ مادّياً كأن أو معنوياً ـ.

إن ضالّة الإنسان في الدنيا هي الحياة الأبدية واللذة الخالدة، ولأجل ذلك يتحمل المشكلات المؤقتة، وحينما يصل الىٰ الحياة الأبدية واللذة الدائمة يكون قد أفلح وفاز.

---

(١) طه: ١٤.
(٢) العنكبوت: ٤٥.
(٣) الانفال: ٤٥.

هٰذا وقد استعمل القرآن لفظ (فوز) في موارد مختلفة كما في هٰذه الآيات:

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[١].

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾[٢].

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

واستعمل تعبيراً آخر في بعض الآيات كقوله تعالىٰ:

﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[٤].

وفي بعض آخر استعمل تعبيراً يختلف عن التعبيرين المذكورين كقوله تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا...﴾[٥].

ج ـ دور سعي الإنسان في الوصول الىٰ الغاية

المبدأ الثالث هو أن يعلم الإنسان بأنّ لمساعيه دوراً في الوصول الىٰ غاياته ومقصوده، وأنّ نتائجها تعود عليه، وذلك لكي يبادر بشوق الىٰ النشاط والسعي. فالإنسان إذا كان له مقصود نهائي ثمّ ظنّ أنّ أعماله ومساعيه لا تأثير لها، أو أنّ نتائجها تعود الىٰ الغير ولا تقرّبه من المقصود والغاية النهائية ضعف دافعه للعمل والسعي، فلا يُتعب نفسه للوصول اليه. من هنا كان من الضروري الإعتقاد بهٰذا

---

(١) البروج: ١١.
(٢) الانعام: ١٦.
(٣) المائدة: ١١٩.
(٤) الاحزاب: ٧١.
(٥) التوبة: ٢٠ ـ ٢٢.

المبدأ والعلم بتأثير الأعمال والسلوك الإنساني علىٰ مصيره، وذلك لحثّه علىٰ التحرك والسعي في طريق الأهداف الأخلاقية السامية، ولْيعلم أن كلّ حركة أو عمل يقوم به باختياره ستعود نتيجته وما يترتب عليها من نفع أو ضرر على نفسه حتماً، فانّه هو الفاعل لذلك العمل أو الحركة، ولا يُحرم من النتائج التي يتوخاها من أعماله أبداً، كما لا يُصان من تبعات سلوكه السيّىء، إذ ليس لله تعالىٰ في ذلك أيُّ نفع أو ضرر. ومن الممكن طبعاً أن يعمّ الآخرين بخيره أيضاً، لكن حتّىٰ ذلك سوف يعود عليه بنحو ما.

وللمبدأ المذكور أبعاد مختلفة نشير إليها:

البعد الأول: انّ سعي الإنسان لن يذهب هدراً بل ستعود ثمرته عليه.

البعد الثاني: انّ فوز الإنسان وفلاحه لن يتحققا بدون سعي اختياري، فبسعيه واجتهاده يمكن أن يصل الىٰ مقصوده النهائي، وليس بإمكان الآخرين تغيير مصيره.

البعد الثالث: لا يحمل الإنسان وبال الآخرين ولن يتوجه إليه اضرار سلوكهم.

والقرآن الكريم يؤكّد هٰذا المبدأ ويوضّح أبعاده المختلفة في آيات كثيرة، ونشير هنا الىٰ عدد منها قدر ما يسمح المجال:

أ ـ الآيات التي تدلّ على أن سعادة الإنسان وشقاءه الأبدي والأُخروي يتوقف علىٰ أعماله، وأن ما يفعله هنا سوف يجد نتيجته في الآخرة وقد استعمل لفظ (العمل) في بعضها، كما في الآيتين التاليتين:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[١].

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[٢].

---

(١) الزلزلة: ٧ و ٨. (٢) النساء: ١٢٣.

وآيات أُخرىٰ قد استعملتْ لفظ: عملوا، وتعملون، ويعملون، وقد استعمل في بعض آخر من هٰذه الآيات لفظ (فعل) كقوله تعالىٰ:

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

وفي الكثير من الآيات استعمل لفظ (كسب) وهو يعبّر عن هٰذه الحقيقة وهي توقف النتيجة النهائية للحياة علىٰ كسب الإنسان، كقوله تعالىٰ:

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٢].

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

وعليه فانّ الآيات المذكورة تثبت أنّ العمل الاختياري للإنسان وكسبه هو الموجب لشقائه أو فلاحه وليس شيئاً آخر.

ب ـ مجموعة أُخرىٰ من الآيات تبيِّن هٰذه الحقيقة وهي أنّ أيّ عمل يمارسه الإنسان ـ صالحاً كان أو سيّئاً ـ فانّ نتيجته تعود عليه، كقوله تعالىٰ:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٤].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٥].

﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾[٦].

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٧].

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾[٨].

جميع هٰذه الآيات يذكّر بهٰذه الحقيقة وهي أنّ نتائج أعمال الإنسان لن تذهب هدراً، خاصّةً أنها تذكّر بهٰذه الحقيقة بصورة آكد وهي أنّ هٰذه النتائج لا تعود علىٰ

---

(١) الحج: ٧٧.
(٢) يونس: ٥٢.
(٣) التوبة: ٩٥.
(٤) الإسراء: ٧.
(٥) الانعام: ١٠٤.
(٦) النمل: ٩٢.
(٧) النمل: ٤٠.
(٨) فاطر: ١٨.

الله لانّه ليس بحاجة الىٰ الآخرين، بل إنّ ثمرة أعمال الإنسان تعود عليه فحسب.

ج ـ انّ الآثار السيئة للأعمال السيئة وغير اللائقة بالإنسان تلازم صاحبها فقط، وقد وردت آيات كثيرة في هٰذا السياق، كقوله تعالىٰ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾(١).

وعدد آخر من هٰذه الآيات يدلّ على أن وزر الأعمال السيئة لأيّ إنسان ووبالها لا يُحمل علىٰ أيّ إنسان آخر، كقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٢).

﴿وَ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْه شَيْءٌ ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(٣)

أجل، حتّىٰ لو كان حِمْل الإنسان ثقيلاً ثمّ دعا الآخرين لإعانتهم عليه فانّهم لا يعينونه وإن كانوا أقرباءه. قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٤).

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٥).

والآيتان الأخيرتان أكثر شموليةً من السابقتين (الزمر: ٧ وفاطر: ١٨) حيث بيّنتا الحقيقتين ـ أي ردّ الآثار السيئة علىٰ فاعله وعدم تحميلها الآخرين في آن واحد.

وأخيراً فانّ الآيات (٤١ ـ ٣٨) من سورة النجم هي أشمل الآيات، قال تعالىٰ:

---

(١) فصلت: ٤٦.
(٢) الزمر: ٧.
(٣) فاطر: ١٨.
(٤) الانعام: ١٦٤.
(٥) الإسراء: ١٥.

﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾

هٰذه الآيات تبيّن بصورة شاملة الأبعادَ المختلفة للمبدأ المبحوث عنه في الفقرة (ج)، وهي الأبعاد التي بيّنها سبحانه وتعالىٰ لانبيائه عليهم السلام وأُمروا بإبلاغها الىٰ الناس وتأكيد حقانيتها وحتميتها:

أولاً: انّ نتائج أفعال الإنسان تعود عليه نفسه.

ثانياً: لا يَحمل الإنسان حمل أيّ شخص آخر.

ثالثاً: لا حصيلة للإنسان سوىٰ ما سعىٰ إليه ولا يعود عليه شيء آخر.

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

يظن بعض البسطاء أنّ هٰذه الآية وأمثالها تبيّن مبدأً اقتصادياً وقانوناً تشريعياً وتبيّن أنّ الإنسان في المجتمع لا يملك في حياته الماديّة سوىٰ ما يكسبه بعمله وسعيه.

والحقيقة هي أن صحة وسقم المبدأ الإقتصادي المذكور يبحث في باب الإقتصاد ولا نصدر حكماًبصدده هٰهنا.

ما نقوله بالفعل هو أنّ القرائن تدلّ على أنّ هٰذه الآية لا علاقة لها بالمبدأ المذكور ـ صحيحاً كان أو سقيماً ـ وإنّما هي ناظرة الىٰ حقيقة أُخروية ترتبط بالقيامة، وهي أنّ الإنسان لا يحمل حمل شخص آخر، وليس له الاّ جهد نفسه وما سعىٰ إليه كما قال في الآيتين (٧ و ٨) من سورة الزلزال من أنّ كلّ إنسان سيرىٰ ما يفعله، ويتلقّىٰ أجره كاملاً وتامّاً.

إشكالات وردود

ثمة إشكالات قد أثيرت أو يمكن إثارتها حول ما ذكر، نشير هنا الىٰ عدد منها:

■ عن سعادة الإنسان التي تُنال بأعماله الاختيارية فقط، يمكن القول أنّ هٰذه المقولة تتعارض مع مبدأ الشفاعة، لأنّ الإنسان الذي تشمله الشفاعة سيحظىٰ بنعم تكتمل بها سعادته وفلاحه الأُخروي دون أن ينجز عملاً بل عن طريق آخر غير أعماله، وهٰذا يعني وجود عوامل أُخرىٰ غير الأفعال الاختيارية وخارج نطاق الاختيار يكون لها دور في تحقيق سعادته الأبدية، وعلىٰ خلاف ماورد في بعض الآيات القائلة بأن ليس للإنسان الاّ ما سعىٰ توجد بين يدي الإنسان أمور أُخرىٰ الىٰ جانب سعيه. في هٰذه الحالة يُسأل: مع وجود هٰذه العوامل لماذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[١]، وبعبارة أُخرىٰ: تتعارض هٰذه الآيات بوضوح مع آيات الشفاعة التي تعتبر عاملاً مؤثراً غير العمل في تحقيق سعادة الإنسان.

للإجابة عن الإشكال ينبغي القول: إنّه تعارض ظاهري يزول بعد التأمل، أي لا تعارض في الواقع بين هاتين المجموعتين من الآيات، إذ لا يحظىٰ كلّ إنسان برعاية الشافعين، بل من توفّرت فيه الأهلية والجدارة اللازمة فقط.

فلا يمكن القول: لا علاقة بين الشفاعة وبين عملنا الاختياري، لأن علىٰ الإنسان ـ بسعيه وجهوده ـ أن يكسب الجدارة اللازمة والإستحقاق لنيل الشفاعة.

ويلاحظ مثل هٰذا التعارض البدوي في موارد أُخرىٰ من الآيات القرآنية، كقوله تعالىٰ:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢].

---

(١) النجم: ٣٩. (٢) الانعام: ١٦٠.

وأكثر من ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١].

وفي مقابل هٰذه الآيات تَحصر آيات أُخرىٰ الجزاءَ في عمل الإنسان فقط كقوله تعالىٰ:

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٢].

حيث يبدو وجود تعارض بين هٰذه الآيات، لأنّه إذا كان ما يقدِّم للإنسان هو جزاء عمله فقط، كما تدلّ عليه الآية الأخيرة، فلا يمكن تبرير التسعة الباقية من (فله عشر أمثالها) بل وأكثر من ذلك بمقتضىٰ (والله يضاعف لمن يشاء) والذي يمنحه الله تفضلاً وزيادة علىٰ ما بذله الإنسان من سعي، لأن الإنسان لم يبذل إزاءه سعياً ولا جهداً وعناءً.

جواب هٰذا الإشكال يستفاد من الآيات نفسها، وبعد التأمّل سنلاحظ عدم وجود تعارض في الحقيقة بينها، إذْ إنّ الله تعالىٰ لا يتفضل بالمقدار الزائد علىٰ أيّ إنسان جزافاً، بل علىٰ الذين أحسنوا أداء الأعمال وجاؤوا بالحسنة فقط (جاء بالحسنة) وعليه يكون المقدار الزائد ـ في الحقيقة ـ نتيجةً لعمل الإنسان نفسه قد صار عشر أمثاله بل وأكثر منه، إذنْ هناك عمل يؤهّل الإنسان للشفاعة أو يجعله مستحقاً لتفضل إلٰهي آخر، وفي مثل هٰذه الموارد يعطي الله بفضله نوعاً آخر من الجزاء لصاحب ذلك العمل، وذلك عن طريق الشفاعة أو طريق آخر، أي سيكون ذلك من النتائج غير المباشرة لذلك العمل الصالح الذي أدّاه الإنسان وليس اعتباطاً وبدون حساب.

---

(١) بالبقرة: ٢٦١.

(٢) يونس: ٥٢.

ممّا ذكر يمكن أن نفهم أن آيات الشفاعة توضّح الآية **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾**[١] وأمثالها، فهي ـ حسب الاصطلاح ـ حاكمة عليها، أي توسّع دائرة (ما سعىٰ) وتبيِّن أنّ السعي في الآية أعمُّ من السعي الموصل للنتيجة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويثمر بالواسطة.

■ ■ بالنسبة لما يقال من أن لكلّ عمل أثره الخاصّ وأن من يعمل أبسط عمل، صالحاً كان أو سيئاً سوف يراه كما قال تعالىٰ:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٢].

قد يظن شخص أن لا انسجام بين هٰذا التعبير وبين تكفير الذنوب وغفرانها من قِبل الله سبحانه، وتتعارض الآية مع أمثال هٰذه الآية:

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٣].

خاصّةً وأن مقتضىٰ بعض الآيات هو غفران بعض الذنوب في هٰذه الدنيا ومحو آثارها كآيات التوبة وغيرها، وفي هٰذه الحالة لا يمكن رفع التعارض بهٰذا النحو وهو أنّ المذنب بمقتضىٰ الآية **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾** سوف يرىٰ ذنبه يوم القيامة ثمّ يشمله العفو بمقتضىٰ آيات أُخرىٰ، لانّه بمقتضىٰ هٰذه الآيات قد غفر ذنبه في الدنيا.

جوابنا عن هٰذا الإشكال هو الجواب عن الإشكال الأول نفسه، أي إن مثل هٰذه الآيات التي تتحدّث عن غفران الذنوب والتكفير عن السيئات توضّحُ في الحقيقة الآية **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾** فهي حاكمة عليها حسب الاصطلاح، ولكن

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) الزلزلة: ٧ و ٨.

(٣) الانفال: ٢٩.

علىٰ عكس المورد المذكور تقوم هٰذه الآيات بتضييق وتحديد دائرة الأعمال التي يراها الإنسان وتقول: إنّ الأعمال التي لا تمحىٰ آثارها من قِبل الإنسان نفسه وتبقىٰ علىٰ حالتها الأُولى ستكون بمرأىٰ منه، وليس تلك الذنوب التي تمّ محوها بالتوبة، ولا السيئات التي كفّر عنها باجتناب الكبائر أو طريق آخر.

كما أن تجسُّم الأعمال يوم القيامة المستفاد من بعض الآيات يتعلّق بالأعمال التي تبقىٰ حتّىٰ لحظات الاحتضار، أما إذا مُحيت ذنوب الإنسان في هٰذه الدنيا بعوامل أُخرىٰ كالتوبة واجتناب الكبائر[١]، أو الأعمال الصالحة[٢] فسوف لا يبقىٰ عمل ليُتجسَّم ويرىٰ يوم القيامة.

■ ■ ■ فيما يتعلّق بالآية ﴿**أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٣] وأمثالها وهي خمس آيات علىٰ ما ذكر آنفاً والتي بُيّن فيها هٰذا المبدأ الثابت والآبي عن الإستثناء وهو: أنّ كلّ إنسان لا يحمل أثقال إنسان آخر، قد يظن أنّ المبدأ المذكور ومضمون الآيات المذكورة يتعارض مع الآية ٢٥ من سورة النحل القائلة:

﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾[٤].

للإجابة عن الإشكال ينبغي الإلتفات الىٰ ملاحظة ظريفة في الآية وهي أنها لم تقل: كلّ إنسان يحمل اثقال كلّ إنسان آخر، بل هي تختص بالذين أضلّوا غيرهم، وتحكي عن هٰذه الحقيقة وهي أنّ المضلَّ يحمل جزءً من حِمل الذين أضلّهم، فهو

---

(١) (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) النساء: ٣١.

(٢) (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته) التغابن: ٩.

(٣) النجم: ٣٨. (٤) النحل: ٢٥.

يحمل في الواقع حِمله، لأن هٰذا الحِمل هو نتيجة إضلاله، وعليه تكون الذنـوب التي يرتكبها الضالُّ تأثّراً بإضلال المضِل أثراً لذلك الضلال نفسه، ويكون وبـالاً علىٰ المضِل الذي أضلّه بسعيه، وأوجد هٰذه الآثار السيئة والحمل الثقيل.

من البديهي أنّا لا نريد القول بأن ليس للضال أيُّ دور في ارتكاب الذنوب أبداً، وأن ذنوبه كلها تتعلّق بالمضِل، فانّه علىٰ أيّ حال قـد ارتكب الذنب بـاختياره، فعليه أن يتحمل جزءً من حِمل ذنبه الثقيل.

وعليه لا تقول الآية (حَمله كله) بل تقول: إنّه يتحمل جزءً من وزر ذنبه، وعليه سوف يبقىٰ باقي الحِمل علىٰ عاتقه، أي إنّ المضل يتحمل من تبعات ذنوب الضالّ ما نشأ من الإضلال، ويتحمل الضالُّ البقيةَ لانّه فاعلها.

* * *

القسم الأول



الخصائص والحيثيات في المفاهيم الأخلاقية

العلاقة الخاصّة بين المفاهيم الأخلاقية والفعل الاختياري

الخصوصية القيمية للمفاهيم الأخلاقية

انتزاعية المفاهيم الأخلاقية

الهداية والضلال

المعروف والمنكر

الطاعة والعصيان

الخصائص والحيثيات
في المفاهيم الأخلاقية

للمفاهيم الأخلاقية بلحاظ وجودها في إطار الأخلاق خصائص وكيفيات نشير الىٰ عدد منها:

الترابط الخاصّ بين المفاهيم الأخلاقية والفعل الاختياري

يمكن تقسيم الألفاظ المستعملة في القضايا والموضوعات الأخلاقية الىٰ ثلاث مجموعات:

المجموعة الأُولى: الألفاظ التي يرتبط بعضها بغايات الأخلاق ونتائجها من قبيل مفاهيم الفلاح، والفوز والسعادة، وتُقابلها مفاهيم الخسران، والشقاء والهلاك. بمثل هٰذه المفاهيم فقط تُبيَّن نتائج الأفعال الأخلاقية، ولا يتصف الفعل الاختياري نفسه بهٰذه الصفات الاّ مجازاً. وبما أنّ نطاق الأخلاق يختص بالأفعال الاختيارية أو الصفات والملكات النفسانية الحاصلة منها فلا يمكن اعتبار هٰذه المجموعة من المفاهيم منٰ العناوين الأخلاقية الأصلية.

المجموعة الثانية: المفاهيم التي تقع صفة للأفعال الاختيارية والصفات والملكات النفسانية، كما تقع صفة للأعيان والأشياء الخارجيّة التي تكون أجنبية تماماً عن أفعال الإنسان الاختيارية والأخلاقية من قبيل مفهوم الخير والشر، الحسن والسوء في الاصطلاح القرآني والحُسن والقُبح في اصطلاح علم الكلام.

إنّ الحسن والسوء اللذين يستعملان عادةً في القرآن الكريم والحوارات العرفية كمفهومين متقابلين يطلقان علىٰ الأعيان الخارجيّة وعلىٰ الأفعال الاختيارية والأخلاقية أيضاً، كما يستعملان في الأشخاص أحياناً فإنّما يمكن اعتبارهما من المفاهيم الأخلاقية عند استعمالهما في مورد الأفعال الاختيارية بقيد كونهما صفة للفعل الاختياري أو الملكات النفسانية، ويكتسبان حينئذ معنىً قيمياً بمفهومه الأخلاقي.

المجموعة الثالثة: المفاهيم التي تقع صفة لأفعال الإنسان الاختيارية فقط من قبيل مفهوم البِرّ والفجور، وتعتبر هٰذه المجموعة من المفاهيم الأخلاقية بصورة مطلقة.

وعليه فانّ إحدىٰ خصائص المفاهيم الأخلاقية هي ترابطها الوثيق مع الأفعال الاختيارية وتُعدّ من مجموعة المفاهيم الأخلاقية في هٰذا الترابط، فاذا استعملت باستمرار كصفة للفعل الاختياري فانّها تُعدّ من المفاهيم الأخلاقية المطلقة، وإذا كانت ـ إضافةً الىٰ ذلك ـ من صفات الأعيان فانّها ستكون أخلاقية حينما تكون صفة للفعل الاختياري والملكة الحاصلة منه والمؤثرة فيه.

الخصوصية القيمية للمفاهيم الأخلاقية

قلنا في الفصل الأول أنّ القرآن الكريم يعرض الفوز، والفلاح والسعادة كنتيجة

وغاية نهائية للأفعال الأخلاقية والتحلّي بالصفات الحميدة، ممّا يعني أنّ هٰذه العناوين مطلوبة بالذات لكنها لا تقع في مجموعة الأفعال الاختيارية، ويصحّ القول بأنّ نيل الفلاح والفوز ممكن عن طريق أداء مجموعة أفعال اختيارية فقط، وعليه فانّ نيل الفلاح يعني أداء تلك الأفعال، وهو مقدور لنا عن هٰذا الطريق.

ولكن من المسلّم به أن ترتب الفوز والفلاح علىٰ هٰذه الأفعال معلول للعلاقة الضرورية والقهرية بين هٰذه الأفعال وتلك النتائج والغايات، إنها الرحمة الإلٰهيّة التي تعطى ـ وفق الرؤية التوحيدية ـ كجزاء على تلك الأفعال.

وعليه لا يعدّ الفوز، والفلاح والسعادة وما شاكلها من عناوين جزءً من أفعال الإنسان، ولا تقع في دائرة اختياره مباشرةً، كما أنّ مرغوبية هٰذه العناوين وقيمتها ليست أخلاقية على الاطلاق، وبعبارة أُخرىٰ: للقيمة اصطلاحات و استعمالات متنوعة يرتبط بعضها بالأخلاق بالأصالة، و بعضها بالتبع كالقيمة والمرغوبية التي تنتزع من نتائج الأفعال الأخلاقية و تستعمل كصفة لها، و تعتبر الأفعال الأخلاقية ذات قيمة نظراً الىٰ أنها أسباب و ذرائع لتحقيق تلك النتائج القيّمة و المطلوبة ذاتاً. فهناك نوعان من القيمة، أحدهما يتعلّق بنتيجة الفعل الأخلاقي المطلوبة ذاتاً، و ثانيهما يتعلّق بالفعل الأخلاقي نفسه، ومطلوب لأجل التوصل به الىٰ تلك النتيجة.

ممّا سبق يُعلم أنّ القيمة الأخلاقية التي تطلق علىٰ الفعل الأخلاقي تختلف مع قيمة النتيجة اختلافاً أساسياً، لأنّ قيمة النتيجة تكون بمعنىٰ المرغوبية بالذات، وقيمة الفعل بمعنىٰ المرغوبية بالغير.

إنّ الأفعال الأخلاقية لها مرغوبية بالغير دائماً، وتعود قيمتها الىٰ النتيجة التي تعود علىٰ الإنسان بأداء هٰذه الأعمال، وليست من سنخ قيمة الفلاح والفوز بمعنىٰ المرغوبية بالذات. هٰذه القيمة الأخلاقية صفة للفعل الاختياري وتُبيَّن بلفظ

(ينبغي) في حين لا تكون قيمة النتيجة للفعل، أي الفوز والفلاح، من سنخ القيم الاختيارية.

ومن الضروري التنبيه علىٰ هٰذه الملاحظة وهي: انّ ما ذكر عن القيمة الايجابية تصدق علىٰ القيمة السلبية جملةً وتفصيلاً، أي كما أنّ القيمة الأخلاقية الإيجابية في مورد الفعل تكون دائماً ذات مرغوبية مترشحة من القيمة الذاتية والمرغوبية الذاتية لنتيجته فانّ القيمة الأخلاقية السلبية أيضاً تكون أولاً: صفة للفعل الاختياري للإنسان، وثانياً: مترشحة من القيمة السلبية والمبغوضية بالذات للنتيجة غير المطلوبة لذلك الفعل، فهي مبغوضة بالغير علىٰ عكس القيمة السلبية للنتيجة وتُبيّن بـ(لا ينبغي).

ممّا ذكر نستنتج أنّ جميع المفاهيم الأخلاقية وإن كانت قيمية الاّ أنّ أيّ مفهوم قيميّ لا يمكن أن يعتبر أخلاقياً كمفهوم السعادة والفلاح أو الشقاء والخسران. كما أنّ أيّة قضية قيميّة لا تعتبر من القضايا الأخلاقية، فمثلاً: لا يمكن عرض قضية (ينبغي أن يكون الإنسان سعيداً) كإحدىٰ القواعد أو القضايا الأخلاقية، لأن ما يطلب من الإنسان في نطاق الأخلاق هو أداء أو ترك مجموعة من الأفعال الاختيارية التي تكون سبباً لسعادته وفلاحه أو شقائه، فالسعادة والشقاء ليسا اختياريَّين بالذات لكي يُطلبا أو يُمنعا مباشرةً، وإن قيل أحياناً (تنبغي السعادة) فانّ هٰذه الـ(تنبغي) تنتسب الىٰ النتيجة بالعَرض لا حقيقةً، لانّها تتعلّق أساساً وبلا واسطة ـ بالفعل المنتج لـ(السعادة)، وفي الصورة الصحيحة للقضية يقال: (ينبغي.. أداء فعل يوصلنا الىٰ السعادة)، وهٰذا التعبير يشابه ما يقال في الفقه: (تنبغي الطهارة) والمقصود الأولً هو: (يجب أداء فعل الوضوء لكي تحصل الطهارة) أي إن (تنبغي) تتعلّق بـ(عنوان محصِّل) للنتيجة ويكون إسناده الىٰ النتيجة نفسها إسناداً مجازياً لا أكثر.

نستنتج ممّا ذكرنا حول القيمة وتقسيمها فيما يرتبط بالأخلاق أنّ علينا رعاية الدقة في هٰذا المجال والتمييز بين قيمة النتيجة والفعل لكي لا نُعدّ ـ إثر ظنّ خاطىء ـ قيمة النتيجة من زمرة المفاهيم والقيم الأخلاقية، لأنّ قيمة الفعل قيمة أخلاقية فقط وتكون في جملة المفاهيم الأخلاقية.

انتزاعية المفاهيم الأخلاقية

أوضحنا في (فلسفة الأخلاق) أنّ القضايا الأخلاقية هي في الحقيقة قضايا خبرية وتتركب من موضوعات ومحمولات، والموضوعات في القضايا الأخلاقية عناوين انتزاعية والمفاهيم الماهوية والعناوين الأولية إنّما يصحّ اعتبارها كموضوعات لهٰذه القضايا وجعلها مشمولة لحكمها في حالة وجود عنوان انتزاعي كواسطة.

فالعدالة ـ مثلاً ـ لا تكون ماهية خارجية وواقعاً عينياً، بل هي عنوان ينتزع من حيثية (أداء الفعل في محله ورعاية حقوق الآخرين) كما لا يكون كلّ من الظلم، والتقوىٰ، والفجور، والفسق، والحق، والباطل واقعاً عينياً، بل إن أذهاننا تنتزع هٰذه المفاهيم بملاحظتها الخاصّة للمفاهيم الأولية. إنّ المفاهيم الماهوية التي تنعكس في أذهاننا مباشرةً عن الأعيان الخارجيّة من قبيل الكلام، والمشي، والأكل، والضرب وغيرها إنّما تحلّ محلّ الموضوع في القضايا الأخلاقية وتكون مشمولة لأحكامها بالنظر الىٰ كونها مصاديق مذكورة لأحد العناوين الإنتزاعية، ولا يمكن اعتبارها حسنة أو سيئة بالنظر الىٰ ذواتها من دون اعتبار تلك المفاهيم الإنتزاعية التي هي موضوعات حقيقية للقضايا الأخلاقية.

أما المحمولات في القضايا الأخلاقية فانّها تكون دائماً مفاهيم من قبيل الخير والشر، والحَسن والقبيح، والواجب والحرام ومفاهيم أُخرىٰ مشابهة وليست من الأمور الواقعية التي تدرك بإدراكنا الحسي مباشرةً، بل هي نوع من المعقولات الثانوية التي تنتزعها أذهاننا بالنظر الىٰ التأثير الايجابي أو السلبي للأفعال في الوصول الىٰ الأهداف الأخلاقية.

حتّىٰ العناوين الحاكية عن الأهداف الأخلاقية من قبيل مفاهيم (الفوز) و(الفلاح) و(السعادة) و(الكمال) التي تكتسب الأفعال الأخلاقية مرغوبيتها في ضوء مرغوبية تلك الأهداف ليس لها واقع عيني ومحسوس ولا مفهوم ماهوي، وهي في ذاتها من العناوين الإنتزاعية.

ان لفظ (سعيد) ـ مثلاً ـ يعني أن يتوفّر لدىٰ الشخص ما يتلاءم مع نفسه، وتنتزع السعادة من علاقة النفس مع الأمر الملائم للطبع، كما تعتبر للفوز والفلاح هٰذه الحيثية بالضبط، وهما من المفاهيم الإنتزاعية التي يكون منشؤها الإنتزاعي هو النفس من جانب، ومن الأمور الملائمة للطبع من جانب آخر.

والأمر الملائم للنفس يؤثّر فيها بنحوين:

بصورة مباشرة أحياناً ويتحقّق تكوينياً في النفس علىٰ صورة صفة أو حالات، ووجوده في النفس يوفّر سعادتها، ويكون أحياناً موجوداً خارج النفس، لكن الإرتباط و الإتصال بها يوجب التذاذ النفس وسعادتها. فالمحسوسات ـ مثلاً ـ من الأمور الخارجيّة التي توجِد انفعالات في النفس، والاحساس ببعضها يحقق اللذة والسعادة لها. إنّ النوع الثاني من الأمور الملائمة للنفس وعوامل اللذة والسعادة وإن كان في ذاته خارجاً عن النفس، ولا علاقة لها معه ذاتاً الاّ أنّ اللذة التي تترتب عليها ترتبط قطعاً بالنفس مباشرةً، وليست أمراً خارجاً عن وجود النفس.

وعليه فانّ أسباب السعادة مهما كان شكلها وصورتها توجِد أمراً في النفس وتوفّره لها، وهو ما يطلق عليه فلسفياً (كمال النفس) أي إنّ الصفة الوجودية التي تتصف بها (النفس) يطلق عليها الكمال في الاصطلاح الفلسفي.

نستنتج من هٰذا الكلام أنّ السعادة والكمال وإن كانا مفهومين منتزعين من حيثيتين، الاّ أنّهما متحدان واقعاً ومصداقاً وغير قابلين للإنفكاك، أي إذا حصل كمال للنفس فانّ الإنسان يصبح سعيداً، والإنسان السعيد هو المتكامل.

الهداية والضلال

تتضمن الأفعال والصفات الأخلاقية ـ دائماً وفي جميع الموارد ـ إحدىٰ الحيثيتين (الهداية) و(الضلال) ومن المسلّم به أنّ الإنسان ـ في الحقيقة ونهاية الأمر ـ يسعىٰ في أفعاله وجهوده لتحقيق سعادته والوصول الىٰ فلاحه وفوزه وإن أمكن ارتكابه الخطأ في هٰذا الطريق.

هنا يُسأل: أين يرتكب الإنسان الخطأ، وفي أية مرحلة؟

للإجابة يمكن القول: من الممكن أن يقع الإنسان في الخطأ خلال المراحل المختلفة من حركته حتّىٰ يصل الىٰ نهاية الحركة والغاية النهائية، كالخطأ في معرفة الأهداف الأخلاقية، والخطأ في تشخيص مصداق السعادة والفلاح، والخطأ في تشخيص الطريق الذي يوصله الىٰ الأهداف الأخلاقية الصحيحة والسعادة الخالدة و...

علىٰ أساس ما ذكر قد يعرف الإنسان الغاية النهائية جيّداً دون أن يخطأ، ولكنه يخطأ في تمييز الطريق الصحيح للحركة نحوها، ويسلك طريقاً آخر للوصول إليها.

في هٰذه الحالة يكون دافعه الأول في هٰذه الحركة هو انجذابه نحو الغاية النهائية والمطلوب بالذات وفلاحه وسعادته الذاتية وإن سلك طريقاً منحرفاً، أي إنّ السالك في هٰذا الطريق الخاطىء طالب ـ في الحقيقة ـ لسعادته أيضاً، الاّ أنّه يخطأ في تمييز الطريق الموصل الىٰ ذلك، فبدلاً من إرادة الأفعال الحسنة وادائها يرتكب الفسق والفجور والأفعال التي لا تليق به، كما أنّ أشخاصاً كثيرين يعرفون الطريق المستقيم جيّداً ويسرعون نحو سعادتهم الخالدة وفلاحهم عبر هٰذا الطريق الصحيح ولا يقعون في مثل هٰذا الخطأ.

إنّنا بعد ملاحظة الطريق الخاطىء للمجموعة الأُولى، والطريق الصحيح للمجموعة الثانية ننتزع منهما مفهومي (الهداية) و(الضلال) المتقابلين.

يقول القرآن الكريم عن المجموعة الأُولى التي ترتكب الجريمة:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[١].

ويقول عن المجموعة الثانية التي تمارس الأفعال الصالحة واللائقة والتي ميزّت الطريق الصحيح واهتدت:

﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٢].

ممّا ذكر نستنتج أن (الهداية) و(الضلال) ليسا من المفاهيم الأخلاقية الخاصّة، بل يكون الإنسان مهتدياً بلحاظ أنّ العمل الذي يؤديه يوصله الىٰ هدفه المنشود، أو ضالاً لانّه لا يوصله الىٰ ذلك الهدف.

نعم، في حالة اتخاذ الإنسان الفلاحَ والسعادة الخالدة هدفاً لعمله الذي يؤديه تكون الهداية والضلال اللذان ينتزعان من ذلك العمل هداية وضلالاً أخلاقياً.

---

(١) ابراهيم: ٣. (٢) البقرة: ١٥٧.

المعروف والمنكر

قد تلاحظ حيثية «المعرفة» في العمل الأخلاقي ويؤدي هٰذا اللحاظ الىٰ ظهور مفهومَي (المعروف) و(المنكر) بهٰذا المعنىٰ: وهو أنّ (المعروف) يطلق علىٰ الأفعال الأخلاقية كي يعرفها العقل والعقلاء ويدركون صلاحها، لأنّ العقل يرغب ويتابع أفعالاً توصله الىٰ السعادة، على عكس الأفعال التي لها دور سلبي في تحقيق سعادة الإنسان ونيل فلاحه، فلا يعبأ بها ولا يريدها فـ(المنكر) يطلق عليها بهٰذا اللحاظ، أي إنّ ما ينكره العقل في الموصل الىٰ السعادة هو (المنكَر).

وعلىٰ أساس ما ذكر يمكن القول أن (المعروف) و(المنكر) يستعملان في الأفعال الأخلاقية أيضاًالاّ أنّهما ليسا في الأصل حيثيتين أخلاقيتين، ولا يعتبران من المفاهيم القيمية حسب المعنىٰ اللغوي.

الطاعة والعصيان

في النُّظم الأخلاقية التابعة للأديان ـ سيّما الأخلاق الإسلامية ـ تحظىٰ هٰذه الحقيقة باهتمام متزايد وهي: إنّ القيمة الايجابية والأفعال الصالحة تكون متعلّقة للأمر الإلٰهي، وفي المقابل تكون الأفعال القبيحة والسلبية متعلّقة للنهي الإلٰهي.

في هٰذه الحالة يمكن أن يؤدي المكلف أعمالاً صالحة ويترك أعمالاً قبيحة ومذمومة، وهٰذا يعني إنّه قد امتثل الأمر الإلٰهي وخضع لأحكامه وانسجمت أفعاله وسلوكه معها.

وعلىٰ العكس يمكن أن يترك عملاً صالحاً ويرتكب عملاً قبيحاً، وهٰذا يعني أنّه لم يخضع لاحكام الله ولم تنسجم أفعاله معها. إنّنا ننتزع مفهوم (الطاعة)

و(العصيان) من هذه المطابقة والانسجام، أو المخالفة واللاإنسجام.

ممّا ذكر ندرك أنّ (الطاعة) و(العصيان) ليسا حيثيتين أخلاقيتين أيضاً، ولا يعتبران أساساً من المفاهيم الأخلاقية والقيمية، بل ينتزعان بلحاظ مطابقة أو مخالفة أعمالنا للأوامر والنواهي الإلٰهيّة، ولكن بما أنّ الأمر الإلٰهي يتوجه الىٰ الأفعال الأخلاقية الصالحة، والنهي الإلٰهي الىٰ الأفعال الأخلاقية القبيحة في النظام الأخلاقي للاسلام ستكون (الطاعة) و(العصيان) من زمرة المفاهيم القيمية الأخلاقية الايجابية والسلبيةبالعَرض والواسطة. (الطاعة) تساوي العمل الصالح و(العصيان) يساوي ارتكاب العمل القبيح.

وفي القرآن الكريم استعمل لفظ (الطاعة) أو (العصيان) علىٰ نحو التقابل كقوله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١].

ويصدق أحد مفهومَي (الطاعة) أو (العصيان) بلحاظ ما ذكر في جميع الأفعال الأخلاقية، أي الأفعال التي تكون ممدوحة ومذمومة، وتؤدي الىٰ نتائج (طيبة) و(سيئة).

وعليه فانّ مفهومَي (الطاعة) و(العصيان) ليسا أخلاقيين بالذات، ولكن يصدق مفهوم الطاعة أو العصيان علىٰ مصاديق الأفعال الأخلاقية كافة، ويعتبران من المفاهيم الأخلاقية بالعرض.

* * *

(١) النساء: ١٣ ـ ١٤.

القسم الأول



المفاهيم الأخلاقية العامّة في القرآن الكريم

الخير والشر

النور والظلام

الحق والباطل

البِرّ والفجور

التقوىٰ

العلاقة بين التقوىٰ والإحسان

الصبر

الإحسان، العدل والظلم

كلمة قصيرة

المفاهيم الأخلاقية العامّة في القرآن الكَريم

المفاهيم التي تستعمل في الأفعال الأخلاقية ولها قيمة أخلاقية ومرغوبية بالغير هي مجموعة مفاهيم انتزاعية عامّة، ومجموعة مفاهيم خاصّة تكون مصاديق لتلك المفاهيم العامّة. ونروم هنا دراسة المفاهيم القيمية العامّة في القرآن الكريم بمعناها الأخلاقي.

ومن البديهي إنّ أوسع المفاهيم الأخلاقية هما مفهوما (الصالح) و(السيّيء) في مجال الأخلاق، أي في الموارد التي تقع صفة للفعل الاختياري للإنسان، وقد استعملت في القرآن الكريم مفاهيم تعادل مفهومي (الصالح) و(السيّيء) في مورد الأفعال الاختيارية، كما أنّها تستعمل في غير هٰذه الموارد. و حينما تستعمل في الأمور الأخلاقية تلحظ ـ طبعاً ـ حيثية الاختيار، وفي هٰذه الحالة تستعمل كصفة للفعل الاختياري للإنسان، ولكنّ بعضاً آخر منها يختص بالأفعال الأخلاقية ولا يستعمل خارج نطاق الأخلاق.

سنقوم هنا بدراسة المفاهيم الأخلاقية العامّة في القرآن الكريم بمقدار ما يسمح به المقال:

الخير والشر

(الخير) و(الشر) من جملة المفاهيم العامّة التي تستعمل في غير الأمور الأخلاقية أيضاً، وقد استعمل لفظ (الخير) في القرآن تارة بمعنىٰ (أفعل التفضيل) بمعنىٰ (أخيَر) قد حذفت منه الهمزة، وتارة بنحو وصفي مجرّد عن المفهوم التفضيلي. وإذا سلّمنا أساساً بأن (خير) مأخوذ من (أخير) وله معنىٰ تفضيلي دائماً فلابدّ أن نسلّم بانّه قد تجرّد عن هٰذا المعنىٰ في بعض الموارد، قال تعالىٰ في موضع:

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1].

وفي موضع آخر:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[2].

فلفظ (خير) في الآيتين وأمثالهما ليس له مفهوم تفضيلي أولاً، وليس صفة لفعل اختياري، بل استعمل كصفة للمال وهو عين خارجي ثانياً.

وقد اطلق الخير بمفهومه التفضيلي علىٰ الله سبحانه. قال تعالىٰ:

﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[3].

أو علىٰ السعادة الأبدية التي هي نتيجة لأفعال الإنسان الاختيارية من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[4].

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾[5].

---

(١) العاديات: ٨.
(٢) البقرة: ٢٧٢.
(٣) طه: ٧٣.
(٤) الأعلىٰ: ١٧.
(٥) النساء: ٧٧.

لقد أُطلق (خير) في الموردين هٰذين علىٰ الأعيان وليس من المفاهيم الأخلاقية. الاّ أنّه قد استعمل في آيات أُخرىٰ كصفة للأفعال الاختيارية، قال تعالىٰ مثلاً:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

انّ (خير) في هٰذه الآية جاء كصفة لعمل اختياري وهو «ردّ النزاع الىٰ الله والرسول» فله إذنْ مفهوم قيميّ وأخلاقي. الضابط العامّ هو أنّ لفظ (خير) حيثما جاء صفةً للفعل الاختياري للإنسان كان له مفهوم أخلاقي.

السؤال هنا هو: علىٰ أيِّ فعل من أفعالنا الاختيارية يطلق (الخير) وما هو معيار خيريّته؟

للجواب نقول: إنّ العمل الذي له دور ايجابي في تحقيق كمال الإنسان، أي العمل الذي يسعىٰ الإنسان بادائه للوصول الىٰ مقصوده وغايته النهائية سيكون خيراً بسبب تأثيره في ضوء ذلك المطلوب بالذات والغاية النهائية، أي لكونه سبباً وواسطة للوصول الىٰ الغاية النهائية والخير بالذات فهو خير بالواسطة ومطلوب بالغير اصطلاحاً ومنه ينتزع معنىٰ (القيمة الأخلاقية).

ممّا ذكر نستنتج أنّ (الخير) ليس ـ في ذاته ومطلقاً ـ معياراً للقيمة الأخلاقية، بل يكون أخلاقياً مع ملاحظة القيود المذكورة، كما أنّ (الشر) يكون أخلاقياً فيما لو أطلق علىٰ الفعل الاختياري، والفعل الذي له دور سلبي في تحقّق كمال الإنسان يكون (شرّاً).

---

(١) النساء: ٥٩.

فالشرُّ أيضاً يكون بملاحظة هٰذه القيود مفهوماً أخلاقياً وذا قيمة أخلاقية سلبية وبكلمة أُخرىٰ: اللاّقيمة.

النور والظلمة

في القرآن الكريم مفاهيم عامّة أُخرىٰ تستعمل في موارد الأفعال الاختيارية وغيرها، ويُتوهّم أنّها بمثابة المعيار للقيم الأخلاقية، ومنها مفهوم النور، والظلمة، والحق والباطل.

لقد بيّن القرآن في الكثير من الآيات أنّ المؤمنين والصالحين في نور أو يدخلون النور أو يتضاعف نورهم، وعلىٰ العكس يعيش الكافرون والطالحون في الظلمة أو يدخلون الظلمة أو تشتد ظلمتهم. وفي بعض الآيات أُطلق مفهوم النور علىٰ الله، قال تعالىٰ:

﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

كما أُطلق النور علىٰ الأنوار الطبيعية قال تعالىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[٢].

وهكذا الظلمة قد استعملت في الظلمة الماديّة، فمثلاً قال تعالىٰ:

﴿يَخْلُقُكُمْ فيبُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فيظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾[٣].

وعليه فانّ مفهومَي (النور) و(الظلمة) ليسا أخلاقيين في مورد من الموارد

---

(١) النور: ٣٥.　　(٢) يونس: ٥.

(٣) الزمر: ٦.

المذكورة، لأنّهما لم يستعملا كصفة للفعل الاختياري للإنسان، ولم نلحظ في القرآن الكريم مورداً آخر وصف فيه عمل اختياري وأخلاقي بمفهوم (النور) أو (الظلمة) أبداً، وإن لاحظنا موارد تطبيقية لـ(النور) و(الظلمة) فيمكن القول بأنهما وصفان لنتائج أفعال اختيارية للإنسان، كقوله تعالىٰ:

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[2].

وتقول آية أُخرىٰ:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[3].

وبملاحظة استعمال مفهومي (النور) و(الظلمة) في هٰذه الآيات كصفتين للنتائج الأخلاقية يمكن القول: إنّهما لم يستعملا في القرآن الكريم كصفتين للأفعال الأخلاقية ومفهومين قيميّين بالمعنىٰ الأخلاقي أبداً.

الحق والباطل

لعلكم شاهدتم أشخاصاً يعرّفون معيار القيمة الأخلاقية الايجابية بأنّه (الحق)

---

(١) الانعام: ١٢٢.　(٢) الحديد: ٢٨.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

ومعيار القيمة الأخلاقية السلبية بانّه (الباطل) ويحسبون أنّ العمل المتضمّن للقيمة الأخلاقية من وجهة نظر الإسلام هو أن يكون (حقاً) والعمل الفاقد للقيمة هو أن يكون (باطلا). ولكن بالتأمّل في الآيات القرآنية يُعلم أنّ مفهومي الحق والباطل من المفاهيم العامّة ولا يختصان بالقضايا الأخلاقية.

وقد أوضحنا فيما سبق[1] أنّ الحق والباطل كأنّهما مشتركان لفظيان، ولهما من الإستعمالات المختلفة والكثيرة ما يشكل معها وجود مفهوم مشترك معها، وغاية الجهود في هٰذا المجال تنتهي الىٰ بيان المناسبات بين هٰذه المفاهيم المتنوعة وتبرّر الإنتقال من بعضها الىٰ البعض الآخر.

لقد استعمل (الحق) تارة في ذات الله تعالىٰ، وتارة في أفعاله، كما استعمل كمفهوم اعتباري محض في بعض الموارد، كقوله تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[2].

أو من قبيل (حق الشفعة) و(حق الخيار) وأخيراً هناك إطلاق آخر لهٰذا اللفظ الىٰ جانب الموارد المذكورة، وذلك في مجال الأفعال الاختيارية وهو: إنّ كلّ عمل اختياري ذي هدف معقول يعتبر (حقاً) كما أنّ العمل الفاقد لهدف عقلائي ولا ينتهي بغاية مسوّغة يكون (باطلاً) وعليه فانّ الأفعال الأخلاقية التي تمثّل قسماً من الأفعال الاختيارية للإنسان تعتبر من مجموعة الموارد المتعدّدة والمصاديق المتنوعة لمفهومَي (الحق والباطل).

ربما يتمسك الذين عرّفوا (الحق) و(الباطل) كمعيار للأخلاق في اثبات هٰذه الدعوى بأن (الله حق):

---

(١) في بحث الحكمة الإلٰهيّة وغائية الأفعال الإلٰهيّة في بحث معرفة الله.

(٢) المعارج: ٢٤ و ٢٥.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾[١].

أو بأن خلق السماء والأرض حق:

﴿خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ﴾.

ولكن لا يصحّ في الحقيقة هٰذا الإستدلال ولا تلك الدعوى.

أمّا الإستدلال فلأنّا لو تأملنا لعرفنا أن لمفهوم الحق في باب الأخلاق خصوصيته ويختلف تماماً عن مفهوم (الحق) الذي يطلق علىٰ الله أو خلق الأرض والسماء، فهٰذا الإستدلال ـ في الحقيقة ـ مغالطة لا أكثر، كما أنّ إطلاق (الحق) في عالَم الخلق والتكوين لا علاقة له بمفهومه القيميّ والأخلاقي ولا يمكن أن يكون معياراً له.

وأمّا الدعوى فلأن (الحق) و(الباطل) بمعنيَيهما القيّمين لا يمكن أن يكونا ملاكين ومعيارين للأخلاق والقيمة الأخلاقية، إذ إنّهما بهٰذا الإعتبار ليسا سوى مفهومي (الصالح) و(السيّىء)، فكما لا يمكن القول: انّ ملاك صلاح الأعمال هو صلاحها، أو إنّ ملاك سوء الأفعال هو سوؤها فانّه لا يمكن القول: إنّ ملاك صلاح أو سوء الأفعال هو كونها حقاً أو باطلا.

فهٰذا القول يشابه الكلام المنسوب الىٰ زرادشت الذي يُنقل أنه أوصى بـ(القول الحسن، والفعل الحسَن والتفكير الحَسن) حيث لا يتضمن تعريفاً بالحُسن و الصلاح و لا يبيّن معياراً للقيمة الأخلاقية.

المهم هو أن نعرف معنىٰ الصالح، وأيّ عمل يكون عملاً صالحاً؟ وما هو معياره؟ وفي نطاق هٰذا السؤال لا يمكن القول: انّ معيار صلاح العمل هو حقانيّة ذلك العمل، لأنّ هٰذا السؤال يتكرّر بصورة أُخرىٰ هي: ما معنىٰ (الحق)؟ فإذا لم يكن

---

(١) الحج: ٦.

للفظ (الحق) في مجال الأفعال الأخلاقية مفهوم سوى مفهوم (الصالح)، إذنْ حينما نقول: إنّ الملاك في الأفعال الأخلاقية هو (حقانيّتها) فانّه يكون نظير ما إذا قلنا: ملاك العمل الأخلاقي هو (الصلاح) حيث لا يعطي تعريفاًزائداً، وٰ لا ملاكاً واضحاً للتطبيق.

نعم، إذا فسّرنا (الحق) بانّه الأمر الذي له تأثير ايجابي في وصول الإنسان الىٰ المقصود النهائي فانّه سيتضمّن مفهوماً إضافيّاً، فعندما نقول: يجب أن يكون العمل (حقاً) فانّه يعني أن تكون له نتيجة مطلوبة، وهٰذا يرجع في الحقيقة الىٰ ما قلنا في الفصل الأول من أنّ أحد المبادئ المقرّرة في أيّ نظام أخلاقي هو وجود الغاية، وفي جميع القواعد الأخلاقية سيكون هٰذا المبدأ ملحوظاً كغيره من المبادىء المقرّرة. وعليه سوف لا نصل الىٰ نتيجة واضحة من خلال مفهومَي (الحق) و(الباطل) لدىٰ الكشف عن ملاك (الخير) و(الشر) و(الحُسن) و(القُبح) في الأفعال الأخلاقية.

البِرّ والفجور

مفهوم (البِرّ) من المفاهيم الخاصّة بالأفعال الاختيارية ولا يستعمل في غيرها، وفي التعبير القرآني يكون مفهوم (البِرّ) أعمَّ المفاهيم في مجال الأفعال الأخلاقية حيث استعمل في عدة موارد من سورة البقرة من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[١].

---

(١) البقرة: ١٧٧.

وقوله تعالىٰ:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا[1]﴾

يستعمل لفظ (البِرّ) في الأفعال الاختيارية والأخلاقية فقط بمعنىٰ العمل الصالح، ولكنه يختلف عن مفهوم الصالح ـ الذي يرد كصفة للعمل الاختياري وللاشياء والأشخاص أيضاً ـ فلا تُطلق صفة (البِرّ) على شخص أو شيء في الخارج.

وفي مثل هٰذه الموارد يستعمل عادةً لفظ (صالح) (خير) و(حسَن). وعليه فانّ (البِرّ) يختص بالأفعال الصالحة لا مطلق الأمور الصالحة.

وإزاء لفظ (البِرّ) يصعب العثور على لفظ يقابله تماماً، ويشمل كلّ أضداده ويكون مثلاً كلفظ (السيّىء) مقابل (الصالح).

ويستعمل لفظ (الإثم) أحياناً مقابل لفظ (البِرّ) كما قال تعالىٰ:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2].

و(السيئة) تتضمن أيضاً مفهوماً مخالفاً لمفهوم (البِرّ) ولكنها على خلاف مفهوم (البِرّ) لا تختص بالأعمال الاختيارية، كما إنها تطلق على نتائج الأعمال والحوادث نفسها كما في قوله تعالىٰ:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[3].

في هٰذه الآية اطلقت السيئة علىٰ الحادث المؤسف.

---

(١) البقرة: ١٨٩. (٢) المائدة: ٢.

(٣) آل عمران: ١٢٠.

واللفظ الآخر الذي استعمل مقابل (البِرّ) هو لفظ (الفجور)، حيث وُضع لفظ (فجّار) مقابل لفظ (الأبرار) في عدد من الآيات، قال تعالىٰ في آية:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[١].

وقبل ذلك وبنحو التقابل قال تعالىٰ:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[٢].

لقد وُضع (الفجّار) في الآية مقابل (الأبرار) في الآية السابقة، وفي مواضع أُخرىٰ أيضاً من سورة الدهر، والانفطار و.. ولكن من موارد استعمال لفظ (الفجور) المختلفة يمكن أن نفهم عدم تقابله للفظ (البِرّ) تماماً حيث يعتبر لمعناه حدود أضيق، ومن جهة أُخرىٰ يستعمل أحياناً مقابل لفظ (التقوىٰ)، قال تعالىٰ:

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٣].

وفيها يكون الفجّار والمتّقون متقابلَين.

ومن الألفاظ التي قد تستعمل مقابل لفظ (البِرّ) هو لفظ (جرم) وهو يشابه الألفاظ السابقة تقريباً، وليس في النقطة المقابلة للفظ (البِرّ) تماماً.

وبصورة عامّة ينبغي الإلتفات الىٰ هٰذه الملاحظة ـ وترتبط بفقه اللغة ـ وهي:

في اللغة قد يوضع لفظٌ لمعنىٰ ولكن لم يوضع لفظ للمفهوم المقابل تماماً. في هٰذه الحالة إذا شاؤوا وضع لفظ يقابل ذلك اللفظ فانّه لا يكون بكلّ معناه ضداً أو نقيضاً له، بل سيكون من مصاديق نقيضه، ويمكن القول: يوجد في لفظ (البِرّ) مثل هٰذا الوضع، أي لم يوضع ولا يوجد في اللغة العربية مفهوم خاصّ يقابل (البِرّ) تماماً، ولذا لا مفرّ من استخدام ألفاظ أُخرىٰ في هٰذا المجال.

---

(١) المطففين: ١٨. (٢) المطففين: ٧.

(٣) ص: ٢٨.

نستنتج ممّا ذكر أن مفهوم (البِرّ) هو أحد المفاهيم الأخلاقية الخاصّة الأوسع في عموميتها، ومع ذلك ليس بوسعنا الإنتفاع بهٰذا المفهوم في مجال الكشف عن الملاكات الأخلاقية، لأنّا نفهم أن (البِرّ) يعنى العمل الصالح، ولكن لا يستفاد منه تعيين العمل الصالح، فلا بد من الكشف عن معيار الصلاح من موضع آخر وحقائق أُخرىٰ، بل (البِرّ) يعادل (الإحسان) في الفارسية تماماً.

وعن أصل اللفظ قام كبار اللغويين ببحوث وذكروا وجوهاً لا تخلو عن تكلّف فقالوا ـ مثلاً: إنّ البِرّ مشتق من مادة (البَرّ) التي تقابل (البحر)، والبَر يعنى الصحراء أو الأرض اليابسة الواسعة، وهٰذا اللفظ يدلّ علىٰ السعة وعليه فانّ (البِرّ) يدلّ علىٰ التوسع في الخير وكثرة الأعمال الصالحة. الاّ أنّ هٰذا القول لا يخلو عن تكلّف لانّه إذا كان استعمال (البِرّ) بهٰذا اللحاظ فانّ البحر أوسع من البَر فيكون استعمال كلمة البحر في الزيادة والكثرة أكثر شيوعاً. ومن جهة أُخرىٰ لا ملازمة بين البَرّ و بين السعة والكثرة، فانّ العمل الصالح الواحد لا يفقد شيئاً من حقيقة البِرّ. إنّ البحث عن الأصل اللغوي بهٰذا النحو لا يساعد علىٰ تفسير معنىٰ اللفظ فحسب بل يكون أحياناًمضلاّ أيضاً. إنّ مفهوم (البِرّ) ـ كما قلنا ـ يعني الإحسان ومن المفاهيم الواضحة جدّاً، والبحث عن وجود أصل مشترك له مع (البَر) أو كلمة أُخرىٰ لا يحلّ مشكلتنا. إنّ مفهوم (البِرّ) محكوم بالإشتراك اللفظي مع سائر المفاهيم التي تتركب من (ب) و(ر) وصفته بَرّ أو بارّ ويعنى الإنسان الصالح، ولا علاقة له بالبَر بمعنىٰ الأرض اليابسة أبداً، فانّ هٰذا لفظ مشتق وذلك جامد.

كلّ ما يراه الناس صالحاً فهو (بِرٌّ) في عرفهم، وبعض الناس ـ طبعاً ـ كانوا يعتبرون بعض الآداب والتقاليد والرسوم المعتبرة في المجتمع (بِراً) وإن كانت ناشئة من أصول أسطورية بل من الخرافات.

والقرآن الكريم يعتمد هٰذا المعنىٰ وهو أن قوام (البِرّ) لا يرجع الىٰ التقاليد والرسوم أو أمور ذات جذور خرافية بل له أساس عقلي ومنطقي،ففي الجاهلية كان بعض الرسوم مألوفاً بين العرب و يعتبرونه (بِراً) فمثلاً: كان من آدابهم أن لا يدخلوا بيوتهم من أبوابها أيام الحج، ويعتقدون أنّ الشخص اذا أراد دخول البيت أيام الحج فمقتضىٰ البِرّ هو أن يدخل عبر الجدار بدلاً عن الباب، وكان ذلك أمراً جاهلياً باطلاً وليس له أيّ أساس منطقي، ولذا تصدّى له القرآن وقال:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[(١)].

من هنا يتضح أنّ ما يعتقده بعض علماء الاجتماع من أنّ الأخلاق هي مجرّد أمر تعاقدي وليست له أيةِ واقعية، بل ينشأ من الآداب الاجتماعية هو اعتقاد غير صحيح في الرؤية الإسلامية. و(البِرّ) في هٰذه الرؤية ذو أصل واقعي ومنطقي وعقلائي والأخلاق ليست مجرّد تقاليد وآداب لا أساس لها، وعليه لا يمكن ولا ينبغي اعتبار الأعمال الخرافية بِراً وإن كانت مقبولة في مجتمع مّا.

لقد استعمل لفظ (بِر) ومشتقاته من قبيل لفظ (بَر) ويجمع على (برَرة) و(أبرار) عشرين مرّة في القرآنالكريم، ويوضع لفظ (فجّار) عادةًمقابل (أبرار) و(فجُور) مقابل لفظ (بِر).

التقوى

هناك مفاهيم عامّة وقيمية أُخرىٰ في باب الأخلاق هي أخص من مفهوم (البِرّ)

---

(١) البقرة: ١٨٩.

وأضيق منه، أحدها مفهوم (التقوىٰ) الذي عرّف في القرآن الكريم كعامل لسعادة وفلاح الإنسان وأكد علىٰ الإلتزام به بشدّة، قال تعالىٰ في بداية سورة البقرة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

ثمّ ذكر الصفات البارزة للمتقين كالإيمان، والصلاة، والانفاق واليقين على التوالي،وأخبر أخيراً بأنّهم هم المفلحون.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وفي آيات عديدة اعتبر (التقوىٰ) نفسه ومصاديقه والأعمال المتصفة به عاملاً للسعادة الأبدية والأُخروية ومُبيحاً للدخول في الجنة، من قبيل:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فيمَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٣].

و﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

أو ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى﴾[٥].

و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾[٦].

بناءً على ذلك يطلق (التقوىٰ) كمفهوم عامّ علىٰ الكثير من الأفعال الصالحة، بل يتّحد مع جميع الأعمال الصالحة مصداقاً.

ومن حيث التحليل المفهومي والبحث عن الأصل اللغوي فانّ لفظ (التقوىٰ) كان في الأصل (وَقْوىٰ) واسم مصدر من (اتّقىٰ ويتّقي) المشتق من مادة (الوِقاية) ومن هٰذه المادة تستعمل في اللغة العربية ثلاثة ألفاظ علىٰ نحو الترادف هي (تقوىٰ) (تُقاة) و(تَقيّة) وإن لم تستعمل (تَقيّة) في القرآن الكريم بل استعمل (تُقاة)

---

(١) البقرة: ١. (٢) البقرة: ٥.

(٣) القمر: ٥٤ و ٥٥. (٤) هود: ٤٩.

(٥) النساء: ٧٧. (٦) النباء: ٣١.

بدلاً عنها في مورد التقيّة، قال تعالىٰ:

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[١].

في هٰذه الآية استعملت (تُقاة) بمعنىٰ (تَقيّة) نفسها، وقد استعملت (التقيّة) في نهج البلاغة بمعنىٰ (التقوىٰ)، وبعد عصر أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) أصبحت (التقيّة) بين المسلمين ذات معنىٰ خاصّ، واستعملت بمعنىٰ اخفاء المذهب لدىٰ مواجهة الخطر الذي يهدد الإنسان، وإن لم يوجد فارق في الأصل اللغوي ـ كما ذكرنا ـ بين التقوىٰ، وتقاة والتقية.

ومادة الوقاية تستعمل في الموارد التي يشعر الإنسان فيها بالخطر فيسلك سلوكاً خاصّاً صوناً لنفسه، فيقال في هٰذه الحالة: (إنّه اتقىٰ) أي إنّه حفظ نفسه و سلك ذلك السلوك الخاص. (التقوىٰ) بهٰذا المفهوم وهو أن يقوم كلّ إنسان بعمل ما حينما يجتنب و يحذر شيئاً حفظاً لنفسه ليس مفهوماً أخلاقياً، وفي الرؤية القرآنية تلاحظ في مفهومه الأخلاقي خصائص أُخرىٰ.

الخصيصة الأُولى: أن يكون الخطر المتحفَّظ منه صادراً من فاعل مختار، أمّا الخطر المتوجه من السماء أو العوامل الطبيعية الأُخرىٰ والذي يحذره الإنسان ويبادر لحفظ نفسه منه فلا علاقة له بالأخلاق.

الخصيصة الثانية: أن يتوجه الخطر المذكور الىٰ سعادة الإنسان الأبدية والكمال اللائق به، لانّه في الرؤية الإسلامية يكون مثل هٰذا الخطر العظيم والدائم هو الجدير بالإهتمام من قبل الإنسان المؤمن.

الخصيصة الثالثة: إنّ الإنسان المتقي يتحلّىٰ بالتقوىٰ أمام الله في الحقيقة

---

(١) آل عمران: ٢٨.

ويخشىٰ منه، لأن الرؤية التوحيدية تستدعي أن يعتقد الإنسان أنّ كلّ نفع وضرر يكون من الله، وإن كانت هناك عدة وسائط فانّ الموحّد يرىٰ الفعل الإلٰهي وراء الأسباب والشرائط والمعدّات.

إذنْ إذا توجه خطر الىٰ الإنسان المسلم فانّه يرىٰ أنّ العلة الأُولى والفاعلة التي توجِّه ذلك الخطر إليه هو الله سبحانه، فانّ تأثير كائنات الوجود كافة ينشأ من الله عزّوجلّ أساساً واستقلالاً.

بملاحظة هٰذه الخصائص هٰذه والرؤية التوحيدية يكون التقوىٰ في الرؤية الإسلامية بهٰذا المعنىٰ: أن يخشىٰ الإنسان الخطر المتوجّه الىٰ سعادته الأبدية بسبب فعله الاختياري أو تركه، وبما أن مقتضىٰ الرؤية التوحيدية هو توجه هٰذا الخطر إليه أخيراً من قبل الله تعالىٰ فانّه يخشىٰ الله الذي هو المؤثر الحقيقي، و يقوم بما يدفع هٰذا الخطر، ويطلق علىٰ من يمارس هٰذا العمل تجاه مثل هٰذا الخطر (المتقي) وعلىٰ سلوكه الخاصّ هٰذا (التقوىٰ)، بناءً علىٰ هٰذا يوجد دائماً خوف سابق في مورد التقوىٰ يدفع الإنسان نحو التحفّظ، وبما أنّ المؤثر الحقيقي هو الله فإنّنا عندما نصبُّ ذلك في قالب اسلامي يصبح خوفاً من الله.

عندما يصدر عمل سيّىء منّا قد يكون ذلك منشأً للخطر علينا، ويعاقبنا الله عليه، أو بمعنىٰ ألطف ـ كما يرىٰ أولياء الله ـ يكون موجباً للحرمان من رضوان الله والابتعاد عن لقائه، وهٰذا في نفسه يكون منشأً للخوف لدىٰ الأولياء، وليس من الضروري أن يكون خوف الإنسان من عذاب جهنم دائماً، فانّ مثل هٰذه العوامل ذا تأثير أعمق في نفوس المحبّين وأولياء الله ويكون منشأً للخوف الأكبر. في هٰذه الحالة تكون التقوىٰ بمعنىٰ التفات الإنسان جيّداً بأن لا يرتكب أعمالا تسبّب هٰذا الحرمان، أو ذلك العذاب ويسلك بنحو، ويقوم بأعمال أو يتركها ليكون في مأمن

من هٰذه الأخطار.

ويشمل (التقوىٰ) في مستوى أعلىٰ ـ إضافةً الىٰ الفعل أو ترك الفعل الخارجيّ ـ الفعل أو ترك الفعل القلبي والباطني كالتحفّظ والاحتراز من الخيالات والتصورات الضارة بسعادة الإنسان.

انّ كلمة (التقوىٰ) ومشتقاتها قد استعملت مائتين وعشرين مرّة في القرآن الكريم، ولم يذكر متعلّقها في الغالب، أعني في أكثر من مائة مورد من قبيل: ﴿**وَالعاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ ﴿**إنَ اللهَ يُحِبُ المُتَّقِين**﴾ كلفظ الإيمان حيث ذكر في الكثير من الموارد في القرآن بدون متعلّق، وفي خمس وثمانين مورداً يكون متعلّق (التقوىٰ) هو لفظ (الله) أو (رب) أو الضمير الراجع إليهما، وبعبارات من قبيل (واتّقوا الله) أو (اتّقوا ربكم) أو (واتّقونِ) أو (واتّقوه) و...

وفي ثلاثة موارد ـ وكلها في سورة البقرة ـ ذكر يوم القيامة كمتعلّق للتقوىٰ قال تعالىٰ في آيتين:

﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً**﴾[1].

وقال في آية:

﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ**﴾[2].

وفي بعض الآيات ورد عذاب القيامة متعلّقا لـ(التقوىٰ) من قبيل الآيات:

﴿**أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[3].

و﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[4].

---

(١) البقرة: ٤٨ و ١٢٣.

(٢) البقرة: ٢٨١.

(٣) الزمر: ٢٤.

(٤) البقرة: ٢٤.

و﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

و﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

هنا يُسأل: بملاحظة المتعلّقات المختلفة للتقوىٰ هل يختلف مفهومها أو انّ لـ(التقوىٰ) مفهوماً واحداً فقط؟

للجواب يجب أن نقول: كما أوضحنا سابقا انّ لـ(التقوىٰ) مفهوماً واحداً في موارد مختلفة مع متعلّقات متنوعة، لأنّا قلنا: إن التقوىٰ من يوم القيامة أو النار وغيرها ليست ـ في الحقيقة ـ غير التقوىٰ من الله وترجع كلها في النهاية الىٰ هٰذا المعنى، فقد جعل الله يوم القيامة لمحاسبة العباد، وأعدّ النار والعذاب لعقاب العاصين. فللتقوىٰ إذنْ مفهوم واحد في جميع الموارد ولكن بلحاظات مختلفة نسبت تارة الىٰ وسائط مختلفة وتارة الىٰ المبدء الاصلي.

بناءً علىٰ هٰذا يوجد نوع من الخوف دائماً في (التقوىٰ) ولكن له عوامل متنوعة هي: التأمّل في تعرض السعادة الىٰ الخطر، أو الابتلاء بالشقاء والتعاسة أو التفكّر في العذاب الإلٰهي الذي يرتبط بالنفس بواسطة واحدة ـ لأن العذاب يسبّب شقاء النفس وتعاسة الإنسان، أو التدبر في اليوم الذي يتوجه فيه العذاب الىٰ الإنسان ويسبّب شقاءه ويرتبط به بواسطتين. ولكن كما قلنا: ان جميع هٰذه الأمور تنتهي بالخوف من الله، حاكم ذلك اليوم وعامل ذلك العذاب ومسبّب ذلك العقاب، وعليه ترجع كلّ موارد التقوىٰ التي تترتب علىٰ هٰذه المخاوف الىٰ اتقاء الله أخيراً. فالمؤمن المتقي هو من يجعل الله نصب عينيه في جميع أعماله ويسلك بدقةٍ تامّة

(١) آل عمران: ١٣١. (٢) الانفال: ٢٥.

بنحو يستجلب رضا الله، ويكون على انتباه كامل لئلاّ يرتكب أعمالاً تستتبع سخط الله وعدم رضاه. ومن زاوية أُخرىٰ يمثّل العذاب - في الواقع - النتيجة لأعمال وسلوكِ الإنسان نفسه، والخوف من الله هو - في الحقيقة - خوف من النفس وأعمال وسلوك الإنسان نفسه، ولكن بما أن المدبِّر والمؤثر الحقيقي هو الله عزّوجلّ فقد نسب الخوف الىٰ الله أيضاً.

الملاحظة التي يمكن استفادتها من هٰذا الكلام هو أنّ دلالة (التقوىٰ) على الخوف دلالة التزامية لأن أصل (التقوىٰ) هو حفظ النفس، ولكن من البديهي أنّ الإنسان مادام لا يخاف شيئا فانّه لا ينبعث لدفع الخطر وحفظ النفس، إذْ إنّ الخوف هو الذي يدفع الإنسان ليجنب نفسه من الخطر، وعليه فانّ استعمال (التقوىٰ) في الخوف استعمال في معنىٰ التزامي. ويمكن القول أيضاً: انّ مفهوم الخوف أُشرب في (التقوىٰ) ويعني أنّ حفظ النفس يكون مقروناً بالخوف.

العلاقة بين التقوىٰ والإحسان

من الضروري أن نذكّر هنا أنّنا حينما نقيس مفهومَي التقوىٰ والبرّ أحدهما بالآخر نلاحظ انّهما مختلفان تماماً، ويكون لهٰذين اللفظين مفهومان مستقلان مع انّ (البِرّ) و(التقوىٰ) قد استعمل أحدهما مكان الآخر في الآيات القرآنية، كما وضع (الأبرار) مقابل (الفجّار) في آيات من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفي عِلِّيِّينَ﴾[1].

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفي سِجِّينٍ﴾[2].

---

(١) المطففين: ١٨. (٢) المطففين: ٧.

ومن قبيل:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[١].

وفي آيات أُخرىٰ استعمل (التقوىٰ) و(الفجور) متقابلين بتعابير مختلفة، ففي آية استعمل (المتقين) مقابل (الفجار) قال تعالىٰ:

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٢].

وفي آية أُخرىٰ وضع (التقوىٰ) مقابل (الفجور) قال تعالىٰ:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣].

و نظراًلتشابه اللفظين من حيث تقابلهما مع (الفجور) نستنتج انّ (البِرّ) و(التقوىٰ) متساويان ومتحدان في المصداق وإن افترقا في المفهوم، فكلّ ما كان مصداقاً لـ(البِرّ) هو مصداق لـ(التقوىٰ) والعكس صحيح أيضاً. وتدلّ إحدىٰالآيات بوضوح على أن (البِرّ) هو (التقوىٰ) في الأصل، قال تعالىٰ:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

كما يمكن استنتاج هٰذه الحقيقة من آية أُخرىٰ تدلّ أيضاً على اتحاد (البِرّ) و(التقوىٰ) مصداقاً، قال تعالىٰ:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

---

(١) الانفطار: ١٣ و ١٤.
(٢) ص: ٢٨.
(٣) الشمس: ٨.
(٤) البقرة: ١٨٩.

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

وفيها يذكر الله عزّوجلّ مصاديق (البِرّ) أولاً، ثمّ يخبر بأن أولئك هم الذين يلتزمون الصدق وهم المتّقون ونستنتج أنّ من جاء بـ(البِرّ) فهو متّقٍ، وأن البِرّ والتقوىٰ متحدان مصداقاً.

ولكن تبدو هنا مشكلة هي انّ الله تعالىٰ قال في آية أُخرىٰ: .

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٢].

حيث عطفت (التقوىٰ) على (البِرّ) وظاهر العطف هو تباين المعطوف مع المعطوف عليه، ولو كان هٰذانِ اللفظان متحدَين مصداقاً لما عطف أحدهما علىٰ الآخر.

ويمكن الإجابة عن هٰذا الإشكال بنحوين:

١ ـ ان (البِرّ) و(التقوىٰ) وإن اتحدا مصداقاً الاّ أنّ مفهوم (البِرّ) مفهوم عام، ولا يفيد غير مطلق الصلاح، وليس بإمكانه ارشادنا لتعيين المصداق ببيان أيّ عمل هو الصالح، بينما مفهوم (التقوىٰ) أثرىٰ مضموناً حيث يفهم منه ـ إضافةً الىٰ المعنىٰ المستفاد من (البِرّ) ـ الخوف من الله ويوم القيامة وعقاب الله تعالىٰ والحرمان من رضوانه، وعليه فانّ مفهوم التقوىٰ يرشدنا الىٰ طاعة الله، وبما أن قيد (طاعة الله) غير موجود في مفهوم البرّ فنستنتج أنّ مفهوم (التقوىٰ) هو الأثرىٰ وفيه المزيد من الخصوصيات والقيود، فيمكن أن يكون مفسراً لـ(البِرّ) كما ورد في الآية السابقة (ولكن البِرّ من اتقىٰ) وتدلّ على أن (التقوىٰ) أوضح من (البِرّ) إذ لم يكن معروفاً لدىٰ الناس، ولذا كانوا ينحرفون شرقاً أو غرباً، ويدخلون البيوت من الخلف

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) المائدة: ٢.

ويقول الله عزّوجلّ انّ هٰذا ليس (بِرّاً) بل (البِرّ) أن تكونوا ذوي (تقوىٰ)، وبما أنّ (التقوىٰ) ذو مفهوم أوضح فانّه يمكن أن يعيّن مصاديقَ وخصوصياتٍ وقيوداً أكثر وبصورة أفضل.

٢ ـ لـ(التقوىٰ) نوعان من الإستعمال:

النوع الأول ذو مفهوم واسع وشامل لكلّ فعل وترك مرضي لله تعالىٰ.

والنوع الثاني ذو مفهوم أضيق حيث يلاحظ الجانب السلبي فقط، وهو عدم اقتحام الخطر والاحتراز منه والابتعاد عنه. ويكون تفسير التقوىٰ بعملية الاحتراز عادةً بلحاظ المفهوم الثاني.

ففي المفهوم الأول يلاحظ الجانب الايجابي والسلبي معاً، وهو مفهوم يساوي مفهوم (البِرّ) مصداقاً، في حين يلاحظ في الثاني الجانب السلبي منه بصورة أكبر.

وعليه فانّ مفهومَي (التقوىٰ) و(البِرّ) من قبيل المفهومين اللذين يعطيان معنيين مختلفين إذا اجتمعا، ويتحدان معنىٰ إذا افترقا في الإستعمال (إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا).

أجل، إذا استعمل لفظ (التقوىٰ) لوحده فانّه يشمل موارد (البِرّ) كلها، في حين إذا تقارن معه فانّ (البِرّ) يدلّ على الجانب الايجابي و(التقوىٰ) على الجانب السلبي، يكون الأول بمعنىٰ أداء الأعمال الصالحة، والثاني بمعنىٰ ترك الأعمال السيئة. وبالنظر الىٰ هٰذه الملاحظة يوجد جواب آخر عن الإشكال المذكور، و هو أن يقال: إنّ المراد بالبرّ في الآية خصوص الأعمال الإيجابية الحسنة، وبالتقوىٰ ترك الأعمال السيئة. على أيّ حال، بملاحظة موارد الآيات يُقطع باتحاد (البِرّ) و(التقوىٰ) مصداقاً، إذنْ يمكن القول: إنّ العنوان العامّ الذي يستعمل في موارد الأخلاق الإسلامية ويمكن الإستناد إليه بهٰذا اللحاظ هو مفهوم (التقوىٰ) الذي

يفوق (البرّ) في سعة الإستعمال، فقد استعمل (البِرّ) عشرين مرّة و(التقوىٰ) مائتين وعشرين مرّة تقريباً. كما إنّ القرآن الكريم أيّد معياريته وأكد في الآية **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1] على أنّ القيمة الوحيدة التي لوحظت في الأفعال الاختيارية هي التقوىٰ، ويكتسبها كلّ فعل يدخل تحت هٰذا العنوان، فحتّىٰ طلب العلم يكون ذا قيمة حينما يكون مصداقاً لـ(التقوىٰ)، وهكذا اكتساب الثروة وبذلها ينبغي أن لا يخرج من نطاق (التقوىٰ).

و(التقوىٰ) مفهوم يلاحظ فيه المبادئ النفسيّة للفعل أيضاً، ويشير في ذاته الىٰ المبدأ النفسيّ الذي يجب أن يصدر منه الفعل الاختياري للإنسان، في هٰذه المبادئ يلزم الإعتقاد بالله والقيامة، بل والنبوة، لأن من يخشىٰ عقاب الله يوم القيامة يفكّر ما هو العمل المرضي عنده كي يقوم به، وأيُّ سلوك يسخطه كي يتركه حتّىٰ إنّه يُعمل الدقة والوسوسة في هٰذا الاتجاه، ولكن بما أنّ العقل في نفسه لا يصل الىٰ نتيجة في هٰذا المجال فانّه سيهتدي بذاته الىٰ (الوحي) و(الأنبياء)، فاذا ثبت لديه انّ الله قد أرسل من يعرّف الناس أيَّ عمل يجب أن يؤدوه أو يتركوه وبما إنّه يسعى لإنقاذ نفسه من الخطر، فسوف يؤمن به جزماً ويتبعه لكي تتحقّق سعادته.

وعليه فانّ (التقوىٰ) يتضمن مبادئ الأخلاق الإسلامية أيضاً، كما يشير الىٰ اتجاه الحركة ويمكن طرحه كملاك وحيد لقيمة الأفعال الاختيارية للإنسان.

لـ(التقوىٰ) إذنْ مقدّمات:

أولها: الإعتقاد بالله، لأنّ التقوىٰ مشبع بخشية الله، والخشية لا تحصل بدون

---

(١) الحجرات: ١٣.

المعرفة والإعتقاد.

ثانيها: الإعتقاد بالقيامة والعقاب والثواب، لأنّ الإنسان إذا اعتقد بالله ثمّ ظن أنّه رحيم فقط ولا يعاقب عاصيا أبداً فانّه لا يتورع عن الأعمال التي يهواها دون أن يعرف حكم الله فيها.

من هنا يُعلم لماذا يعدّ القرآن الكريم الإيمان من صفات المتقين عند تعريفهم حيث يقول في مطلع سورة البقرة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[١].

ذكر في هذه الآيات الإيمان بالمبدأ والمعاد والنبوة من جملة صفات المتقين، وينبغي الإلتفات ليس المراد ـ في الحقيقة ـ أنّ التقوىٰ هو المنشأ لهذا الإيمان، بل العكس ولن يتحقّق التقوىٰ بدون الإيمان.

وقد ذكر تفسير آخر لهذه الآية وهو أنّ التقوىٰ علىٰ نوعين:

التقوىٰ الفطريّة والتقوىٰ الشرعية، فقبل الإيمان بالله يمكن تحقّق التقوىٰ الفطريّة في الإنسان، وفي هذا النوع من التقوىٰ يجتنب الإنسان أعمالاً سيئة ويقوم بأعمال صالحة يميّزها العقل، هذا التقوىٰ يكون سبباً لايمان الإنسان بالله. الاّ أن هذه الحقيقة واضحة وهي أنّ تقوىٰ الله كقيمة أخلاقية عامّة يتوقف علىٰ الإيمان بالمبدأ والمعاد ويلازم الإيمان مع الوحي والنبوة، وهذه القضية هي تأكيد آخر على أنّ الأخلاق الإسلامية ناشئة من العقائد الإسلامية.

---

(١) البقرة: ٢ ـ ٤.

هناك علاقة وطيدة بين سلوك الإنسان وعقائده، فالإعتقاد هو الذي يوجه سلوك الإنسان. أجل، توجد علاقة وطيدة بين الأعمال والإعتقادات أو بين ما نعتقد وجوب ادائه وبين معرفتنا عن عالم الوجود، فما لم توجد هٰذه الإعتقادات فلا توجد واجبات.

الصبر

المفهوم الآخر الذي يشابه مفهوم التقوىٰ سعةً واستعمالاً هو مفهوم (الصبر) الذي تقسمه الروايات الىٰ ثلاثة اقسام:

الصبر علىٰ الطاعة، الصبر علىٰ المصيبة والصبر علىٰ المعصية.

إنّ مفهوم الصبر يفيد هٰذا المعنىٰ: كأن هناك عاملاً يجرّ الإنسان الىٰ جهة ولكنه يقاومه. هٰذا العامل يمكن أن يكون باطنيا أو خارجيا. والعامل الباطني مختلف، فأحياناً يقتضي العامل الباطني والرغبة النفسيّة نوعاً من العمل، ولكنه غير مشروع فيبدي الإنسان المقاومة تجاهه ويجتنب ارتكابه، فيطلق علىٰ هٰذا النوع من المقاومة (الصبر عند المعصية).

وتارة علىٰ العكس يقتضي ترك فعل نافع، لأن الإنسان يميل للدعة والراحة ويفرّ ممّا فيه تكليف وإلزام ومن أداء أعمال صعبة، ولذا لا يرغبْ عادةً في امتثال أعمال شاقة وخطيرة كـ(الجهاد) مع انّ الله قد أوجب عليه الخروج اليه، والمؤمن الملتزم يقاوم عامل القعود والسكون الداعي لترك الجهاد في باطنه ويصارعه بتحركه وتوجّهه نحو الجهاد، ويطلق علىٰ هٰذا النوع من المقاومة (الصبر علىٰ الطاعة).

وتارة تقع أحداث خارج وجود الإنسان وتترك آثاراً غير محبّبة وتدفعه للقيام بأعمال تبعده عن طريق الحق، كما إذا نزلت به مصيبة مؤلمة، تقتضي أن يقوم بأعمال تنافي الوقار كأن يضج ويبدي جزعه أو ينتقم من مسبّب ذلك الحدث، فعليه أن يقاوم ويجتنب الجزع والفزع ويضبط نفسه، ويطلق علىٰ هٰذا النوع من المقاومة (الصبر علىٰ المصيبة).

بملاحظة هٰذا التطبيق الواسع للفظ (الصبر) يمكن القول انّ أغلب الأفعال الأخلاقية بل جميعها تدخل ـ بلحاظٍ ـ تحت عنوان الصبر، كما يصدق عليها بلحاظين آخرين (التقوىٰ) و(البِرّ).

أجل، هناك حيثيات مختلفة تلاحظ في الأفعال الأخلاقية، فبلحاظ الخوف من الله يكون القيام بها (تقوىٰ)، وبلحاظ مقاومة العوامل المعارضة في الباطن والخارج يكون (صبراً) وبلحاظ كونها مرغوبة بالذات يكون (بِراً).

وعلىٰ هٰذا الأساس يمكن القول: إنّ الصبر أيضاً من المفاهيم الأخلاقية العامّة التي تشمل حركات الإنسان وسكناته وأفعاله وتروكه الأخلاقية كافة.

وكما قلنا فانّ (الصبر) قد استعمل في مواضع مختلفة من القرآن الكريم مطلقاً في الكثير منها وبكلّ انواعه من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

و﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[2].

وفي موارد تطبيقية أُخرىٰ لوحظت جهة خاصّة وصبر خاصّ من قبيل قوله تعالىٰ:

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١).

فقد لوحظ فيه الصبر على المصيبة، ومن قبيل قوله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾(٢).

ويفهم منه (الصبر) على الطاعة حيث يخاطب النبي ﷺ بالصبر عند تنفيذ الحكم الإلهي وعدم ترك الساحة، وفي آيات أُخرى من قبيل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٣).

و﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٤).

وغيره حيث تمّ بيان مفهوم الصبر ذاته ولكن بلفظ الإستقامة.

و(الاصطِبار) من مشتقات (الصبر) وهو ـ كما يقول اللغويون ـ مبالغة في الصبر، وقد استعمل في قوله تعالى:

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾(٥).

أي عليك بالإستقامة تجاه ميل النفس للدعة، وعليك بمزيد من الصبر عند أداء العبادات التي يرافقها التحرك والسعي، بينما تدعو النفس للركون الى الدعة والسكون وقوله تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٦).

فالتدبر في الصلاة والمحافظة عليها والإكثار منها واداؤها في أوقاتها اصطبار

---

(١) البقرة: ١٥٥ و ١٥٦.
(٢) الإنسان: ٢٤.
(٣) فصلت: ٣٠.
(٤) الشورى: ١٥.
(٥) مريم: ٦٥.
(٦) طه: ١٣٢.

عليها ومن الصبر علىٰ الطاعة، كما إنّ الصبر علىٰ القتال مع العدوّ والجهاد في سبيل الله من هٰذا القسم أيضاً، وعليه فانّ للصبر تطبيقاتٍ واسعةً ويعتبر من المفاهيم الأخلاقية العامّة، ولكن (التقوىٰ) أكثر الألفاظ شيوعاً، ويمكنُ اعتباره مفهوما عاما وقيمة أخلاقية عامّة، ويشمل جميع الموارد بدون استثناء ولا توجد قيمة في عرضه، بل يلزم دخول القيم الأُخرىٰ تحته لكي تعتبر قيماً أخلاقية.

ويمكن القول أنّ القرآن الكريم إضافةً الىٰ التقوىٰ يطرح قيماً أُخرىٰ كالعلم كقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

أو ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢].

حيث يستفاد منهما أنّ العلم ذو قيمة مستقلة، ولكن بما أنّ كلّ علم ليس مطلوباً في الإسلام، بل يتقيد من جهة المتعلَّق وكيفية التحصيل والإنتفاع به، ويكون قيّماً حال رعايتها وصيرورته مصداقاً للتقوىٰ. إذنْ ليست قيمة العلم مطلقة، فلا يكون سبباً للسعادة في بعض الموارد بل عاملاً للشقاء، قال تعالىٰ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٣].

وفي الكثير من الموارد يذمّ حملة العلم لانّهم لا يعملون بعلمهم، بل يسند إليهم أفظع الجرائم، وأية جريمة هي أكبر من صدّ الناس عن سبيل الله وإضلالهم؟! انهم استغلوا علمهم وتحركوا في الجهة المعارضة للاهداف الإلٰهيّة. إنّ الهدف الإلٰهي

---

(١) الزمر: ٩. (٢) المجادلة: ١١.

(٣) الأعراف: ١٧٦ و ١٧٥.

من خلق الإنسان وبعث الرسل وانزال الكتب السماوية هو سير الناس علىٰ طريق الحق، ولكن هؤلاء قد استقطبوهم الىٰ طريق الباطل.

أجل، لقد قام بذلك ويقوم به علماء، وحسب الاصطلاح القرآني (الذين أوتوا العلم)، قال تعالىٰ:

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[١].

و من الواضح أنّهم بدون العلم لا يمكنهم القيام بذلك. إنّ أعظمَ الجرائم تنشأ من العلم أيضاً، ولذلك لا يمكن أن يكون ذا قيمة مطلقة، بل يكتسب قيمته من شيء آخر وهو أن يكون مصداقاً للتقوى، وبعبارة أُخرىٰ إن قيمة العلم آلية لا غائية، فلتأثيره علىٰ تكامل الإنسان يكون مطلوباً، وباعتبار تأثيره في انحطاط الإنسان لا يكون مطلوباً، فلذا لا يمكن طرحه كقيمة مطلقة. ينبغي القول مثلاً: إنّ العلم يملأ الوعاء الوجودي للإنسان ويوسّع ـ في الحقيقة ـ وعاءه الروحي، سواءً أكان علما نافعا كالعسل أو مضراً كالسمّ القاتل، وفي الحالة الثانية يكون خطره أشدّ من الجهل.

إذنْ تتبع قيمة العلم كيفية الإنتفاع به، كالشجاعة والقوة في الإنسان اللتين تمنحانه مزيداً من السعة والقوة قياساً الىٰ ضعفه، الاّ أنّ قيمتيهما ليستا مطلقتين، بل تعتمدان علىٰ كيفية الإنتفاع بهما، كأن تستخدما في الجهاد في سبيل الله، وقد أشار سبحانه وتعالىٰ الىٰ الأمرين بقوله:

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[٢].

فبالعلم اتّسع وعاؤه الروحي وبالقوة وعاؤه الجسمي، ولكن أين ينفع هذا

---

(١) الجاثية: ١٧. (٢) البقرة: ٢٤٧.

الوعاء وما قيمته؟

يتوقف ذلك علىٰ النية والمبدأ النفساني في تحصيل اتساعه ومورد استخدامه. إذنْ لا يمكن طرح (العلم) كقيمة أخلاقية مطلقة بل هو كمال نسبي، بمعنىٰ أنّ روح العالِم ذات سعة أكبر، ولكن لا ضمان لأن يكون العلم بذاته منشأً للسعادة في النهاية. وعليه فانّ ما له «قيمة أخلاقية مطلقة» حسب الرؤية القرآنية هو التقوىٰ.

الإحسان، العدل والظلم

من المفاهيم ذات الاستعمال الشامل تقريباً هو مفهوم «الإحسان»، ويمكن القول: انّ أفعال الخير كافة تدخل تحت عنوان «العدل والإحسان»، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[1].

للإحسان مفهومان: فهو يفيد تارة معنىٰ العطاء للآخرين، ويفيد تارة مفهوماً عاماً بمعنىٰ كلّ عمل صالح، فيشمل جميع الأفعال الايجابية والأخلاقية القيّمة.

لقد وُضع العدل والظلم في أصل اللغة كمفهومين متقابلين تماماً، ولكن في الإستعمال الشائع والمتعارف يكون لأحدهما اختصاص أكبر بالمفهوم اللغوي الأصيل، ولذا لو تابعنا لفظَي العدل والظلم في القرآن الكريم لم نجد التقابل الدقيق بين مفهوميهما، حيث لا يستعمل (العدل) في كلّ مورد خال من الظلم، فالله سبحانه ذمّ الظالمين بتعابير مختلفة من قبيل:

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2].

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) آل عمران: ٥٧.

أو ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

أو ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢].

ولكن في العبارات المقابلة لها لم تستعمل كلمة (العادلين) أبداً، ولا توجد عبارة (والله يحبّ العادلين) أو (يهدي القوم العادلين) وما شاكل، في حين أنّ ما يقابل مفهوم الظلم ـ في أصل اللغة ـ هو مفهوم العدل تماماً، و قد يوجد بدلاً منه مثل قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

وعلىٰ العكس أيضاً استخدم مفهوم العدل في مواضع ولكن في الجهة المقابلة لم يستخدم مفهوم الظلم.

ويفيد البحث الابتدائي في موارد استعمال «العدل» في القرآن أنه استعمل في «العدل الاجتماعي» كقوله تعالىٰ:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾[٤].

و﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[٥].

و﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٦].

أو ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٧].

أو ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٨].

و﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٩].

---

(١) البقرة: ٢٥٨.
(٢) البقرة: ١٢٤.
(٣) المائدة / ٤٢.
(٤) الشورى: ١٥.
(٥) النحل: ٩٠.
(٦) المائدة: ٨.
(٧) الانعام: ١٥٢.
(٨) النساء: ٥٨.
(٩) المائدة: ٨.

يمكن القول أنّ المراد من جميع موارد استعمال العدل في القرآن هو العدل الاجتماعي تقريباً، والظلم ليس كذلك حيث انستعمل في موارد غير اجتماعية، كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١).

حيث استعمل الظلم في المجال العقائدي والعملي، وقال في موضع آخر:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾(٢).

أي ارتكبنا المعصية، وقد استعمل الظلم مرّة أُخرىٰ في نطاق الحياة الفردية، بينما لا يستعمل مفهوم العدل عادةً في موارد العقيدة والسلوك الفردي ودائرة الحياة الخاصّة، فلا يقال:«إنّ التوحيد لَعدلٌ عظيم» كما إنّه لا يعبّر عن العبادة و العمل الصالح بـ «العدل للنفس» وإن كان استعمال العدل بهٰذا النحو صحيحاً من الناحية اللغوية ولا مانع فيه.

انّ مادة (العدل) تستعمل أحياناً كمفهوم مذموم ويعني الشرك تقريباً، وفي آيات عديدة قال تعالىٰ علىٰ سبيل الذمّ:

﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٣).

ومفهوم (القِسط) قد يقابل مفهوم الظلم ويرادف مفهوم العدل ظاهراً ـ رغم محاولة إثبات فروق بينهما ـ وعليه فانّ القسط يعنى العدل في أحد معانيه، ولكنه استعمل ضد «العدل» وبمعنىٰ الظلم في بعض الموارد، من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾(٤).

فيعتبر من الأضداد حسب الاصطلاح الأدبي.

---

(١) لقمان: ١٣.
(٢) الأعراف: ٢٣.
(٣) الانعام: ١.
(٤) الجن: ١٥.

كلمة قصيرة

ان (البِرّ) أشمل المفاهيم الأخلاقية الإيجابية التي استعملت في القرآن الكريم، وفي المقابل يستخدم الفجور، والإثم، والفحشاء والجريمة. كما إنّ العدل والقسط مفهومان مترادفان وفي مقابلهما تستعمل مفاهيم الظلم، والطغيان والعدوان. كما يستعمل ـ عادةً الفسق، والفجور والظلم أحياناً مقابل التقوىٰ، وقد وضع الفجار والظالمون أحياناً مقابل المتقين في بعض الآيات.

هٰذا التشتت بين المفاهيم كما قلنا يرجع الىٰ أنّ الألفاظ ليست متقابلة تماماً، وما يستعمل في مقابلها هي في الحقيقة مصاديق لنقيضها و مقابلها، ولا وجود لألفاظ تقابلها تماماً، وإن كانت موجودة فانّها غير شائعة.

* * *

القسم الأول

٤

اختلاف النظام الأخلاقي للاسلام مع النُّظم الأُخرىٰ

السعادة في النظام الأخلاقي في الإسلام

العلاقة بين الرؤية الكونية والسعادة

طريق الوصول الى السعادة

الإنسان في النظام الأخلاقي في الإسلام

اختلاف النظام الأخلاقي للاسلام مع النُّظم الأخرى

ذكرنا انّ كلّ نظام أخلاقي يبتني علىٰ مبادئ موضوعة ثلاثة:

١ ـ الإنسان مختار.

٢ ـ يتابع الإنسان في أفعاله الاختيارية هدفا مرغوباً بالذات.

٣ ـ الطريق الوحيد الموصل لذلك الهدف هو ممارسة الأفعال الأخلاقية. أي إنّ هٰذه الأفعال الاختيارية ـ في الحقيقة ـ هي السبب لسعادة الإنسان أو شقائه، وبغير هٰذا الطريق لن يصل إنسان الىٰ السعادة والشقاء.

وينبغي التذكير بأن الكثير من النُّظم الأخلاقية لا تهتمّ بهٰذه المبادئ تفصيلاً ولم تطرحها كمبادئ موضوعة لها، الا أنّنا نستنتج بعملية تحليلية أنّ هٰذه المبادئ ستكون مقبولة لدىٰ كلّ نظام من النُّظم الأخلاقية، وإن كان ارتكازياً واجمالياً.

والنظام الأخلاقي في الإسلام يوافق النُّظم الأُخرىٰ بتقبّل هٰذه المبادئ وقد ابتني علىٰ أساس الإقرار بها، فلا يفترق عن النُّظم الأُخرىٰ في هٰذا المجال. هنا يطرح سؤال: بناءً على ذلك ما الفارق الرئيس بين النظام الأخلاقي في

الإسلام وسائر النُّظم الأخلاقية؟

الجواب: هناك فروق نقوم هنا بدراسة ثلاثة منها:

السعادة في النظام الأخلاقي في الإسلام

ينبغي القول انّ الاختلاف الرئيس بين النُّظم الأخلاقية ليس بلحاظ المفاهيم الكلية، بل مصاديقها في الغالب، أي إنّ كلّ إنسان ـ بصورة عامّة وفطرية ـ طالب للسعادة وليس بوسعه أن يسلب هٰذا الأمر المطلوب من نفسه أبداً.

ويمكن القول: انّ جميع النُّظم الأخلاقية تسلّم بهٰذه الحقيقة وتتفق في الرأي بشأنه، والاختلاف بينها يدور حول تشخيص مصداق «السعادة». إنّ المشكلة الأساسية ومحل النزاع بين النُّظم وآرائها المختلفة والمتضادة يكون حول الإجابة عن هٰذا السؤال: ما هي السعادة التي هي ضالّة الإنسان وينشدها بكلّ سعيه؟

من البديهي ليس من اليسير الإجابة عن هٰذا السؤال. ويمكن القول: جوهر المشكلة هو أنّ (السعادة) ـ وهي ضالّة جميع الناس ـ ليست شيئا عينياً وموجوداً خارجيا، بل وليست حيثية نفسيّة وظاهرة روحية خاصّة لكي نضاعف جهودنا و نركّز على معرفتها فنقترب من حلّ المسألة ونضيّق دائرة الاختلاف.

فبصدد الإجابة عن هٰذا السؤال المبدئي أوضحنا رأينا فيما سبق وقلنا[١]: إنّ السعادة مفهوم انتزاعي ومنشؤها هو دوام وشدّة اللذة المطلقة أو النسبية عند عدم تحققها.

وعلىٰ هٰذا الأساس فحيث تقترن حياتنا مع المعاناة والألم فانّ (السعادة) سوف تصدق حينما تكون الآلام أخفّ وأقلّ بالنسبة الىٰ مستوى اللذات.

---

(١) راجع صفحة ١٤ ـ ١٨ من هٰذا الكتاب.

وبإيجاز: إنّ طلب السعادة أمر فطري لدىٰ الإنسان، حيث يرغب الجميع في أن تدوم لذاتهم وتكون أقوىٰ وأشد قياساً الىٰ الآلام. إلاّ أنّهم لا يعرفون كيفية تحصيلها، ولكلّ فرد رأيه في هٰذا المجال. من هنا يمكن القول انّ هناك اتفاقاً في الرأي حول مفهوم السعادة ولكن يلاحظ اختلاف كبير في تشخيص مصداقها.

العلاقة بين الرؤية الكونية والسعادة

تختلف مصاديق السعادة في النُّظم الأخلاقية المختلفة نظراً للرؤىٰ الكونية المختلفة التي تمثّل الأساس والجذور لها، والإسلام أيضاً باعتبار رؤيته الكونية الخاصّة والإلٰهيّة يطرح مصداقاً خاصّاً للسعادة ويدعو الىٰ امتثال تكاليف وأحكام خاصّة بهدف الوصول إليها.

حسب رؤية الإسلام ـ وهو الدين الحق ـ يُعتبر الإنسان موجوداً له عمر غير متناهٍ، ومن جهه أُخرىٰ هو فقير الىٰ الله عزّوجلّ وليس له أيُّ استقلال، وبصورة تُناسب هٰذه الرؤية تَطرح للإنسان سعادةً خالدة أسمى من الحياة الماديّة، وعلى العكس فانّ الإنسان حسب الرؤية الكونية الماديّة ـ موجود مستقل، ذو عمر محدود، وتقتصر حياته علىٰ الحياة الدنيا هذه، وبما يناسب هٰذه الرؤية فانّ النُّظم الماديّة تبحث للإنسان عن السعادة واللذة الدنيويّة، لانّها لا تعرف سعادة ولذة أُخرىٰ وراءها.

ويمكن أيضاً ـ أو يفترض علىٰ الأقل ـ وجود أشخاص يعتقدون بالحياة الخالدة والعالم الآخر والسعادة التي لا نهاية لها، ولكنهم يعتقدون بعدم وجود علاقة بينها وبين أعمال الإنسان وسلوكه الاختياري في هٰذا العالم، ويعتقدون بأن

أعمالنا وسلوكنا في هٰذا العالم يمكن أن يوفّر السعادة الدنيويّة ولهٰذا الهدف يجب اداؤها، وسعادة الإنسان الأُخروية تتحقّق بسعيه في تلك النشأة فلا حاجة وفائدة في بذل الجهود وتحمل الآلام في الدنيا بهدف تحقيق السعادة الأُخروية، انّ هٰؤلاء لا ينكرون الآخرة والسعادة، الاّ أنّهم يهتمون بالدنيا عملياً، ويذرون عالم الآخرة وراءهم منسياً.

الإسلام في رؤيته الكونية وما يطرحه من تفسير للكون يعلّم الإنسان ـ من جهة ـ بأن وجوده كله متعلّق بالله عزّوجلّ وهو «رب» الإنسان بتمام معنىٰ الكلمة، ويعلّمه ـ من جهة أُخرىٰ ـ أنّ حياته لا تنحصر في الحياة الدنيا، بل إنّ حياته الواقعية ذات ثبات وسِعة ممّا يجعل الحياة الدنيا «لا شيء» قياساً إليها.

بمقتضىٰ هٰذه الرؤية يبتني النظام الأخلاقي في الإسلام علىٰ المبدءين المذكورين أيضاً، وفيه تراعى «علاقة الإنسان مع المبدأ» من جانب و«علاقة الإنسان بالمعاد» من جانب آخر، ولذا فانّ القرآن إن لم تقل في جميع الموارد ففي أغلبها يعرّف السعادة الأُخروية مصداقاً لـ(الفلاح)، والسعادة التي وردت في الآيات (١٠٥ ـ ١٠٨) من سورة هود قد استعملت أساساًبمعنىٰ السعادة الأُخروية. وهٰذا لا يعني أنّ الإسلام يدعو الىٰ اعتزال الدنيا تماماً، وعدم الإهتمام بها إطلاقاً، بل يعني ضرورة المحافظة علىٰ ترابط الدنيا مع الحياة الأبدية، ورعاية شأنها في طريق الوصول الىٰ سعادته الخالدة. وفي عبارة واحدة: أن يعرفها الإنسان كما هي، أي بما أنّها وسيلة ومقدمة، ويستثمرها على ما ينبغي.

إنّ القيم الأخلاقية التي يطرحها الإسلام إنّما تبتني علىٰ رؤيته الكونية الخاصّة والتي يرتضيها، فلا يمكن ـ في إطار الدين الإسلامي ـ أن نطرح نظاما أخلاقيا مجرّداً عن الإعتقاد بالمبدء والمعاد، فانّ مثل هٰذا النظام لا يمكن أن يعتبر نظاماً

أخلاقياً إسلامياً، بل سوف يكون غير اسلامي أو هجينا.

ومن الممكن أن يكون أتباع المذاهب الهجينة إلٰهيِّين في العقيدة، ثمّ ينسَون كلّ شيء في أخلاقهم وسلوكهم، مع أنّ هناك ترابطاً وثيقاً بين النظام الأخلاقي في الإسلام ورؤيته الكونية، ومن أصول تلك الرؤية تنشأ المفاهيم القيميّة التي يتبنّاها. فعندما يقول: انّ الأمر الفلاني حسن فانّه يكون قد لاحظ علاقته بالمبدأ والمعاد، وحتّىٰ حينما يتحدّث عن فلاح الإنسان فانّ علاقته بالمبدأ تكون ملحوظة، بمعنىٰ أنّ الفلاح والفوز رحمة إلٰهية تُعطى كأجر وثواب، والإهتمام بالمطلوب النهائي والسعادة والفوز والفلاح لا ينفك عن التوجه الىٰ الله عزوجل.

وحينما يتحدّث سبحانه عن عاقبة الصالحين والمحسنين وفوزهم فانّه ينسب ذلك الىٰ نفسه بتعابير مختلفة وبأساليب ظريفة من قبيل ما قاله في آيات عديدة، **﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** وقال في موضع آخر: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاها * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاها﴾**[1]. وقال في آية أُخرىٰ: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾**[2]

وعليه فانّ أهمّ اختلاف رئيس بين النظام الأخلاقي في الإسلام مع النُّظم الأخلاقية ينشأ من العلاقة الوطيدة بين الرؤية الكونية والأخلاق، ولكن كما قلنا من ذي قبل فانّ اختلاف الرؤىٰ الكونية يسبّب نشوء الاختلاف في تشخيص مصداق السعادة، وبالتالي ظهور مصاديق مختلفة ومتناسبة مع الرؤىٰ الكونيه المتنوعة، ولا تسبّب اختلافاً في مفهوم السعادة.

إنّ مفهوم السعادة في جميع النُّظم الإسلامية وغير الإسلامية ـ مفهوم متَّفق

---

(١) النازعات: ٤٤ ـ ٤٢.
(٢) القمر: ٥٤ و ٥٥.

عليه ويعني دوام اللذة حقيقةً أو نسبياً، وحتّىٰ المذاهب الماديّة تتبنىٰ هٰذا التفسير للسعادة، وعليه فانّ من يتعاطى المخدِّرات ـ مثلاً ـ ويشعر بلذة كبيرة في الوهلة الأُولى لا يعتبر «سعيداً» لدىٰ أيّ مذهب حتّىٰ المذاهب الماديّة، لأن وراء هٰذه اللذة وفي عمق هٰذا الأحساس باللذة يكمن الشقاء والبلاء.

أما ما يطرحه الإسلام بنحو خاصّ ويكون منشأً للافتراق عن النُّظم الأُخرىٰ فهو إنّه يخبر ـ استناداً الىٰ الإيمان بعالم ما بعد الموت ـ عن وجود لذّات وآلام أُخرىٰ، وبالنظر الىٰ ذلك يعرّف مفهوم السعادة في بدء الأمر بأنّها اللذة الدائمة والخالدة.

و لذا يأخذ الإسلام على عاتقه تنبيه الإنسان على أنّ حياته لا تنحصر في الحياة الدنيا ولذاتها وآلامها،بل له حياة أبدية قرينة اللذات أو الآلام التي لا نهاية لها، فلابدّ من الإهتمام بها في المقارنة والتقييم. وحتّىٰ مع فرض اقتران كلّ الحياة الدنيويّة للإنسان باللذة بلا معاناة وألم وتعب، فماذا تكون قيمة مثل هٰذه الحياة إذا أعقبهاالعذاب الدائم والشقاء الخالد؟!

طريق الوصول الىٰ السعادة

وفي البحث عن الطرق التي توصل الإنسان الىٰ السعادة يبدو جانبان أيضاً:
الأول جانب البحث الكلي، والثاني جانب المصاديق والتفاصيل.

فنقول عن الجانب الكلي: كلّ ما يوصلنا الىٰ السعادة فهو «حَسَن» وستكون هٰذه قضية أخلاقية لا يختلف الإسلام فيها مع النُّظم الأخلاقية الأخرى، بل يتوافق معها في هٰذا الجانب.

وينقدح السؤال في الجانب الثاني حول ما يوصلنا الىٰ السعادة؟ و المصاديق الجزئية والمحدّدة لهٰذا الموضوع الكلي؟ هٰذا السؤال هو المـنشأ الآخـر لوقـوع الاختلاف، وقد أعدت النُّظم الأخلاقية إجاباتٍ مختلفةً عنه، وللنظام الأخـلاقي في الدين الإسلامي رأي يختلف مع سائر المذاهب الأخلاقية ويبتني علىٰ رؤيته الخاصّة. وبما أنّ الإنسان موجود معقَّد وذو أبعاد مختلفة ذات ترابط تامٍّ فيما بينها فعلا وانفعالا، وتأثيراً وتأثّرا، فكثيراً ما يخطأ في تشخيص طـريق الوصـول الىٰ السعادة وتقييم آثار العمل الذي يقوم به ايجابا وسلبا.

فمن الضروري في تقييم الأعمال وتأثيرها علىٰ مصيرنا الإلتفاتَ الىٰ جميع الأبعاد الوجودية للإنسان، ومن الخطأ أن نظنّ بأن يكون في الحياة العائلية ـ مثلاً ـ منهج وأسلوب مستقل عن الأبعاد الوجودية الأخرى، من قبيل الشؤون الفردية والاجتماعية أو الأُخروية، لأنّ طريقة حياتنا العائلية ذات تأثير كبير في تقرير مصير حياتنا الفردية والاجتماعية وحياتنا الأُخروية قطعاً، كما أنّ لكلّ بُعد من الأبعاد الأُخرىٰ مثل هٰذا التأثير في سائر الأبعاد.

ممّا ذُكر نستنتج أنّنا لو أردنا أن نصف عملاً ما بانّه صالح أو سيّيء فاللازم هو تقييم تأثيره المباشر في مجمل الحياة الإنسانية، ومـلاحظة جـميع أبـعادها ثـمّ إصدار الحكم بشأنه، ومن البديهي أنّ مثل هٰذه المحاسبة والتقييم وتحديد التأثير الايجابي أو السلبي للأعمال في أبعاد الحياة الإنسانية المختلفة وبصورة شاملة، عملية عويصة جدّاً.

وربما يمكن القول: انّ فهم الأحكام العملية ـ في مستوى دانٍ ـ أمـر واضـح وقابل للتحليل والقبول لدىٰ الجميع. ولكن ينبغي الإلتفات الىٰ أنّ هٰذا فهم بسيط وتسامحي وليس فهماً عميقاً ودقيقاً وجامعاً وفلسفياً. فمثلاً: إنّ أكـثر الأحكـام

العملية بداهة هو الحكم بـ(حُسن الصدق) ويسلّم به جميع الناس بصورة بديهية وفطرية ولكن بنحو مبهم ومجمل وعامّ، ويعدّونه من جملة الواضحات والبديهيات الأخلاقية. ولكن لو تأملنا جيّداً في هٰذه القضية البديهية ظهرت نقاط مبهمة، وقد تبدو لنا موارد نتردّد في حسنها، بل نحكم بحُسن الكذب فيها!. وهٰذا يعني أنّ (الحُسن) لا يمكن أن يكون صفة ذاتية لـ(الصدق) لأنّ الصفة الذاتية لا يمكن أن تنفصل عن موصوفها أبداً. إذنْ ليس (الحُسن) صفة ذاتية للصدق كي يدركه العقل بصورة بديهية، هٰذه الإستثناءات تشير الىٰ أنّ ادعاء بداهة (حسن الصدق) من قِبل الناس ليَس دقيقا جدّاً وأنّهم لم يدركوا ذلك جيّداً، وهٰذه القضايا من المشهورات الشائعة بين الناس مع شيء من التسامح والنظرة السطحية. كما أنّ جملة من الأعمال الأُخرىٰ من قبيل الظلم، الكذب وغيرهما التي يعتقد الجميع بأنّها سيئة أيضاً من القضايا المشهورة وغير البرهانية، ولو أردنا ان تكون برهانية فمن اللازم دراسة جهات هٰذه القضايا وتشخيص أحوالها ونطاقها وقيودها[١].

ولا يمكننا ـ مع قصور علومنا ـ الإحاطة بجميع العلاقات الموجودة بين أعمالنا التي نؤديها وبين سعادتنا النهائية بأبعادها الواسعة بحيث توجب وصول أبعاد وجودنا كلها الىٰ المقصود النهائي. إنّنا ندرك عادةً جانباً منها وتبقى الجوانب الأُخرىٰ تحت ستار الغيب وكما جاء في المثل «حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء».

والكثير من آراء الناس حول «حُسن» أو «سوء» الأفعال يتّسم بهٰذه السِمة نفسها، وهي أنّهم يدرسون جهة واحدة أو جهات معدودة منها في حين أنّها ذات

(١) تمّ بحث هٰذا الموضوع تفصيلياً في كتاب دروس في فلسفة الاخلاق، فراجع.

أبعاد وعلاقات أُخرىٰ لابدّ من دراستها وأخذها بنظر الإعتبار في الحكم النهائي ولكنهم في غفلة منها، فحتّىٰ لو عرفنا جميع الآثار المطلوبة لعمل مّا في أبعاد حياتنا الماديّة والدنيويّة لم يكفِ ذلك للقول بأنّ ذلك العمل «حسن» بل يلزم مع ذلك أن يكون نافعاً للآخرة لكي يكون حكمنا صائباً، مع إنّه لا يتيسّر لنا محاسبة ذلك ولا ندرك علاقة الحياة في الدنيا مع الحياة في العالم الآخر.

هٰذا كلّه بالنسبة الىٰ ما يرتبط بالبديهيات الأخلاقية، وأمّا القضايا النظرية التي تنحلّ الىٰ عناصر معقّدة فسوف تكون أشكل حالاً، والعلاقات أكثر تعقيداً، وإحاطتنا أضعف، وحكمنا أبعد عن الحقيقة. ومن هنا فانّ الدين الإسلامي وإن كان يهتمّ بالبديهيات الأخلاقية المعروفة ويدركها الناس ببساطة لكنه لا يكتفي بها. في الرؤية الإسلامية ينبغي أن يحدّد الوحي مصاديق الأفعال الأخلاقية بصورة مضبوطة من حيث حدودها وشروطها وقيودها، وهٰذه من مزايا النظام الأخلاقي في الإسلام الذي يستند الىٰ الوحي في هٰذا الشأن.

النُظم غير الإسلامية تعتقد أنّ القضايا الأخلاقية إمّا بديهية وإمّا يمكن كشفها عن طريق التجربة بلا حاجة الىٰ الوحي، أو أنّ القيم الأخلاقية يمكن تعيينها أو تغييرها حسب الذوق العامّ. وعليه يكون الإستناد الىٰ الوحي في الكشف عن المسائل الأخلاقية من خصائص وامتيازات النظام الأخلاقي في الإسلام.

الإنسان في النظام الأخلاقي في الإسلام

يبتني النظام الأخلاقي في الإسلام علىٰ رؤية كونية تعرّف وجود الله سبحانه كمبدأ وخالق للموجودات، وطبعاً تعرّف الإنسان موجوداً تابعاً وفقيراً إليه،

فالإنسان في هٰذه الرؤية محض الفقر وليس له ـ بالنسبة الىٰ الله ـ الاّ وجود تعلّقي، قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

من الطبيعي لكي تكون مسيرة النظام مبتنية علىٰ الحقائق ومنسجمة مع الواقع وبعيدة عن الأوهام والخيالات الخاطئة فلابدّ من الإهتمام بعلاقة العبودية والربوبية هٰذه ورسم المنهج طبقاً لهٰذا المبدأ.

وينبغي الإلتفات الىٰ أنّ ما ذكرناه ليس من امتيازات الإنسان، بل إنّ الموجودات ـ بدون استثناء ـ هٰذا حالها بالنسبة الىٰ الله عزوجل، فهي في عمق وجودها فقيرة الىٰ الله عزّوجلّ بكل ما في الكلمة من معنىٰ، ولكن بما أنّنا نبحث عن النظام الأخلاقي اقتصرنا علىٰ تعلّقية وجود الإنسان.

في ضوء هٰذه التبعيّة العامّة نستنتج بوضوح أنّ علىٰ الإنسان أن يعلم حينما يتصرف في الأشياء وينتفع بها أنّه إنّما يتصرف في مِلك الله تعالىٰ. ولا ننكر ـ طبعاً ـ أنه بلحاظ خاصّ وفي مرتبة مّا يتصرف في ملكه، سواءً كان ملكه التكويني كأعضاء جسمه أو التشريعي والإعتباري كالأشياء الخارجيّة التي يمتلكها علىٰ أساس القانون. ولكن لا ينبغي الغفلة عن حقيقة أنّ هٰذه كلها ترتبط بالله في النهاية وفي مرحلة أعلىٰ، وهو المالك الحقيقي للاشياء كلها.

هٰذه العلاقة تستتبع نتيجةً أُخرىٰ وتحتمّ علينا طاعة أمر الله حتّىٰ إذا تعلّق بعمل غير نافع للحياة الدنيا، ولا تأثير له في ذاته علىٰ السعادة الأُخروية.

علىٰ الإنسان أن يسلّم تسليماً محضاً لأوامر الله ونواهيه وذلك بانقياد تامّ دون

(١) فاطر: ١٥.

أيّ اعتراض، فانّ الإعتقاد بربوبية الله التكوينية والتشريعية يقتضي أن يكون مطيعاً لأوامر الله عملياً ويلاحظ العمل المطلوب منه والمحظور عليه.

نعم، من الواضح انّ أوامر الله ونواهيه تابعة للمصالح والمفاسد، وبغض النظر عن أوامر الله ونواهيه فانّ للمصالح والمفاسد واقعيات عينية ولا ننكر هٰذه الحقائق، لكن نؤكّد على هٰذه الحقيقة أيضاً وهي أنّ أوامر الله تعالىٰ لو لم تكن متعلقة بأمور ذات مصلحة لكانت إطاعتها واجبة علىٰ الإنسان، وفي مثل هٰذا الفرض عليه أن يوطّن نفسه بين يدي الله تعالىٰ.

لو سُئل الآن: هل إنّ ما ذكر محض فرض أم له مصداق، وهل صدر من الله تعالىٰ مثل هٰذا الأمر؟

الجواب: لا يبعد صدور مثل هٰذا الأمر الإلٰهي، وللمثال يمكن الإشاره الىٰ أمر الله سبحانه النبي ابراهيم عليه السلام بذبح ابنه اسماعيل عليه السلام، فانّ ذبح الابن في ذاته لا يحقق سعادة الدنيا ولا سعادة الآخرة حيث لا علاقة تكوينية بينهما، ولولا الأمر الإلٰهي لم يسمح ابراهيم بمثل هٰذا العمل أبداً فضلاً أن يُقدم عليه، مع ذلك كله يأمر الله هكذا بشأن اسماعيل عليه السلام الذي عاش في عصر يسود فيه الشرك وكان من الموحدين المعدودين وأعزّ عباد الله بعد ابراهيم عليه السلام على وجه الارض. والنبي ابراهيم عليه السلام يبادر لتنفيذ هٰذا الأمر دون أيّ اعتراض وبانقياد تامّ، واسماعيل عليه السلام يرغّبه في ذلك، كما ورد في القرآن:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[1].

انّ أيّ نظام أخلاقي غير إلٰهي لا يبرّر مثل هٰذا السلوك، ولكن في ضوء حقيقة

---

(١) الصافات: ١٠٢.

أُخرىٰ وهي أن كلّ شيء له تعلّق بالله تعالىٰ ومملوك له فيجب امتثال كلّ عمل يأمر به في النُّظم الإلٰهيّة، سواءً أكان ذا مصلحة للفرد أو المجتمع أم لا. لأن كلّ ذلك ملك لله ولا يحق للمكلف أن يناقش فيه، والتسليم المطلق لله تعالىٰ يحقق مصلحة كما لا يدانيه أيُّ شيء.

انّ وشيجة عبودية الإنسان مع ربوبية الله يمكن جعلها صبغة لأعمال الإنسان كافة، وكما سيأتي توضيحه هي الصبغة الأشدّ روعة، والأقوىٰ تأثيراً من أيّ شيء آخر في بلوغ الإنسان الىٰ سعادته، قال تعالىٰ بشأنها:

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[1].

ويمكن القول: إنّ هٰذا الأمر كان السبب لأن يحسب مفكّرون اسلاميون بأن أساس القيم الأخلاقية في الإسلام ليس سوى الأمر الإلٰهي. و«الصالح» هو ما يأمر به وصلاحه ناشيء من هٰذا اللحاظ، و«السيّيء» ما ينهى عنه. قالوا: إنّ «العمل» في ذاته ليس صالحاً ولا سيئاً ولا يقتضي مرغوبية أو مبغوضية. إنّ الحُسن والقُبح ليسا ذاتيّين للأفعال بل تابعان للأمر والنهي الإلٰهيّين.

لكن يجب أن يُعلم أنّ هٰذا خطأ فادح ترتكبه هٰذه الفئة، وأنّ الصلاح والفساد والحسن والقبح في الأفعال لا تنشأ من أمر الله ونهيه بحيث يكون الفعل في نفسه فاقداً لهٰذه الصفات، والحقيقة هي أنّ حيثية الأمر والنهي مستقلة عن حيثية ذات الأفعال، وبما أنها أصبحت موضوعات لأمر الله أو نهيه فانّها ـ إضافةً الىٰ قيمتها الذاتية ـ تقدِّم للإنسان قيمة إيجابيّة أو سلبية أُخرىٰ، أي قيمة العبودية، والطاعة والانقياد لله عزّوجلّ وأوامره، أو التمرد والعصيان والتجرؤ عليه، سواءً لوحظت

(١) البقرة: ١٣٨.

المصلحه أو المفسدة في متعلَّق الأمر والنهي كأغلب الأحكام والأوامر الإلٰهيّة أم لم تُلحظ كالنموذج المذكور.

والآيات القرآنية شاهدة علىٰ دعوانا هذه، وقد كشفت عن القيمة الذاتية للأفعال، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(١).

و﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾(٢).

يفهم من الآيتين أنّ العدل والإحسان متعلقان للأمر الإلٰهي، ولهما واقعية في مرتبة متقدّمة على الأمر بهما، وهما خصيصتان لجملة من أفعال الإنسان، وقد أصبحت هٰذه الأفعال موضوعات لأمر الله بلحاظ هٰذه الخصوصية الذاتية، وليس أمر الله هو السبب لاتّصاف تلك الأفعال بـ«العدل» و«الإحسان».

كما أنّ الفحشاء خصيصة ذاتية لجملة من الأفعال، ولذا لا يأمر الله بارتكابها، وعليه فانّ للعدل والإحسان ـ بلا ملاحظة أمر أو نهي ـ مصاديق خارجية انتزاعية كما أسلفنا.

* * *

---

(١) النحل: ٩٠. (٢) الأعراف: ٢٩.

القسم الأول



أساس القيمة الأخلاقية في الإسلام

دور الدافع في الفعل الأخلاقي

تنوّع دوافع الفاعل

نقد نظرية (كانت)

النية من وجهة نظر اسلامية

للنية تأثير حقيقى۔

درجات النية

العلاقه بين الإيمان وقيمة الأفعال

منشأ قيمة الإيمان

منشأ القيمة حسب الرؤية القرآنية

تبويب الآيات

تجميع الآيات

طرق معالجة الذنوب

ما هو متعلق الإيمان؟

الكفر، الشرك، النفاق

الإيمان يجب أن يكون مطلقاً

مراتب الإيمان والكفر

أساس القيمة الأخلاقية في الإسلام

أوضحنا مفهوم القيمة الأخلاقية في الفصول السابقة، وهنا نطرح هٰذا السؤال: ما هو منشأ القيمة الأخلاقية وفق رؤية الدين الإسلامي؟ هٰذه المسألة بالغة الأهميه، ونبادر هنا للإجابة عنها.

دور الدافع في العمل الأخلاقي

من الموضوعات التي تطرح كأساس لقيمة الأفعال الأخلاقيه هو نية الفعل والدافع لقيام الإنسان به. يمكن القول: من امتيازات النظام الأخلاقي في الإسلام هو أنّه يقدِّم النية كأساس للقيمة الأخلاقية، والمصدر لكلّ صلاح وسوء. ويعدّ هٰذا فارقاً رئيساً بين النظرية الأخلاقية في الإسلام وسائر النظريات الأخلاقيه، لأنّ أغلب المذاهب الأخلاقية لا تَعبأ بنية العمل، والمذهب الوحيد الذي استند الىٰ النية كأساس للقيمة ويُعرف بهٰذه الخصيصة هو مذهب (كانْت). ولكن ينبغي الإلتفات الىٰ أنّ النية التي يعتبرها (كانْت) ملاكاً للقيمة هي نية الطاعة لحكم العقل واحترام القانون، ويختلف بذلك مع النظرية الإسلامية.

وعليه فانّ المذهب الأخلاقي في الإسلام يختلف مع سائر المذاهب الأخلاقية ـ غير مذهب كانْت ـ في أنها خلافاً للاسلام لم تعبأ بالنية ولم تعتبرها في أخلاقية الفعل، وأما مذهب كانْت فانّه رغم اعتباره النية أساساً للقيمة الاّ انّها ليست تلك النية التي يطرحها الإسلام. فالنظرية الإسلامية تفترق عن جميع المذاهب الأخلاقية، حيث أنّها إمّا لا تعتبر النية أساساً، وإمّا تعتبر نية خاصّةً تختلف عمّا يراها الإسلام.

وبما أنّ المراد من النية في هٰذا البحث هو الدافع النفسيّ للعمل يمكن القول: إنّ أيَّ عمل ـ أساساً ـ لا يتمّ بدون نية ودافع، وكلّ عمل ينجز بالاختيار فانّ له داعياً أو دافعاً لإنجازه في نفس فاعله بحيث يكون سبباً لعدم تركه أو انتخاب عمل آخر بدلاً عنه.

الآن وقد توضّح أنّ أيَّ عمل اختياري لن يتمّ بدون دافع لدىٰ الفاعل يطرح هٰذا السؤال: هل إنّ الفعل الأخلاقي الصالح والجدير في ذاته وله حُسن فعلي يلزم أن يتوفّر فيه حسن فاعلي أيضاً أم لا، ويكون ذا قيمة أخلاقية مهما كانت النية والدافع؟

للإجابة عن هٰذا السؤال ينبغي القول: من وجهة نظر اسلامية لا يكفي حسن الفعل وحده لكي يكون ذاقيمة أخلاقية، بل يلزم تقارنه مع حسن فاعلي، لأنّ آثار الأفعال الأخلاقية وهي كمال الإنسان وسعادته تتوقف علىٰ الحسن الفاعلي ووجود النية الصالحة.

تنوّع دوافع الفاعل

نظراً لإمكان وجود دوافع متنوعة في الأعمال التي يؤديها الإنسان يُطرح هنا هٰذا السؤال: أيّ الدوافع هو الذي يقوم الإنسان بالعمل من أجله ويمنح العمل صبغة أخلاقية؟ وأية نية توجب القيمة الأخلاقيه؟

قبل الخوض في البحث ينبغي القول: يمكن تقسيم دوافع الإنسان لإنجاز أفعاله الاختيارية الىٰ عدة أنواع:

فبعض الدوافع يلبّي المتطلبات الماديّة ويأتي استجابة للغرائز الحيوانية، و يكون يكون البعض الآخر استجابة للمشاعر الاجتماعية، وذلك حينما يتنازل الإنسان عن حقه، وبهدف رفع حوائج الآخرين يمارس ألواناً من الإيثار والتضحية والتنازل.

أمّا السؤال عن سبب تنازل الإنسان عن حقه، والدافع النفسيّ للإيثار من أجل الآخرين فانّ الإجابة عنه ترتبط بعلم النفس وتتطلب بحثاً مطوّلاً لا يتناسب مع هٰذا المقال.

وما يمكن قوله اجمالاً هنا هو أنّ الإيثار لا يحدث بداعٍ واحد، بل هناك عوامل مختلفة تدفع الإنسان نحو التضحية. فمثلاً: قد تحدث هٰذه الممارسات استجابة للمشاعر والأحاسيس فقط، كالأُم التي ترجّح ولدها على نفسها وتضحي براحتها من أجل راحته، فانّ دافعها لا يكون غير استجابة مشاعر الأمومة. وأمّا من يعين مريضاً أو مسكيناً ببذل وقته وطاقته وماله لقضاء حاجته، فقد يكون ذلك استجابة للمشاعر الإنسانية، بحيث إنّه يتبرّم ويشعر بعدم الإرتياح إنْ لم يفعل ذلك، وتارة يكون الأمر فوق المشاعر فيدفع الإنسان نحو الإيثار والتضحية في

سبيل الآخرين، كأن يعتبر الفعل كمالاً إنسانياً، وبما أنّ الإنسان يهوىٰ الكمال في ذاته فانّه حينما يعتقد ـ صحيحاً أو خطأً ـ أنّ كماله في أمر مّا، فانّ غريزة طلب الكمال سوف تدفعه لإنجاز ذلك الأمر، وتارة يكون لأجل دوافع أُخرىٰ كطلب الشهرة والجاه، وأخيراً يمكن أن يكون الدافع إلٰهياً فيقوم الإنسان بانجاز العمل ابتغاء مرضاة الله عزوجل.

نقد نظرية كانْت

يقول كانْت: إنّما يكتسب الفعل قيمة أخلاقية حينما يُنجز بدافع إطاعة العقل، والاّ فلا قيمة أخلاقية للفعل، وذلك فيما لو أُنجز بأيّ دافع آخر كالإستجابة للمشاعر وتحصيل الكمال والسعادة والأجر الدنيويّ والأُخروي. فالفعل الأخلاقي هو ما اقتضىٰ الواجبُ العقلي أداءه، ويؤدّيه الفاعل بحكم العقل ولا يريد أجراً أو آثاراً تترتب عليه حتّىٰ الإستجابة للمشاعر وكمال النفس.

ما ذكرناه هو خلاصة نظرية (كانْت) في هٰذا المجال. وقد ناقشنا هٰذا القول في محلّه وقلنا:

لا يمكن ولن يتأتى للإنسان أن يقوم بفعل مّا بدافع إطاعة العقل فقط دون أن يبغي أمراً آخر حتّىٰ كماله، وحيثما تصوّرنا إنجاز عمل إطاعةً للعقل ظاهراً فانّ هناك دافعاً أعمق ولكنه مغطّى وكامن في جوف هٰذا الدافع الظاهري، ولذا لو سُئل لماذا تطيع حكم العقل؟ لأجاب: يجب علىٰ الإنسان أن يطيع العقل. ان إنسانية الإنسان تتمثّل في إطاعته لحكم العقل. هٰذا الجواب يعني إنّه يرىٰ كماله الإنساني في إطاعة العقل، فيكون هناك دافع أعمق وراء إطاعة العقل وهو استكمال النفس.

وعليه سيكون من يرفض حكم العقل إنساناً سيئاً وناقصاً.

ممّا ذكر نستنتج أنّ صدور الفعل بدافع إطاعة الفعل محضاً افتراضٌ غير صحيح ولون من السطحية، ولو كان صحيحاً وممكناً لما أمكن أن يكون منشأً للقيمة الأخلاقية ـ كما سنوضّحه لاحقاً ـ

النية من وجهة نظر اسلامية

العمل الأخلاقي الذي يحظىٰ بقيمة إيجابيّة ـ وفق النظرية الاسلامية ـ هو العمل الذي ينجز لكسب رضا الله تعالىٰ محضاً. وهو ذو مراتب، ويطلبه الناس بصور مختلفة. أي إنّ هٰذا المراد يتخذ أشكالاً مختلفة لديهم، فتارة يهتمّ الإنسان برضا الله باعتباره منشأً للثواب الأُخروي، أو باعتباره سبباً للنجاة من العذاب ويكون ذلك دافعاً لإنجازه بعض الأعمال، وتارة لا يهتمّ بالثواب أو العقاب بل إنّ دافعه لإنجاز العمل هو رضا الله محضاً، وهٰذه حقيقة يطلبها بالذات. وتتوفّر مثل هٰذه الحقيقة لدىٰ أولياء الله الذين يستندون إليها بوصفها الحافز نحو الأعمال والعبادات.

علىٰ أيّ حال، إنّ الحدّ المطلوب للقيمة الأخلاقية للعمل في وجهة نظر الإسلام هو انجازه بهدف رضا الله عزوجل، وبعبارة أُخرىٰ انّ مقوّم القيمة الأخلاقية لـ(العمل) هو إنجازه بهدف نيل رضا الله.

في القرآن الكريم آيات تعتبر مطلق رضا الله ـ تقريباً ـ مقوِّماً لقيمة الأفعال الأخلاقية، وفي المقابل تُعتبر النيّات والدوافع المخالفة لرضا الله وغير المناسبة له سبباً لسقوط الفعل عن القيمة الأخلاقية وتطرحه كنقيض للقيمة الأخلاقية.

هناك موارد تؤكّد فيها الآيات الكريمة علىٰ لزوم إتيانها ابتغاء مرضاة الله، ولعله لكون الإنسان في هٰذه الموارد أكثر عُرضة للإنحراف والنية غير الصحيحة، ولذا يؤكّد تعالىٰ علىٰ النية والدافع الإلٰهي وقاية من الانحراف عن القيمة الأخلاقية ووقوع الإنسان في القيم السلبية، علىٰ عكس ما إذا كانت نيته غير إلٰهية في موارد أُخرىٰ فانّها حالة انحرافية استثنائية كمن يصلي رئاءً، فانّه يمثّل استثناء بين المؤمنين وإنْ كثرَ بين المنافقين، ولكن في هٰذه الموارد التي يؤكّد فيها على الإتيان بداعي نيل رضا الله تعالىٰ فانّها ليست حالة انحرافية أو استثنائية، بل الكثير من الناس حتّىٰ المؤمنين هم عرضة لها. ومن تلك الموارد التي يؤكّد القرآن فيها علىٰ النية هو الإنفاق، حيث يفقد قيمته كثيراً ما لأنّ النية غير صالحة. والله عزّوجلّ يذكر أحياناً أهمية النية بصورة مطلقة، حيث قال في وصف القرآن الكريم:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[1].

أجل، إنّ الذين يرومون رضا الله يهتدون بالقرآن، علىٰ عكس الذين يفقدون هٰذه البُغية الثمينة، فانّهم لا يستفيدون من هٰذا الكتاب.

أو يقول في وصف فئة من الناس:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] حيث يقابل بين فئتين من الناس: فئة تبغي الفساد والإستعلاء وفئة تبيع نفسها لله تعالىٰ، توقِف نفسها طلباً لمرضاة الله. وفي قبال هٰذه الآيات تدلّ بتعابير مختلفة على أنّ

---

(١) المائدة: ١٥ و ١٦.　　(٢) البقرة: ٢٠٧.

النية الخبيثة والدوافع النفسيّة المتعارضة مع رضا الله تستدعي انحطاط الإنسان كقوله تعالىٰ:

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾[١].

أو ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢].

إن الآية الأخيرة وإن كانت نازلة في مورد خاصّ الاّ أنّ ذيلها مطلق بالنسبة لمؤاخذة الإنسان علىٰ النية السيئة.

أغلب الآيات التي تؤكّد علىٰ النية ترتبط بموارد خاصّة يكون الإنسان فيها أقرب من الانحراف، حيث يظنّ أنّه لو ادىٰ هٰذه الأعمال لغير رضا الله تعالىٰ أيضاً فانّها سوف تكون ذات قيمة. ومن هٰذه الموارد الخاصّة هي (الهجرة) حيث ترك المهاجرون ديارهم وأعمالهم وأموالهم في مكة وهاجروا الىٰ المدينة في ظروف صعبة وشاقة من أجل الإسلام، ثمّ حظَوا بتكريم خاصّ من قبل المسلمين لتضحيتهم هذه، وكان موقفهم ذا قيمة أخلاقية سامية، ولكن بعد قوة وشوكة الإسلام كان ثمّة أُناس يتوقعون انتصار المسلمين فأخذوا يهاجرون الىٰ المدينة طمعاً ولدوافع غير إلٰهية، ولذا يؤكّد القرآن الكريم في قضية الهجرة علىٰ هٰذه النية الخاصّة والدافع الإلٰهي بصورة خاصّة، ويقول بأن ذوي الشأن هم الذين يهاجرون لنيل رضا الله.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ﴾[٣].

والمورد الثاني الذي تؤكّد فيه الآيات علىٰ قضية النية هو (الجهاد). فالذين يشهدون المعارك بدافع الإستيلاء علىٰ الغنائم حينما يعتقدون جازمين بأنّهم

---

(١) البقرة: ٢٨٤. (٢) البقرة: ٢٢٥.

(٣) الحشر: ٨.

منتصرون في الحرب، ويجاهدون على أساس هٰذا الحكم المسبق طامعين بالغنائم لا قيمة لجهادهم في بُعده المعنوي والأخلاقي، وإنّما يكون ذا قيمة حينما يكون بدافع نيل رضا الله تعالىٰ، يقول القرآن بهٰذا الشأن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾(١).

إذا كان جهادكم لله ورضاه حقاً فلا يجوز ان تقيموا علاقات مع اعداء الله، فيكون العمل لغير الله ولا قيمة له.

المورد الثالث من الآيات المؤكّدة بشدّة على أن تكون النية لله ولوجه الله هو (الانفاق) منها قوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(٢).

حيث يعطي أولاً درساً أخلاقيا وهو النهي عن المنّ أو الإيذاء بعد دفع الصدقة، فانّ صدقاتكم سوف تفقد تأثيرها من الناحية المعنويّة والأخلاقية. ثمّ يشبّه من يمنّ في صدقته بالذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ودافعه في الانفاق هو الرياء. الانفاق الذي لا يتمّ بدافع الإيمان بالله واليوم الآخر بل بُغية المحبوبية والجاه لا قيمة له في بعده المعنوي والأخلاقي، ولكي يجسّد عدم قيمة هٰذا العمل بصورة أوضح يستفاد من مثال، يقول تعالىٰ:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا

(١) الممتحنة: ١. (٢) البقرة: ٢٦٤.

كَسَبُوا﴾[١].

فبدلاً من إلقاء البذرة في ارض خصبة يلقيها علىٰ صخرة صمّاء فينزل المطر وبدلاً من أن يساعدها علىٰ الانفلاق والنموّ والاخضرار يغسلها ويلقيها خارجاً ويتلفها، فلا يبقىٰ مجال لنموها واخضرارها بل حتّىٰ لبقائها.

إذنْ لا يعود علىٰ الإنسان من هٰذا العمل شيء فحسب، بل تصبح البذرة التي ألقاها فاسدة تالفة.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

وفي مقابل هٰؤلاء المرائين يضرب الله تعالىٰ مثلاً بشأن المؤمنين، حيث يقول:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣].

وعليه فانّ النية هي ملاك القيمة، ونية الإنسان ـ الإلٰهيّة أو الشيطانية ـ تؤثر في سموّ العمل أو انحطاطه.

للنية تأثير حقيقي.

إنّ ما تتركه النية علىٰ العمل من تأثير في تكامل النفس ووصول الإنسان الىٰ السعادة تأثير حقيقي وتكويني لا تعاقدي كأن يقال: انْ فعلت كذا أفعلْ كذا والاّ

---

(١) البقرة: ٢٦٤. (٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) البقرة: ٢٦٥.

فلا أفعل. فالنية ذات علاقة تكوينية مع ذلك العمل وتمدّه بالحياة، فالعمل الفاقد للنية جثةٌ ميتة في الحقيقة، لا تجد ارتباطاً مع قلب العامل وروحه ولا تعطي ثمرة للعامل نفسه.

انّ الأعمال التي ننجزها خارجاً إنّما تتحقّق علاقتها مع كمال النفس بفضل النية والدافع الذي ينشأ من النفس ويتعلّق بذلك العمل، وعليه فالعمل الذي يفقد النية الصالحة لا يستوجب كمالاً للنفس، ولذا قال تعالىٰ:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾(١).

وقال:

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾(٢).

جاءت هٰذه الآية بشكل قياس ولكن بدلاً عن التطبيق واعلان النتيجة اكتفت بذكر الكبرىٰ وهي:

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾.

أجل، إنّ الذين يقومون بعمل ما رئاءً وليس لله هم قرناء الشيطان وعلىٰ خطه، قال تعالىٰ:

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

انّ دفع الزكاة إنّما يكون ذا قيمة أخلاقية إذا كان لله سبحانه، وينحصر طريق

---

(١) البقرة: ٢٧٢. (٢) النساء: ٣٨.

(٣) الروم: ٣٨.

الفلاح للإنسان في أن يكون دافعه في الإنفاق هو الله، ويكون عمله لوجه الله، قال تعالىٰ في الآية التالية:

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[١].

وقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾[٢].

انّ قيمة هٰذا الاطعام ناشيء من كونه لوجه الله وليس لتحصيل الأجر من المطعَمين، وإن أرادوا الأجر فانّهم يبغونه من الله تعالىٰ، حيث قال في آيات اُخرىٰ:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[٣].

إذا بعث شخص اليك هديةً ذاتَ يوم وفي المقابل أرسلت له هدية أيضاً لأن الله تعالىٰ يحبّ هٰذا العمل كان ذا قيمة أخلاقية ونافعاً، ولكن إذا كان بدافع انّك إن لم تقابله بالمِثل فانّه سوف لا يكرر ذلك الفعل، فتقابله بالمثل لكي يواصل خيره وتزداد انتفاعاً فانّ عملك سوف يفقد القيمة الأخلاقية.

الذين وصفْتهم هٰذه الآيات إنّما ينفقون أموالهم بغية مرضاة الله لا لدافع آخر وإن كان المقابلة بالمثل وتقديم الجزاء.

وقال تعالىٰ عن الصبر:

---

(١) الروم: ٣٩.
(٢) الإنسان: ٨ و ٩.
(٣) الليل: ١٧ ـ ٢١.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾[١].

إنّ ذكر هٰذه الموارد يكفي في إدراك هٰذه الحقيقة وهي أنّ النية ستكون أهمّ المناشىء الأساسية لقيمة العمل، وهٰذه من القضايا المهمة التي أكّد عليها القرآن الكريم بشدّة.

والروايات في هٰذا المجال كثيرة أيضاً، منها الرواية التي ينقلها الشيعة والسنة عن النبي الأكرم ﷺ حيث قال:

«إنّما الأعمال بالنيات ولكلّ امرىء ما نوىٰ»[٢].

وقد وردت روايات كثيرة بهٰذا المضمون وهو أنّ قيمة عمل كلّ إنسان تتوقف علىٰ نيته، فنستنتج أنّ النية التي تضفي القيمة هي النية التي ترتبط بالله عزوجل.

درجات النية

انّ ارتباط (النية) بالله ذو درجات مختلفة: فتارة ينجز العمل خالصاً لله سبحانه، والإنسان يقوم بالعمل الذي يرتضيه الله لمحض حبّه، كما ورد في بعض الروايات عن الائمة الاطهار عليهم السلام:

«إنّما أعبده حبّاً له» أو «إنّما أعبده شكراً له».

وتارة يقوم بالعمل تحصيلاً للنعم الإلٰهيّة، وبما أنّ النعمة يتفضل بها الله فيطلبها منه ويعمل لنيل تلك النعمة التي هي من الله وبيده. الذين يعملون لكسب الثواب

---

(١) الرعد: ٢٢.

(٢) بحار الأنوار/ ٧٠ / ٢١٢ ح ٣٨ ط. بيروت.

الأُخروي والأمان من العذاب يكون عملهم ذا قيمة أيضاً، الاّ أنّ قيمته أقل بالقياس الىٰ العمل الذي يؤتىٰ به خالصاً لوجه الله.

الخلاصة: إنّ العمل في الإسلام يكون ذا قيمة لو كان مرتبطاً بالله، بواسطة أو بدونها، والسبب في منح النية القيمةَ للعمل هو الإرتباط مع الله، فهٰذا الإرتباط يتمّ عن طريق النية.

الإيمان وقيمة الأعمال

العمل القيّم من وجهة نظر الإسلام هو العمل الذي يرتبط بالله تعالىٰ من خلال النية، ومثل هٰذه النية التي تحقّق العلاقة مع الله تتأتّىٰ من الذين يقومون بالعمل لأجل الله، أو خوفا من عذابه، أو أملاً في ثوابه. إذنْ يجب أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، فما لم يؤمن الإنسان بالله، لا يمكن أن يقوم بعمل لأجله، وما لم يؤمن بيوم القيامة وهو يوم الحساب والثواب والعقاب لا يمكن أن يقوم بعمل رجاءَ ثوابه أو خوفاً من عذابه. وعليه فانّ للإيمان دوراً أساسياً، ومن أراد القيام بعمل رجاء ثواب الله أو خوفاً من عذابه عليه أن يؤمن بيوم القيامة وهو يوم الحساب والجزاء. هٰذه الآصرة بين العمل والإيمان من القوة بحيث يمكن القول بأن الذين يعملون رئاءً لا يؤمنون ـ في الحقيقة ـ بالله ويوم القيامة، قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[١].

---

(١) البقرة: ٢٦٤.

ان جملة ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في الآية ترتبط بجملة: ﴿يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾. بهٰذا النحو وهو أن منشأ عدم الرئاء في العمل هو الايمان بالله واليوم الآخر. ولو فرض انّ مؤمناً قام بعمل رئاءً ولم يكن الإيمان منشأً لعمله، أي إنّ ايمانه من الضعف ما يؤدي الىٰ نسيانه اثناء العمل فلا يذكر الله ولا يوم القيامة، مثل هٰذا العمل يكون باطلاً وحراماً أحياناً، ويترتب عليه العقاب بدل الثواب.

على هٰذا فانّ تحقّق النية التي تقوّم القيمة الأخلاقية أو تكون روحها يكون من وجهة نظر الإسلام مشروطاً بالإيمان، فلولاه لا تتحقّق نية ويفقد العمل القيمة. من هنا يجب القول: انّ أساس القيم في الإسلام هو الايمان بالله ويوم الجزاء وكما قلنا: إنّ النظام الأخلاقي في الإسلام يرتبط بنظامه العقائدي ولا يمكن أن يستقل عنه.

فتوضّح جيّداً انّ جوهر القيمة هو النية التي يجب ان تكون إلٰهية، ومثل هٰذه النية لا تتحقّق الاّ بالإيمان بالله ويوم القيامة، ويمكن استنتاج أنّ العمل يكون قيّماًلو كان في حدّه المطلوب، إنّه يوجب السعادة في الآخرة لو كان ناشئاً من الايمان بالله والقيامة.

منشأ قيمة الإيمان

الآن وقد عُلم انّ منشأ القيمة في أيّ عمل هو الإيمان يطرح هٰذا السؤال: من أين يكسب الإيمان في ذاته القيمة وما هو منشؤها؟

نقول في الإجابة: الإيمان كما يستفاد من ظاهر الآيات أمر قلبي واختياري في الوقت ذاته ويختلف عن العلم والعقيدة، لأنّ العلم قد يحصل للإنسان بنحو غير

اختياري بخلاف الإيمان، ومثل هٰذا العلم والعقيدة ليس إيماناً فقد يكون شخص عالماً بشيء وكافراً به في الوقت نفسه. وبديهي أنّ هٰذا الكفر المقرون بالعلم بالحقانيّة هو أسوء بكثير من الكفر عن جهل. علىٰ أيّ حال، فانّ الإيمان ليس عين العلم ويفترق عنه، كما قال تعالىٰ:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[١].

إذنْ نستنتج أنّ الايمان عمل اختياري يتعلّق بالقلب ويمكن في نفسه أن يدخل في دائرة الاخلاق، لأنّ أيّ عمل اختياري ـ جوارحياً كان أو جوانحياً ـ يدخل في دائرة الاخلاق، فيكون من المناسب السؤال عن دافعه.

في الإجابة عن السؤال يمكن القول: الدافع الذي يبعث الإنسان نحو الإيمان يمكن أن يكون نوعاً من العلم، العلم بأن الله حق وله نعم خالدة وعذاب أبدي. وقد يكون دافع الإنسان للإيمان هو بلوغ الكمال في حالة اعتقاده انّ قبول ما يراه حقاً هو كمال لنفسه.

ولا إشكال في أن يكون كلّ واحد من هٰذين دافعاً لايمان الإنسان، وبعد الايمان يصير دافعاً لسائر الأعمال، وأساساً لقيمة أعمال الإنسان الأُخرىٰ أيّ الأعمال التي تصدر عن الايمان.

نستنتج أنّ الدافع في ايمان الإنسان هو العلم والمعرفه أو طلب الكمال، ولو كان كلّ منهما دافعاً للإيمان كان منشأً لقيمته أيضاً، وإذا افترضنا أنّ من يكون منشأ ايمانه هو الدافع الشيطاني فانّ ايمانه لا قيمة له جزماً، ولكن مثل هٰذا الافتراض غير ممكن، لأنّ الإيمان كما قلنا أمر قلبي ومستور عن أنظار الآخرين ولذا لا سبيل للشيطان والرئاء والغشّ فيه، الاّ أن يكون المراد هو إظهار الإيمان

---

(١) النمل: ١٤.

فانّ ذلك ليس إيماناً بل نفاقاً، قال تعالىٰ عن أمثال هٰؤلاء:

﴿قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١].

إذنْ دافع المؤمن في ايمانه إمّا هو علمه بأن الله أهل للإيمان به كما قال الامام علي عليه السلام في مناجاته مع الله:

«وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك»

ولسان حال المؤمن أمام الله تعالىٰ هو: إلٰهي وجدتك اهلاً للإيمان فآمنت بك.

وإمّا هو رجاء الأجر الإلٰهي إزاء ايمانه، وإمّا هو الخوف من عذاب الله مقابل كفره. إذ يُعلم أنّه لو آمن بالله فانّه سوف يؤجره، وإن لم يؤمن فانّه سيعاقبه، وهٰذه طبعاً دوافع إلٰهية أيضاً. وحتّىٰ لو اعتقد أنّ كمال الإنسان يكمن في التزامه بالحقيقة لو تعرَّف عليها ثمّ آمن بهٰذا الدافع، فانّه لا يقلل قيمة ايمانه، وليس هٰذا استثناءً بل قاعدة عامّة، وكما قلنا آنفاً: إذا قام الإنسان ـ بصورة عامة ـ بعمل طلباً للكمال لم يفقد قيمته. نعم، إذا لم يعرف مصداق الكمال وهو الإيمان بالله فانّه لا يدخل الجنة طبعاً، ولكن في هٰذا المورد يفترض أن يكون دافع طلب الكمال منشأً لايمانه، والإيمان هو الذي يُدخله الجنة، أي إنّ القيمة ـ في الحقيقة ـ ترتبط بالإيمان، ودافع طلب الكمال لا يتنافىٰ مع القيمة، إذنْ يكون الإيمان هو المنشأ لسعادة الإنسان.

مصدر القيمة وفق الرؤية القرآنية

تدلّ آيات كثيرة على أنّ الإيمان هو المصدر للقيمة أو السعادة، الاّ أنّ لسان

---

(١) الحجرات: ١٤.

حالها يختلف نوعاً ما، ويمكن القول بأن في أغلب الموارد ـ أي أكثر من خمسين آية ـ قد ذُكر الإيمان والعمل الصالح معاً حيث يقول تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وفي آيات أُخرىٰ ذُكر الإيمان وحده في بعض الموارد، وذُكر العمل وحده في موارد أُخرىٰ، فيكون ذلك سبباً لهٰذه الشبهة وهي: انّ الإيمان وحده كافٍ وإن لم يترتب عليه عمل كما هو مقتضىٰ اطلاق بعض الآيات، أو إن العمل وحده كافٍ وإن لم يكن مصدره الإيمان كما هو مقتضىٰ الظهور البدوي لبعض الآيات.

تصنيف الآيات

في القرآن الكريم آيات ظاهرها كفاية الإيمان وحده أو العمل وحده، كما ذُكر الإيمان والعمل معاً في آيات أُخرىٰ، نستشهد هنا بنماذج من كلّ طائفة من الآيات المذكورة:

ـ الطائفة التي تذكر الإيمان والعمل الصالح معاً تكون ذات مضامين وصيغ مختلفة، ففي مضمون قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[١].

وفي مضمون آخر:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[٢].

---

(١) النساء: ٥٧ و ١٢٢.

(٢) النساء: ١٢٤.

حيث أشارت أولاً الىٰ القيام بالعمل الصالح ثمّ ذكرت الإيمان كشرط، وهٰذه المجموعة من الآيات التي تذكر الإيمان كشرط كثيرة.

وفي مضمون ثالث ذُكر الإيمان مع التقوىٰ، كقوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١).

في هٰذا النوع من الآيات ينطبق التقوىٰ على العمل الصالح.

وفي آيات كثيرة ذُكر التقوىٰ وحده كقوله تعالىٰ:

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

أو: **﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾**(٣).

كما اعتبر الإيمان وحده في آيات أُخرىٰ شرطاً للسعادة ودخول الجنة، قال تعالىٰ في أوضحها:

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فيجَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

هٰذه الآية تستند الىٰ محض الإيمان وتذكر النعم الإلٰهيّة العظيمة حتّىٰ رضوان الله كأجر، والظاهر أنّها مطلقة وأعمُّ من القيام بعمل صالح أو عدمه.

ـ في بعض الآيات استند الىٰ محض العمل الصالح، كقوله تعالىٰ:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٥).

ظاهر هٰذه الآية هو أنّ كلّ من عمل صالحاً سوف ينال أجره الجزيل، ولكن

---

(١) البقرة: ١٠٣. (٢) النحل: ٣٠.

(٣) ق: ٣١. (٤) التوبة: ٧٢.

(٥) يونس: ٢٦.

هٰذا الظاهر يمكن تأويله بالقول: انّ مقصود الآية هو العمل الصالح المقارِن للإيمان، خاصّةً وقد قلنا سابقا بأنّ قيمة العمل الأخلاقي يتوقف علىٰ «النية»، والنية المطلوبة لا توجد بلا ايمان. وعليه يمكن القول انّ «الحُسنى» في القرآن الكريم هي العمل الصادر عن ايمان سابق.

ـ بعض الآيات تطرح طاعة الله ورسوله كملاك للسعادة، كقوله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

في هٰذه الآية وإن استند الىٰ الطاعة وحدها لكن ينبغي الإلتفات الىٰ أنّ طاعة الله والرسول تبتني في نفسها علىٰ الإيمان بالله ورسوله وتنشأ منه، والإيمان بالنبوة هو الأساس لهٰذا العمل الأخلاقي.

في هٰذا السياق أشرنا سابقاً الىٰ ملاحظة هي أنّ طاعة الله قد تُطرح كموضوع للقيمة الأخلاقية، وقلنا أنّ هٰذه الملاحظة تبتني علىٰ حقيقتين:

الأولى: انّ الأمر الإلٰهي كاشف عن الحُسن الذاتي للفعل.

الثانية: انّ لطاعة الله بلحاظ العلاقة بين عبوديتنا وربوبيته ـ وهي من الشؤون الأخلاقية الإسلامية ـ موضوعية في ذاتها.

ـ في مقابل هٰذه الآيات ثمّة آيات عديدة تدلّ على أنّ الكفر بالله والأنبياء عليهم السلام والقيامة يستوجب الخسران والعذاب الأبدي، ونظراً الىٰ أنّ ذكرها يطول نغضّ الطرف عن ذكرها هنا.

ـ هناك آيات تطرح طاعة الشيطان وعناوين كالظلم والطغيان وما شاكلهما

---

(١) النساء: ١٣.

كعوامل للفساد، وتدلّ على أنّ ممارسة السيئة والظلم طغيان موجب للدخول في جهنم. الكثير من هٰذه العناوين يبيّن هٰذه الحقيقة وهي أنّ نشوءها عن الكفر أو ملازمته أو عدم الإيمان هو الذي يوجب العذاب الدائم.

وعلىٰ أيّ حال فالكلام في الكفر عن جحود، وهو الانكار العمدي، فيكون الكافر قد ارتكب معصية بسبب عدم الإيمان، ولكن إذا كانت معصيته ناشئة من ضعف المعرفة فانّ هٰذه الآيات لا تتعرض له.

ـ ثمّة آيات تؤكّد علىٰ الايمان كشرط للقيمة الأخلاقية وتدلّ على أن أعمال الكفار لا قيمة لها، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

و **﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾**[2].

و **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾**[3].

و **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾**[4].

و **﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾**[5].

---

(١) آل عمران: ١١٦ و ١١٧.
(٢) ابراهيم: ١٨.
(٣) النور: ٣٩.
(٤) الفرقان: ٢٣.
(٥) البقرة: ٢٦٤.

نستنتج من هٰذه الآيات أنّ العمل وإن كان صالحا واتّصف بحُسن فعلي إنّما يكون سبباً لسعادة الإنسان إذا اتّصف بحُسن فاعلي أيضاً وكان منشؤه النية الخالصة والإيمان.

الجمع بين الآيات

للجمع بين هٰذه الآيات إمّا أن نخصّص بعضها ببعض بهٰذا النحو، وهو أنّ الإيمان والعمل نافعان بشرط تقارنهما، وإمّا أن نجعل أحدهما شرطاً للآخر بأن نقول مثلاً: الإيمان نافع إذا اقترن مع العمل أو نقول: إذا كان منشأ العمل هو الإيمان فانّه نافع لا ما إذا كان فاقداً للإيمان. ولكن لو تأملنا في الآيات المذكورة وجدناها ـ كما هو لسان بعض هٰذه الآيات آبيةً عن مثل هٰذه التخصيصات. وفي الحقيقة حينما نتأمّل ندرك أنّ الموارد التي جاء فيها الإيمان مع العمل كان الإيمان مقتضيا للعمل، وفي الظروف الإعتياديه لا يمكن تحقّق إيمان بدون عمل، لأنّا قلنا انّ حقيقة الإيمان ليست العلم فقط، بل يلزم معه تسليم الإنسان نفسه لله وعزمه علىٰ الإلتزام بمستلزمات ذلك العلم، بدليل انّ الإيمان أمر اختياري، في حين أنّ العلم ليس اختيارياً بالضرورة.

أجل، انّ الإيمان يتحقّق في حالة جعل الإنسان قلبه مستعدّاً للتسليم بألوهية الله تعالىٰ اختياراً ثمّ التزامه بمستلزماتها، وعليه لا يصحّ افتراض كون الإنسان مؤمناً دون أن يعمل، لأنّ العمل ثمرة الإيمان، ففي حالة توفّر شروطه الخارجيّة وتوجه التكليف للإنسان يقوم بأدائه. فمثلاً: إنّ الإيمان يستلزم أداء الصلاة ولكن بشرط دخول وقتها، ويتوجه الحكم الإلٰهي بوجوب الصلاة الىٰ المكلف. في هٰذه

الحالة يكون مقتضىٰ الايمان هو أن يعمل الإنسان بواجب العبودية لله من خلال أداء الصلاة.

علىٰ هٰذا الأساس يمكن افتراض موارد يتخلف فيها الإيمان عن العمل، وهي الموارد التي يتحقّق فيها الإيمان ولكن لا يصدر العمل من الإنسان لعدم توفّر الشروط الزمانية والمكانية وغيرها لإنجاز العمل، من قبيل أن يؤمن شخص قبل الظهر ثمّ يموت قبل الزوال ولم يدخل وقت الصلاة بعدُ. إنّه لم يقم بعمل بسبب عدم حلول ظرف العمل، لا أنّ ايمانه قاصر عن التأثير عليه ودفعه نحو العمل، فهو كالمؤمن الذي يموت قبل حلول موسم الحج، في هٰذه الحالة يكون قد ترك الحج ولكن بدون داعٍ لتركه لكي يخالف الإيمان، بل لأنّ وقته لم يحضر بعد ولم يمهله العمر.

في مثل هٰذه الموارد التي لم يؤدِّ الإنسان فيها أيَّ عمل ولكنه كان علىٰ ايمان بدون أن يعلم أنها اللحظات الأخيرة من عمره، وبعد الإيمان مات فجأةً بدون عمل وعبادة يجب القول: إنّ هٰذا الإيمان ـ وإن لم يكن منشأً لعمل صالح ـ موجب لسعادة الإنسان، وتدلّ الآيات القرآنية بانضمام الروايات إليها على أنّ مثل هٰذا الإنسان ليس من أهل العذاب، ويشمله اطلاق الآيات القائلة بأنّ المؤمنين يدخلون الجنة.

ويمكن القول: انّ الآيات التي تذكر العمل بعد الإيمان ناظرة الىٰ الحالات العادية، أي الىٰ الذين آمنوا وتيسّرت لهم شروط العمل بمقتضىٰ الإيمان من قبيل القدرة، والوقت، والإستطاعه وغيرها ثمّ عملوا بمقتضىٰ إيمانهم. والآيات التي تذكر الإيمان فقط دون الإشارة الىٰ العمل ناظرة الىٰ الموارد التي يتخلف فيها الإيمان عن العمل ويكون موجباً لسعادة الإنسان بدون عمل، الذين يؤمنون

ولكن لا يجدون مجالاً ولم يمهلهم العمر للعمل، أو يجدون مجالاً ولكن لا قدرة لهم، أو يجدون المجال والقدرة ولكن يعيشون حالة التقية بترك العمل الذي يقتضيه الايمان. قال تعالىٰ في شأنهم:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1].

فقد ابتُلي مؤمنون بأعداء ألدّاء فأخفَوا ايمانهم ولم يقوموا ظاهراً بالأعمال المطلوبة منهم حفظاً لحياتهم وأعراضهم وأموالهم. الاّ أنّ هٰذا لا يمسّ سعادة الانسان بضرر، إذْ إنّ ترك هٰذا العمل لم يكن لعدم الإيمان، بل كان ايمانه هو السبب لترك العمل واقتضىٰ عدم مزاولة أعمال تضره، وعليه لو مات علىٰ هٰذه الحالة أو استشهد علىٰ يد المشركين فانّ ايمانه يكون موجباً لسعادته لا محالة. نستنتج انّ ترك العمل يكون مضراً في حالة توفّر الشروط والمجال لادائه، وفي مثل هٰذه الحالة إذا استنكف الإنسان عن ادائه عدّ عاصياً وخسر خسراناً مبيناً.

طرق جَبر المعاصي

لو سئل: هل بالإمكان جَبر الضرر والخسارة التي تلحق الإنسان إثر تركه لواجب أم لا؟

في الإجابة يمكن القول: نعم، يمكن ذلك في بعض الحالات، وبعبارة أُخرىٰ :انّ جبر هٰذه الخسائر ذو شروط وقد ذكرت في القرآن الكريم عدة أمور لتكفير الذنوب من قبيل:

١ ـ اجتناب الذنوب الكبيرة، قال تعالىٰ:

---

(١) النحل: ١٠٦.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[١].

فالذين يجتنبون الذنوب الكبيرة والفواحش يكفّر الله تعالىٰ ذنوبهم الصغيرة (الصغائر) وتشملهم النعم الإلٰهيّة ويدخلون الجنة.

كما قال سبحانه في آية أُخرىٰ:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٢].

٢ ـ التوبة، وهي عمل صالح في نفسها وتستوجب غفران ذنوب التائب، قال تعالىٰ:

﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

٣ ـ الشفاعة بحق المؤمن الذي ارتكب عملاً قبيحاً أو ترك واجبا مع القدرة علىٰ ادائه، ثمّ رحل عن الدنيا بدون توبة أو تكفير وجَبر للذنوب، ولكنه استجمع شروط الشفاعة فانّه يُغفر له بالشفاعة أيضاً ويدخل الجنة، وإن لم تتوفّر لديه شروطها فلا ينبغي قطع رجائه ويأسه من رَوح الله أيضاً، فربما شملته العناية الإلٰهية لسبب من الأسباب كأن يكون مستضعفاً، قال تعالىٰ:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

وممّا مر يمكن القول بأنّ آيات الايمان ليست بصدد التقنين الدقيق لشروط السعادة للإنسان، بل تريد بيان أهمية الإيمان والعمل الصالح محضاً، وبملاحظة آيات أُخرىٰ يتحصل من مجموعها أنّ الايمان هو العامل الأساس للسعادة، والإيمان في نفسه عمل قلبي، كما قد تدلّ عليه عبارة (الإيمان عمل كله) الواردة في بعض الروايات ولعل المراد من الرواية ـ في احتمال آخر ـ هو أنّ الإيمان

---

(١) الشورى: ٣٧.
(٢) النساء: ٣١.
(٣) الانعام: ٥٤.
(٤) التوبة: ١٠٦.

يستلزم العمل فعلىٰ المؤمن القيام بجميع الأعمال التي يأمر بها الإيمان، وعلىٰ كلّ حال فانّ لسان الرواية هو لسان الإقتضاء، وقد ينفصل عن العمل الصالح بدون أن يُلحق ضرراً بسعادة الإنسان.

ما هو متعلَّق الإيمان؟

هناك سؤال: ما هو متعلَّق الإيمان؟ ولأيّ الأمور يكون الإيمان منشأً للقيمة الأخلاقية؟

بما أنّ الإيمان أو المؤمن قد ذُكرا علىٰ نحو الاطلاق في الكثير من الآيات ولم يُذكر متعلقيهما، كقوله تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[١].

أو قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أجل، بما أنّ الإيمان قد ذُكر مطلقاً في هٰذه الآيات، وهناك من يستغلّها لأغراض خاصّة فمن الضروري أن نجيب عن هٰذا السؤال للحيلولة دون ذلك، وهو واضح لدىٰ العارفين بالقرآن الكريم، ولكن بما أنّ المغرضين والمنحرفين ومن أجل الوصول الىٰ اهدافهم يثيرون الشكوك حول أوضح القضايا وأحكم الآيات ويؤوّلونها حسب أهوائهم، فعلينا تبيان متعلَّق الإيمان استناداً الىٰ القرآن الكريم نفسه.

قال بعض: إنّ المراد من الإيمان الذي استُند إليه في القرآن هو الإيمان

---

(١) النحل: ٩٧.

بالهدف. فيكون كلّ مؤمن بهدفه مصداقاً لهٰذه الآيات، ولو سئل ما الهدف؟ لقال: تأسيس مجتمع لا طبقي، حتّىٰ عبّروا عنه بـ(المجتمع اللاطبقي التوحيدي) ودافعهم في مثل هٰذا التفسير والتسمية هو أن يؤمن الإنسان ويعتقد بأن مثل هٰذا المجتمع اللاطبقي سوف يتحقق. ولكي نسدّ الطريق أمام مثل هٰذه التشكيكات الشيطانية يلزم تحديد متعلَّق الإيمان بهدي من القرآن الكريم نفسه.

حينما نتأمّل القرآن في هٰذه المجال نلاحظ في الكثير من الآيات تعبيرات مختلفة عن الإيمان بالله، كقوله تعالىٰ:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[1].

أو ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ﴾[2].

أو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ﴾[3].

أو قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾.

وفيها تصريح بلفظ الإيمان وذكر لمتعلقه وهو (الله). مثل هٰذه الآيات بإمكانها أن تفسر الآيات المطلقة جيّداً، وتبيّن متعلَّق الإيمان في القرآن الكريم. وعليه فانّ الإيمان بـ(الله) سيكون من مصاديق ومتعلقات الإيمان المذكور بشكل مطلق بلسان القرآن ومطلوباً وقيّماً.

وفي موارد كثيرة من القرآن ذُكر (الإيمان بالله وباليوم الآخر) متقارنين:

﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[4].

وفي بعض الموارد ذُكر الإيمان بما أنزل علىٰ النبي ﷺ:

(١) البقرة: ١١٢.
(٢) لقمان: ٢٢.
(٣) الاحقاف: ١٣ و فصلت: ٣٠.
(٤) البقرة: ٦٢ و المائدة: ٦٩.

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[١].

وفي بعض الآيات ذُكر (الإيمان بالله ورسله).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾[٢].

وفي آيتين ذكرت أمور أُخرىٰ كمتعلّقات للإيمان غير الإيمان بالله ورسله، ويمكن القول: إنّهما بلحاظ ذكر متعلقات الإيمان أشمل الآيات كافة، قال تعالىٰ في إحداهما:

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[٣].

وقال في ثانيهما:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[٤].

المستفاد من مجموع هٰذه الآيات هو إمكانية جعل متعلقات الإيمان علىٰ غرار التبويب الذي قام به العلماء العظام وهو التوحيد، والنبوة والمعاد بصفتها اصول العقيدة. أما الكتب والرسل والرسول الخاصّ والنبيون فقد قُصدوا في أصل النبوة. والملائكة بلحاظ كونها الواسطة في الوحي ونزول الكتاب علىٰ الأنبياء ستكون متعلّقاً للإيمان أيضاً. وعليه يمكن القول بأنّ المراد من الإيمان في القرآن الكريم هو الإيمان بالاصول الثلاثة، وأهمّها هو الإيمان بالله بحيث لو كان جامعا وكاملا لوفّر الإيمان بالأصلَين الآخَرين أيضاً. وبما أنّ الله رب الإنسان ويهديه بمقتضىٰ ربوبيته، وتتمّ إلٰهية الإله للإنسان عن طريق الوحي فسيكون الإيمان بالله

(١) محمد ﷺ: ٢.

(٢) الحديد: ١٩.

(٣) البقرة: ١٧٧.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

متضمناً للإيمان بالنبوة.

إذنْ ينشأ الايمان بالنبوة من الإيمان بالتوحيد، كما أنّ مقتضىٰ العدل الإلٰهي هو التفريق بين المؤمن والكافر والمتقي والفاسق في الأجر والجزاء. ومن المتيقن به أنّ إثابة الصالحين وعقاب العاصين غير ممكن الاّ في عالم الآخرة، وعليه فانّ الايمان بالله وعدله يتضمن في نفسه الإيمان بالمعاد.

الكفر، والشرك، والنفاق

وهناك آيات كثيرة تُبيّن متعلّقات وموارد الكفر التي تستوجب هلاك الإنسان وحبط الأعمال، من قبيل الكفر بالله ورسوله[١]، والكفر بالآخرة والمعاد[٢].

وفي موارد ركّزت على الشرك كأساس للقيمة السلبية وذلك لأن الإعتقاد بالشرك يقترن مع انكار التوحيد[٣].

وفي الكثير من الآيات طُرح التكذيب بآيات الله بدل الكفر أو كتفسير له، ويرجع ذلك في الواقع الىٰ انكار النبوة[٤].

وقد ذُكر الكفر بآيات الله مقارناً للكفر بالقيامة في بعض الموارد[٥]. ويمكن القول انّ الآية الأشمل لذكر موارد الكفر هي التي ذكرت مقابل الآيات الأكثر

(١) (ومن يؤمن بالله ورسوله فإنااعتدنا للكافرين سعيرا) الفتح: ١٣.

(٢) كالآيات: الانعام: ٢٧ و ٢٩ و ٣١ ـ الأعراف: ١٤٧ ـ يونس: ٧ و ٨ ـ الفرقان: ١١ ـ النمل: ٤ ـ سبأ: ٨.

(٣) كالآيات: النساء: ١١٦ ـ التوبة: ١١٣ ـ الإسراء: ٣٩ ـ الحج: ٣١ ـ الزمر: ٦٦.

(٤) كالآيات: آل عمران: ٤ ـ النساء: ٥٦ ـ المائدة: ٨٦ ـ الانعام: ٤٩ ـ الأعراف: ٣٦ و ٤٠، الحج: ٥٧ ـ الزمر: ٦٣.

(٥) كالآيات: العنكبوت: ٢٣ و الروم: ١٦.

شمولية لذكر موارد الايمان، وهي الآية ١٣٦ من سورة النساء، قال تعالىٰ:

و﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[١].

ويمكن القول انّ هٰذه الأمور تشترك في حقيقة واحدة، وعلىٰ أساسها قال تعالىٰ في عبارة:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٢].

ثمّ إنّ النفاق ليس شيئاً غير الكفر في الباطن والإيمان في الظاهر، ونظراً لتوقف السعادة والشقاء علىٰ الحقائق الباطنية يُعدّ المنافقون الذين يضمرون الكفر من زمرة الكافرين، بل هم أسوء من الكفار بلحاظ تنقّبهم وتترّسهم خلف اسلامهم الظاهري، فلا يعرفهم الناس ويكون ضررهم أشدّ علىٰ المجتمع الإسلامي. من هنا وردت آيات كثيرة تدلّ على أنّ المنافقين معذّبون أشدَّ العذاب من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٣].

و﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾[٤].

وقد اتضح بما ذكرنا أنّه لا يعتبر النفاق أمراً منفكّاً عن الكفر، فانّ الموجود في الحقيقة هو إما الكفر أو الإيمان، لأن ما يمنح القيمة الأخلاقية هو الواقع النفسيّ الذي يتلخّص في الحقيقتين المذكورتين، ولذا يُعتبر المنافقون من زمرة الكفار.

ومن منظار آخر يمكن القول: إنّ متعلَّق الايمان هو التوحيد والنبوّة، ولهٰذا فانّ من نطق الشهادتين يُعدُّ مسلماً. لكن ربّما يلتبس الأمر على بعض الناس فيظنّ أنّ الإقرار بهٰذين الأصلين يكفي للفوز بالسعادة الأبدية نتيجة للخلط بين الأحكام

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) النساء: ١٤٥.

(٤) النساء: ١٤٠.

الظاهرية والمسائل المعنويّة والواقعية. أمّا الروايات القائلة بأنّ من نطق بالشهادتين يُحترم ماله ويمكن الزواج منه ويرث المسلم، وبجملة واحدة إنّه مسلم وله حكمه فانّها بصدد بيان حكم فقهي ظاهري شُرّع لتحقيق مصلحة المسلمين في هٰذا العالم، ولا علاقة له مع الجوانب المعنويّة والسعاده الخالدة للإنسان. وحتّىٰ إذا أقرّ شخص ـ إضافةً الىٰ النطق بالشهادتين ـ بأحكام الإسلام كلها وعمل بها، ولكنه لم يؤمن باطناً بالرسل والكتب والملائكة فانّه محروم بلا شك من أيّة سعادة وإن أُجري حكم الإسلام بحقه في الظاهر وله حكم المسلم في الطهارة والتوارث والتزاوج، وحفظت ذمته وماله ونفسه وعرضه وشرفه، لأنّ هٰذه أحكام فقهية اجتماعية، وتتضمن مصلحة المجتمع ولا علاقة لها مع ما يبحث عنه هنا من أسباب السعادة والشقاوة الحقيقيين. إذنْ ملاك السعادة الأبدية للإنسان هو ايمانه القلبي ولا تأثير للنطق بالشهادتين علىٰ ذلك، يقول القرآن بهٰذا الشأن:

﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فيقُلُوبِكُمْ﴾(١).

نعم، هٰؤلاء يتمتعون بآثار اسلامهم، ولكنهم محرومون من ثمار الإيمان.

الايمان يجب أن يكون مطلقاً

الإيمان بالمتعلقات التي ذكرناها سابقاً، من قبيل: الله عزوجل، والملائكة، والكتب، والرسل ويوم الجزاء لابدّ أن يكون مطلقاً، فمن يقول: آمنت بنبوة رسول الإسلام ﷺ ولا أؤمن بنبوة سائر الأنبياء، أو يقول: اعتقد بجميع الأنبياء ولكني

(١) الحجرات: ١٤.

أرفض الحكم الفلاني الذي جاء به أحد الأنبياء عليهم السلام لم يكفِه ذلك لأن يكون مؤمنا بل سيكون كافراً. فالإيمان يجب أن يكون مطلقاً بجميع الأنبياء عليهم السلام وجميع ما أنزل الله عزّوجلّ ولا يقبل التبعيض. ومن يعتقد بالتبعيض في هٰذه الموارد لم ينفعه ذلك الإيمان ولا تأثير له في الوصول الىٰ سعادته الأُخروية. بهٰذا الشأن قال تعالىٰ في القرآن:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال أيضاً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٢].

ولعل السبب في استحقاق المعتقد بالتبعيض في ايمانه أشدَّ العذاب هو أنّ من ثبتت لديه رسالة نبي وصحة كتاب سماوي ثمّ أنكر بعضه فانّ عامله هو الجحود والعناد، فمن الطبيعي أن يتعرض لأشد العذاب، لأنّ الحقيقه قد توضّحت لديه بنحو كامل. وعلى أيّ حال، فانّ ما يوجب السعادة هو الإيمان المطلق الخالي من كلّ تبعيض بالنسبة للأنبياء صلوات الله عليهم ومضمون رسالتهم، كما قال تعالىٰ:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[٣].

وما ذكر ـ طبعاً ـ لا يعني إمكان تنفيذ شريعة كلّ نبي في كلّ عصر، ولم يدَّعِ ذلك أيُّ نبي من الأنبياء عليهم السلام، بل المراد هو أنّهم يصدّقون بنبوته ورسالته من جانب

---

(١) البقره: ٨٥.　　(٢) النساء: ١٥٠ و ١٥١.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

الله، ولا يتهرّبون من التصديق برسالته بذريعة أنّه من بني اسرائيل، ولا يتهرّب بنو اسرائيل من التصديق برسالة نبي الإسلام ﷺ بذريعة أنّه من العرب. وعليه فانّ الله قد بعث رسلاً من بين كلّ قوم علىٰ طول التأريخ، وفي حالة العلم بكون شخص رسولاً لله تعالىٰ وجب التصديق به.

بهٰذا الشأن وصف الله المتقين بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[١].

و من الواضح أنه لا يجوز العمل بحكم منسوخ في شريعةٍ لأتباع تلك الشريعة فضلاً عن الأحكام المتعلقة بالشرائع السابقة والمنسوخة في اللاحقة.

ينبغي الإلتفات الىٰ هٰذه الملاحظة أيضاً وهي: انّ وجوب الإيمان بالكتب السماوية لا يعني الإعتقاد بكون التّوراة والإنجيل المحرَّفين حالياً كلام الله،بل إنّ النص الحقيقي للتّوراة والإنجيل المنزَلين من عند الله حق ويجب الإيمان به ولكنه غير موجود في أيدي الناس ومجهول لدينا.

إذنْ يجب أن يكون الإيمان مطلقاً بالنسبة الىٰ جميع ما أنزل الله وبدون تقييد.

مراتب الإيمان والكفر

ينبغي القول: انّ الإيمان ـ وهكذا الشرك والنفاق ـ ذو مراتب ودرجات تتناسب مع كلّ مرتبة، فالإنسان إمّا يسمو أو يتسافل، وينال درجات من الجنة ومقاماتها أو درَكات من جهنم. وعليه فانّ الإيمان وإن كان ضعيفا هو أول وأيسر ما يُتقبّل من الإنسان ويستوجب سعادته، ولكن لابدّ لكلّ مؤمن أن يحظىٰ بمراتب

---

(١) البقرة: ٤.

أعلىٰ من الإيمان، والقرآن الكريم يصرح أيضاً بأن الايمان قابل للازدياد، قال تعالىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فيقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمَاناً مَعَ إيمَانِهِمْ﴾[١].

وهكذا الكفر والنفاق. ومن الطبيعي أن يقارن صاحب المرتبة الأُولى للإيمان مراتب من الكفر والشرك، وقد أشار عزّوجلّ الىٰ هذه الحقيقة في القرآن بقوله:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أكثَرُهُمْ بِاللهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٢].

وبملاحظة المعنىٰ الوسيع للتوحيد في القرآن الكريم ـ كما مرّ ـ نعرف أنّ تحصيل مراتب الإيمان المتكاملة لا يتيسّر لأغلب الأشخاص وذلك بأن لا يخاف ولا يرجو الاّ الله تعالىٰ حتّىٰ يبلغ ذروة التوحيد الذي يختص بأولياء الله الذين لا يرَون وجوداً مستقلاً لغير الله تعالى.

فعلىٰ ضعاف الإيمان الذين اختلط ايمانهم بالشرك ولم يبلغوا درجة التوحيد الخالص السعي الجاد للتحرّر من الشرك والسير علىٰ نهج التوحيد.

ثمّ إنّ للكفر والنفاق ـ كالإيمان ـ مراتب مختلفة شدّة وضعفاً. وقد أطلق القرآن لفظ (المنافق) علىٰ أشخاص يكثر أمثالهم في المجتمع الإسلامي كالذين كانوا يتخلفون عن الجهاد، ويصدّهم التعلّق بالدنيا عن العمل بواجباتهم وكانوا يصلّون وهم كسالىٰ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٣].

والذين قال عنهم القرآن الكريم:

---

(١) الفتح: ٤.　　(٢) يوسف: ١٠٦.

(٣) التوبة / ٥٤.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾[١].

وهٰذه من علامات النفاق التي تلاحظ في أوساط المؤمنين أيضاً.

الحاصل أنّ هناك مراتب من الكفر والشرك والنفاق تقارن مراتب الإيمان.

ولعلّك تسأل: كيف يمكن تقارن الكفر مع الإيمان؟

في الإجابة نقول: لهٰذه الحالة أسباب مختلفة، أهمُّها أمران:

١ ـ عدم تكامل المعرفة، أي إنّ عدم وصول الإنسان الىٰ بعض مراتب التوحيد أو بعض مقامات الأنبياءعليهم السلام وأولياء الله ناشىء من ضحالة معرفته وقصوره في طريق تحصيل هٰذا العلم فلا يتحصل لديه، فيبقىٰ ايمانه ضعيفا وناقصا.

٢ ـ عدم تزكية النفس وتهذيب الأخلاق الذي له دور أهمُّ ويحول دون اهتمام الإنسان بما فهمه وعرفه. كالنصارىٰ الذين جاؤوا الىٰ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتحدّثوا معه عن عقيدتهم، الاّ أنّهم لم يؤمنوا رغم أنّهم أُفحموا في البحث وعجزوا عن الكلام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم عنهم بأنّهم رغم معرفتهم لم يؤمنوا لإدمانهم شرب الخمر وأكلهم لحم الخنزير، إذ كان عليهم لو أسلموا أن يتركوا ذلك، الاّ أن إدمانهم لذينك الأمرين حالَ دون اسلامهم. ومن المعلوم أن لا خصوصية للخمر ولحم الخنزير، فانّ الإنسان كلّما بدا له التعارض بين مقتضىٰ أمر ثابت لديه وبين أهوائه ورغباته المتنوعة فانّ الأخيرة تحول دون ايمانه بتلك الحقيقة الثابتة، سواءً أكان الميل الىٰ الخمر ولحم الخنزير أو شيء آخر. وقد كانت هٰذه الأهواء والتعلقات الماديّة علىٰ مرّ التأريخ هي العامل الأساس لمعارضة الأنبياء من قبل مناوئيهم حيث كانت أهواؤهم في الأموال والرئاسة وغيرها تتعرض للخطر ببعثة الأنبياءعليهم السلام فانّهم وإن

---

(١) آل عمران / ١٨٨.

كانوا يتمّون الحجة علىٰ الناس ولكن أُنس الكثير منهم باللدائذ الماديّة كان يمنعهم من الايمان بالله ورسله وما أُنزل إليهم.

والتلوث الأخلاقي لا يكون مانعاً من ايمان الإنسان أو عاملاً علىٰ ضعفه فحسب، بل قد يكون سبباً لسلبه، فمع ايمانه وعزمه علىٰ العمل بمقتضاه يقع تدريجيّاً في ظروف وأجواء تتوفّر فيها ما يثير الشهوات ودوافع العصيان فيرتكب المعصية ظانّاً أن لا تأثير للمرّة والمرتين، فيتدرّج حتّىٰ يصل حدّاً يفقد فيه ايمانه كله. وقد حذّر الله سبحانه في القرآن الكريم الإنسانَ من هٰذا الخطر. والعديد من الآيات يخبر عن وجود ترابط عامّ بين الإيمان والعمل بهٰذا النحو وهو أنّ الإيمان يكون منشأً للعمل الصالح، وفي المقابل يكون العمل الصالح عاملاً علىٰ تعمّق الإيمان، كما أنّ ارتكاب العمل القبيح يستتبع سلب الإيمان.

لعل هناك من يظنّ بأن رابطة الإيمان والعمل هي التفاعل المتقابل الذي يطرح في الفكر الشيوعي وفلسفة الديالكتيك بوصفه أحد اركانه الأربعة، أو يظنّ انّ بالإمكان أن يكون أمران علة ومعلولا بنحو دوري.

للإجابة عن الإشكالين يمكن القول: بمزيد من التأمّل نجد انّ مرتبة الإيمان التي هي منشأ العمل والسلوك لا تتأثّر بذلك السلوك، والإيمان الذي يوجده هٰذا السلوك هو مرتبة أُخرىٰ من الإيمان ويختلف عن ذلك الإيمان الذي كان علة له. بعبارة أُخرىٰ انّ أصل الإيمان يستوجب مجموعة من الأعمال والسلوك، وتعمل تلكم الأعمال والسلوك علىٰ تعمق الإيمان، لا أنّ أيّ عمل يؤثّر في كلّ ايمان ولا أيّ ايمان يؤثّر في كلّ عمل.

وكيف كان يستفاد من آيات كثيرة تأثير الإيمان علىٰ العمل سيّما الإيمان بالآخرة، لأنّ عالم الآخرة عالم الثواب والعقاب والحساب والكتاب، ويجب أن

ينال الناس ثواب وعقاب أعمالهم كي يتحقّق العدل الإلٰهي، وهٰذا في نفسه برهان يثبت للعقل وجود عالم الآخرة. فمن لا يؤمن بالثواب والعقاب والحساب والكتاب ولا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء، ولا يوجد ما يمنعه من أعمال ويحثّه علىٰ أعمال أُخرىٰ، من هنا فانّ الأخلاق البعيدة عن الإيمان تكون عقيمة.

والقيم الأخلاقية في الإسلام قد بُنيت علىٰ حقائق عقائدية ثابتة وغير متغيرة، وفي التربية الإسلامية يُعتمد بصورة أشدَّ علىٰ العناصر التي تؤثر علىٰ حركةالإنسان. فانّ المحرك الرئيس للإنسان في سلوكه الاختياري هو الأمل بخير يعود عليه، أو الهروب من الخسائر والشرور التي تهدّده، ولذا جرت تربية الأنبياء عليهم السلام بصورة عامّة علىٰ أساس الانذار والتبشير.

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[١].

الواقع إنّ الخوف والرجاء هما العاملان في تحقّق الأفعال الاختيارية للإنسان، والإسلام مع اعترافه بهٰذه الحقيقة يسعى لرفع مستوى الوعي لدىٰ الإنسان بأن يربط خوفه ورجاءه بمتعلّقات قيّمة، كالخوف من الحرمان من لقاء الله وجوار رحمته أو رجاء الوصول اليه.

والحاصل: ما يمكن أن يكون دافعاً للإنسان نحو العمل هو الإعتقاد بوجود الحساب والثواب والعقاب كما قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢].

انّهم إمّا لم يعتقدوا بالمعاد من البداية أو نسَوه أثناء العمل، وفي المقابل يكون الذين يعتقدون بوجود الحساب هم من أهل الجنة ولهم عيشة راضية لأن الإعتقاد والإيمان بالآخرة يسوقهم الىٰ الأعمال الصالحة واجتناب الأعمال السيئة. وفي

(١) النساء: ١٦٥. (٢) ص: ٢٦.

الكثير من الموارد حينما يعظ القرآن أو يأمر الناس بأعمال يعلّق الإنتفاع بتلك المواعظ أو العمل بتلك الأوامر على الإيمان بالله ويوم الجزاء، من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١).

فبدون الإيمان لن تنفع هذه المواعظ.

و﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾(٢)

أمّا الذي لا يؤمن بالله ويوم القيامة فلا دافع له في التأسي بالنبي ﷺ كما قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾(٣).

ونسبة التزيين في هذه الآية الىٰ الله تكون علىٰ أساس مبنى توحيدي حيث ينسب كلّ تأثير إليه تعالىٰ، أي إن ربوبية الله ينبغي لا أن تنسى في أيّ مجال وقوله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾

يدلّ علىٰ وجود علاقة بين عدم الإيمان (الموضوع) وزيّنا لهم (المحمول)، وحسب قول العلماء يكون تعليق الحكم علىٰ الوصف مشعِراً بالعِليّة.

إذنْ عدم الإيمان بالآخرة أصبح منشأً لأن يكونوا عميان وتتزيّن أعمالهم في انظارهم. ويقول في موضع آخر:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾(٤).

---

(١) البقرة / ٢٣٢.
(٢) الاحزاب / ٢١.
(٣) النمل / ٤ و٥.
(٤) الزمر / ٤٥.

فهناك علاقة بين الإيمان بالآخرة والرغبة في ذكر الله، فلولا الإيمان لا تحصل الرغبة أيضاً، وقد جاء في موضع قرآني آخر:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[1].

فالذين لا يؤمنون بالآخرة يُخدعون بهٰؤلاء الماكرين فلا يستمعون إليهم فحسب، بل يعشقون أقوالهم الخادعة، ولو كانوا مؤمنين بالآخرة لما فعلوا هكذا. إذنْ بيّن الله سبحانه نمط العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح، وهكذا بين عدم الإيمان والعمل السيئ وبذلك يثبت تأثير الإيمان في العمل، كما أن آيات أُخرىٰ تُبيِّن من جانب آخر تأثير العمل الصالح علىٰ تجذّر الإيمان وبقائه أو تأثير الأعمال السيئة في خموله وفنائه، من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2].

كان سابقاً مؤمنون فقراء فعاهدوا الله علىٰ انفاق بعض أموالهم في سبيل الله إنْ أنقذهم من الفقر، ولكنهم حينما تخلصوا من الفقر واغناهم الله لم يوفوا بعهدهم مع الله ولم يعملوا بمقتضاه فعاقبهم الله هكذا:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.

كان هٰذا العمل سبباً لزوال الايمان من قلوبهم وظهور النفاق فيه وترسُّخه وتجذُّره الىٰ يوم القيامة.

---

(١) الانعام / ١١٢ و١١٣.

(٢) التوبة: ٧٧.

وهناك آية اُخرىٰ في هٰذا الشأن حيث يقول تعالىٰ:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون﴾[١].

انّ أعمالهم السيئة وتلوّث أرواحهم بالمعاصي أورثت استدراجهم حتّىٰ سُلب الإيمان من قلوبهم فلم يكذّبوا بآيات الله فحسب، بل أخذوا يستهزئون بها.

ويمكننا أن نستفيد من هٰذه الآية أنّ الذين يخرجون من الدين ويرتدّون هم أشدّ ضرراً وخطراً من الذين لم يؤمنوا بالدين أساساً، لانّهم من أجل تبرير ارتدادهم لابدّ من أن يخطّئوا أنفسهم والآخرين، بل ويستهزئوا بالسلوك الديني.

وينبغي أن تُقلق هٰذه الحالة كلَّ مؤمن دوماً، وذلك بأن لا يغترّ بايمانه وأعماله واخلاصه، بل علينا جميعاً ان نعوذ بالله ونسأله حُسن العاقبة والنهاية الطيبة لكيلا نُسلب الإيمان أخيراً بعد تحمّل كلّ هٰذه الآلام والمصائب، ومعاناة تلك الصعوبات والمتاعب.

* * *

(١) الروم / ١٠.

القسم الأول

٦

طريقة اكتساب القيم الأخلاقية

الغفلة... الآفة الأولى

أساس الإنسانية

المرحلة الأولى من الوعي

المرحلة الثانية من الوعي

علاقة العلم مع الايمان

شروط الايمان

طريقة إكتساب العلم

آثار الايمان والكفر

دراسة آثار الشرك في الآخرة

الايمان منشأ التقوى

الأفكار العملية ونتائج الأعمال

الدافع الأقوى للعمل الصالح

طريقة اكتساب القيم الأخلاقية

في ضوء ما ذكر نستنتج أنّ أساس القيمة في الرؤية الإسلامية هـو الإيـمان والتقوى، وتربطهما علاقة العلة والمعلول. والإيمان كـالنبع يـفيض مـن القـلب ويجري نحو الأعضاء والجوارح، ويتجلّىٰ علىٰ صورة أعمال صالحة وحسنة. إنّ جذور التقوىٰ في القلب تنشأمن الإيمان، وتتغذى منه وتبدو آثارها وثمارها في سلوك الإنسان، فيمكن القول: إنّ الإيمان هو المنشأ للقيمة الأخلاقية في الرؤية الإسلامية، ولتحصيل التقوىٰ والتخلق بالأخلاق الفاضلة لابدّ مـن المـبادرة الىٰ تحصيل الإيمان أولاً.

ومن اللازم اجراء بحث ودراسة مستقلة حول كلّ قيمة مـن القـيم الخـاصّة، والصفات والأعمال التي يرتضيها الإسلام كي تتوضّح كيفية نشوء القيمة الخاصّة، والسبيل لاكتسابها والعمل بها، ولكن قبل كلّ شيء لابدّ من دراسة أساس القيم، أعني الإيمان بصورة عامّة كي تتضح طريقة تحصيله، ومع ملاحظة تدرُّج مراتب الإيمان ـ شدّة وضعفا ـ تُعرف كيفية تقويته وتكـميله. ونـتيجةً لتأثّـر الإيـمان بالعوامل الهدامة ينبغي معرفة آفاته وكيفية مكافحتها صـيانة لسـلامته وتكـامله وتأثيراته الايجابية.

أساس القيمة هي أنّ الإنسان إذا عرف ـ وفق الموازين الصحيحة ـ انّ أمـراً

صالح أو أصلح فعليه أن ينتخبه بدل الفعل المذموم والمرجوح. بناءً علىٰ هٰذا فانّ المبدأ الأول في الأخلاق هو انتخاب الإنسان وإرادته، ويصدق الإنتخاب حينما يلاحظ جهتين أو أكثر لموضوع ما، فينتخب أحدها بوعي بعد الاختبار والمقارنة فيما بينها، وعلىٰ هٰذا فانّ الشرط الأساس للإنتخاب الصحيح هو أن يلاحظ الإنسان جهات الموضوع.

الغفلة...الآفة الأولى

نتيجةً لاتّباع الغرائز الحيوانية لا يلاحظ بعض الناس جهات الموضوع حتّىٰ يعرف الأصلح ويختاره. فالميول الغريزية تدفعهم لممارسة أعمال دون الإلتفات أبداً الىٰ وجود هدف أفضل أو طريق أصلح ممّا يجدر سلوك ذلك الطريق للوصول الىٰ ذلك الهدف، أو انّ هناك حقاً يجب الإقرار به وباطلا يجب رفضه وطريقاً صحيحاً ينبغي انتخابه وطريقا خاطئا يجب اجتنابه. لا يلتفت الغافلون الىٰ هٰذه الحقائق، بل تثير الغرائز فيهم ـ بمساعدة الظروف والأجواء الخارجيّة ـ دوافع يتحركون باتجاهها، وحياتهم هي في الواقع حياة حيوانية، ويعبّر القرآن الكريم عن هٰؤلاء بـ(الغافلين) ويعدُّهم من قبيل الانعام قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

إن الغفلة توصد طرق المعرفة التي فتحها الله للإنسان وتُعدم افادتها، لقد سخّر سبحانه للإنسان البصر والسمع والقلب لكي يستعين بها في طريق المعرفة، ولكن الغافل لا يستخدمها لتمييز الصحيح من غير الصحيح، بل يعمل مطرِقا بمقتضىٰ الغريزة العمياء وبدون ملاحظة الحق والباطل، ولذا عبّر سبحانه عنهم بـ: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾.

أساس إنسانية الإنسان

في الحقيقة تبدأ إنسانية الإنسان من نقطة خروجه من حالة الغفلة وارتقائه الىٰ مرحلة الوعي، والتفاته الىٰ أنّ له مصيراً وأنّ أمامه طرقاً مختلفة، فعليه أن يحدّد الصحيح منها ويتّبعه. بناءً علىٰ هٰذا لا يدخل الإنسان في دائرة الانسانية مالم يخرج الغفلة، بل يسلك طريق الانحطاط وهو أضلُّ من الحيوان. والقرآن يذكر الغفلة كمنشأ لانحرافات أُخرىٰ، فقد جاء في بعض الآيات:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١].

انّهم يفهمون الحياة المشتركة بين الحيوان والإنسان، ويدركون الملذّات الماديّة المحسوسة فحسب، قال تعالىٰ في موضع آخر:

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾[٢].

لا علم لهم بالآخرة التي تتجلّىٰ فيها القيم، أي إنّ القيم تؤتي ثمارها وتظهر آثارها الأبدية هناك، وليس لهم علم فحسب، بل هم في شك منها، بل هم عُمي

---

(١) الروم: ٧.

(٢) النمل / ٦٦.

فانّ الشاك لا يفقد الإلتفات مطلقاً، فقد يلاحظ الإنسان طرفَي القضية ولكـن لا تثبت لديه نسبة القضية ولا يصدّق بها ويعيش حالة الشك والتردد، وقد لا يهتمّ بالقضية أبداً كي يشك أو يعلم بها، أو يخطر بباله سؤال بشأنـها. أُولئك هـم شـرّ الدواب الذين قال تعالىٰ في حقهم ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِـنْدَ اللهِ الصُّـمُّ البُكْـمُ الذِيـنَ لا يَعْقِلُونَ﴾[١] كما قال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الذِينَ كَفَرُوا فَهُم لا يُؤمِنُونَ﴾[٢].

المرحلة الأولى للوعي

بناءً علىٰ ما ذكر تتمثّل الخطوة الأُولى نحو الإنسانية في الخروج مـن حـالة الغفلة والظلام المحض، والإنتباه الىٰ وجود حقائق أُخرىٰ الىٰ جانب الإستجابة الىٰ الميول الغريزية، ويكون الإنسان مسؤولاً تجاهها، فـلابدّ مـن الإقـرار بـها والتسليم لها والعمل بمستلزماتها، إذْ إنّ هٰذه الأمور ليست خارجة عـن نـطاق قدرته واختياره.

وفي سياق الخطوة الأُولى هٰذه تنشأ إحدىٰ مـهمات الأنـبياء تـحت عـنوان (الذِكْر) ويعني اخراج الناس من حالة الغفلة، ولذا يصف القـرآن النـبيﷺ بـأنّه (مذكِّر)، واخراج النـاس مـن الغـفلة فـي الحـقيقة أحـد أبـعاد كـونه (مـذكِّرا). فالأنبياءﷺ يصرّون علىٰ ارجاع الناس الىٰ أنفسهم، ويوقظونهم ويـبيّنون لهـم الحقائق كي يتوجهوا إليها. يذكّرونهم بوجود الله وضرورة امتثال أوامره وبوجود الحساب. أمّا الغارقون في ملذاتهم فلا يلتفتون الىٰ هٰذه الحقائق. رغم أنّها ثابتة بالفعل والفطرة، ولكن هٰؤلاء نتيجةً لاستحواذ العوامل الغريزية عليهم قد انبهروا

---

(١) الانفال: ٢٢ب (٢) الانفال: ٥٥ب

الىٰ حدّ الغفلة عن تلك العوامل. ويمكن القول إنّ المنافقين من هٰذه الزمرة، إذ إنّهم يرَون أنفسهم في اجواء الجدال والحرب والخصام بين فئتين متخاصمتين هما المؤمنون والكفار، حيث تطرح كلّ فئة منهجها المقترح، وتدّعي صحة آرائها وعقائدها ومشروعها الخاص، وتكون ذات مستوى من القوة والقدرة، أمّا المنافقون فلا يهتمون بهٰذه الاحاديث وصحتها أو سقمها ولا بمسلك الفئتين واهدافهما، بل يهمُّهم اتخاذ موقف يلبّي رغباتهم وآمالهم، ولذا يميلون الىٰ هٰذه الفئة تارة، والىٰ تلك الفئة تارة أُخرىٰ، ويفقدون منهجا مستقلا، ولا يقرّرون انتهاج مسلك لأنفسهم، لانّهم لا دافع لديهم لمعرفة الطريق الصحيح وتمييز الحق من الباطل، بل:

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾[1].

بل يعتبرون أنفسهم من جملة أية فئة يواجهونها، لكي يتمتعوا بما لديها من مقدورات وامتيازات، دون أدنى اهتمام بأن يكون الحق مع أية فئة، وأيّ طريق يكون باطلا، يميلون مع كلّ ريح تبعاً لاهوائهم، يغيّرون وجهتهم عند تغيّر اتجاه الريح دون استقامة تُذكر.

بناءً علىٰ هٰذا تكمن الخطوة الأُولى للإنسانية في الخروج من الغفلة ـ كما مرّ، وطالما لم يدخل الإنسان هٰذه المرحلة، ولم يعزم علىٰ معرفة الحق وغيره والصحيح وغيره فانّه منافق بالفعل، حيث انّه إذا دخل المجتمع ووجده متحداً ذا اتجاه واحد رفع شعار (كُن مع الجماعة)، وإذا وجده ذا اتجاهين وتيارين انقلب الىٰ منافق ذي وجهين. في تأريخ المجتمعات كان الكثير من الناس من هٰذا النمط،

---

(١) النساء / ١٤٣.

وبما أنّ النفاق ذو مستويات وشدّة وضعف فقد توجد مراتب منه ـ ولو ضعيفة ـ في بعض المؤمنين، فعندما تطرح القضايا المختلف فيها لا يعبؤون كثيراً بتمييز الحق والباطل، ويُقدمون علىٰ ما يؤمّن المصلحة في حياتهم الماديّة، ولذا تكثر التقلّبات في حياتهم، يساندون كلّ يوم أَحد اطراف الحركة ويدعمون إحدىٰ الفئات كـلّ حين. قد يكون المؤمن بصدد معرفة الحق ثمّ يخطأ، الاّ أنّ الكثير من النـاس لا يملكون دافعاً قويّاً تجاه الحق، وقد يسعَون لمعرفة الحق في مرحلة ما، ولكنهم لا يواصلون تحقيقهم في مراحل أكثر دقةً.

إذنْ علىٰ الإنسان أولاً: احياء روح البحث عن الحق في نفسه والخروج من الغفلة. وثانياً: السعي لتعزيز هٰذه الروح في مسيرة التكـامل، وعـليه أن يـعرف موضع الحق والموقف العملي وماذا يـتبنّى وعـلىٰ أسـاس أيّ مـعيار عـقلي أو نقلي ينتخب مسيره؟

لو كان المعيار لأعمال الإنسان ومساعيه هو المصالح الماديّة والملذّات العابرة فقط فانّه لا يمتاز عن الحيوان في الحقيقة. وإذا كانت فيه درجات منها فانّه يقترب من الحيوان بقدرها ويبتلى بالنفاق. والقرآن حينما يذكر بعض المنافقين يقرّ لهم بمستوى ضعيف من الايمان،فهم مؤمنون مادامـوا فـي سـعة وراحـة، وتـنقلب وجوههم عند الجهاد والانفاق فلا يقومون بواجبهم حينما يعارض أهواءهم. انّهم يؤمنون بالله ورسوله ولكن ايمانهم من الضعف والوهن إذا حضرت ساعة العمل بهٰذه التكاليف بهت لونه وتضاءل تأثيره. وعليه فانّ النفاق ذو مستويات بدءً من المستوى الشديد حتّىٰ المستوى الدقيق جدّاً والذي قد يُبتلى به كثير من المؤمنين، فلا بد من الإستعاذة بالله منها، وهٰذه حقيقة تستفاد من قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(١).

وكان بين بني الإنسان أشخاص طاهرون يستجيبون لنداء الفطرة، بصورة عامة وكان الأنبياء عليهم السلام يضطلعون بهٰذا الدور والمسؤولية في المجتمع، يخرجونهم بالتذكير من الغفلة، ويهتفون بنداء التوحيد والسير نحو الحق.

المرحلة الثانية من الوعي

بعد التفات الإنسان الىٰ احتمال وجود هٰذه الحقائق في العالم، فمن الطبيعي أن ينتابَه الشك والتردد بادىء ذي بدء ويسائل نفسه: هل هناك حقيقة وراء ما يقوله الأنبياء عليهم السلام أم لا؟

للإجابة عن هٰذا التساؤل ينبغي للإنسان أن يبحث حتّىٰ يعلم، ولكن الكثير يكتفون بالظنّ في هٰذه المرحلة، ولا يكلّفون أنفسهم حلّ هٰذه المسألة بنحو قطعي، بل يتوقفون في موقع يميل ظنهم فيه الىٰ أحد الطرفين، مع إنّ التوقف في هٰذه المرحلة غير صحيح عقلاً، ولا يمكن أن يمنح الإنسان الاطمئنان والإستقرار باتجاه كشف الحقيقة، بل كثيراً ما يُبعده عن الحقيقة ويكون سبباً لضلاله. من هنا انبرى القرآن لمقارعة اتّباع الظن، ورغّب الإنسان وشجعه لطلب العلم واليقين.

هناك آيات عديدة تتصدّىٰ لمكافحة مسلك اتّباع الظن، وتستند الىٰ ضرورة ابتناء عمل الإنسان علىٰ العلم واليقين، منها قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾(٢).

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا

---

(١) يوسف / ١٠٦.   (٢) يونس / ٣٦.

﴿يَخْرُصُونَ﴾[١].

علىٰ هٰذا ينبغي بالإنسان عند الشك والتردد أن يحوّلهما الىٰ يقين بسعيه وجهده، قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٢].

من الطبيعي أنّ الدخول في هٰذه المرحلة، وتحصيل العلم واليقين يستدعي السعي حيث لا يتيسّر للإنسان تحصيل العلم بالحقائق بسهولة، فاذا كان علىٰ شك في التوحيد والنبوة والمعاد ـ وهي اصول الإيمان ـ فانّ عليه أن يسعى ويجهد حتّىٰ يظفر بالاطمئنان واليقين.

وقد استعرض القرآن الكريم للناس سبلاً لتحصيل اليقين وأقام أدلّة علىٰ التوحيد والمعاد والنبوة، وقد قمنا ـ الىٰ حدّ ما ـ بدراستها في البحوث الماضية. فعلى من يرغب في الايمان أن يُقبل علىٰ هٰذه الأدلة أولاً، فمن البديهي أن لا يحصل الايمان الحقيقي بدون تحصيل العلم.

علاقة العلم مع الايمان

لا ملازمة عقلية بين العلم والإيمان، بل يمثّل العلم مقدمة وعلة غير تامّة للإيمان، وبدونها لا يتحقّق المعلول وهو الإيمان. من هنا يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣].

حيث أنّ الخشية من الله تكون من آثار الإيمان به، ولن يتحقّق الإيمان بدون

---

(١) الانعام / ١١٦.
(٢) الإسراء / ٣٦.
(٣) فاطر / ٢٨.

معرفته. إذنْ للعلم دور في إيجاد الخشية ولكن ليس كعلة تامّة لانّه قد يواجه موانع، بل هو مقتضٍ للخشية.

هنا يُطرح سؤال: بعد مراجعة هٰذه الأدلة وتحقّق اليقين بمتعلقات الإيمان هل يحصل الإيمان قطعاً وبلا اختبار أو يتوقف على أمر آخر؟

في الإجابة عن السؤال قلنا فيما سبق بأن العلم مقدمة وعلة غير تامّة للإيمان، ونقول هنا: لا يحصل الإيمان قهراً بعد العلم بمتعلقاته، بل يبقى في هٰذه الحالة أيضاً في دائرة اختيار الإنسان، ففي هٰذه المرحلة له خيار الإيمان وعدمه، فما سلّم به العقل من حقائق أمكن للقلب أن يسلّم به أيضاً ويلتزم به عملياً، وأن لا يسلّم به.

كان الكثير من عظماء الفلسفة يعتقدون بأن الإنسان إذا علم بشيء فانّه يؤمن ويلتزم به حتماً، وأنّ كلّ خلل في العمل يعود الىٰ الخلل في العلم. ويقولون: إذا علم الإنسان مثلاً بوجود نار في مكان والنار تحرقه فمن المحال أن يمدَّ يده نحوها وذلك لوجود العلم. وإذا تيقّن أنّ السلك الكهربائي بدون عازل وأن مسّه يؤدي الىٰ الموت فانّه لا يمدُّ يده إليه أبداً لانّه متيقن، فاذا عمل علىٰ عكس علمه فبالامكان اكتشاف الضعف في علمه، إذ لو كان معلوماً ويقينا لعمل به قطعا.

بهٰذا الشأن لابدّ من القول: إنّ الحقيقة ـ كما مرّ ـ هي أن الإنسان له الخَيار في الإلتزام العملي بالإيمان ولا يترتب قهراً علىٰ العلم، والعلم ليس شرطا كافياً وعلة تامّة للإيمان.

ولعل هناك من يسأل: كيف يمكن أن يعلم الإنسان بأمر ثمّ لا يعمل بمقتضاه؟

نقول في الإجابة: إنّ السرَّ في عدم الإلتزام بأمر معلوم لدىٰ الإنسان ولم يتعلّق

قلبه به هو تعلّق قلبه بشيء آخر. إنّ العلم والإيمان مستقلان أساساً ويوجدان في ظروف مستقلة، فالعلم يرتبط بالذهن حيث يقارن بين موضوعات القضايا ومحمولاتها ويكتشف العلاقة بينها ولا علاقة له بالقلب، ودور القلب يبدأ بعد دور الذهن وتحصيل العلم بأن يقرّر الإلتزام بالمعلوم الذهني هٰذا.

والإنسان يمكنه أن يملك هٰذا القرار حينما يمسك زمام قلبه، لأنّ بعض الناس قد تعلقت قلوبهم بشيء آخر قبل العلم. وقد أيّد الله عزّوجلّ هٰذا الأمر في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[1].

لأنّ البعض لم تسلم لهم قلوبهم بل صرفوها قبل الإيمان الىٰ أمور أُخرىٰ قد أهمّتهم قبل معرفة الحق، أمور من قبيل الملذات الحيوانية ومشتهَيات الغرائز التي تعلّق بها قلب الإنسان واشتاق إليها الىٰ حدّ لم يبقَ مجال للأمور الأُخرىٰ وكأنه لا قلب له، من هنا لا ينعقد الإيمان عنده. وعليه فانّ الإنسان ينتفع بالعلم حينما يمتلك قلباً، ووفق التعبير القرآني ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي لم تتسلّط عليه الميول الحيوانية بحيث لا تُبقي مجالاً للدوافع الأخرى. إنّنا لو أردنا الإيمان والإلتزام بما نعلم انّه حق فلابدّ أن نبتعد عن كلّ ما من شأنه أن يحول دون ايماننا القلبي، وبذلك نستعدّ لقبول ما أدركنا حقانيّته من حقائق والإلتزام بها، وسنتحدّث تفصيلا في هٰذا المجال في الفصل الآتي.

يذكر الله سبحانه من كانوا عالِمين ولكنهم لم يؤمنوا كالشيطان، فرعون وملئه،

---

(١) ق: ٣٧.

حيث قال عنهم:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[١].

إذنْ إذا سلكنا الطريقَ الصحيح لطلب العلم وأدركنا الحق وتيقنّا به جـاء دور الايمان به.

شروط الإيمان

الآن حيث نتوجه لإعداد الشروط الممهِّدة لتحصيل الإيـمان عـلينا أولاً أن نكتسب العلم الصحيح، الاّ أنّ العلم لوحده لا يكفي لتحقّق الإيمان، بل لابدّ مـع ذلك تهيّؤ أجوائنا الروحية لقول الحق، لأن أعمال الإنسان الاختيارية تنشأ من مصدرين: أحدهما المعرفة والرؤية، ثانيهما الميل والرغبة. إنّ هٰذين المصدرين من مقولتين مختلفتين.

وبناءً علىٰ ذلك علينا السعي لنيل الإيمان في مجالين:

الأول: تعميق معرفتنا، الثاني: تحفيز ميولنا الفطريّة للإيمان وممارسة الأعمال الصالحة، وهناك ـ طبعاً ـ نوع من الترتُّب بين المعرفة والميول، إذْإنّ تحفيز الميول مسبوق بنوع من المعرفة. من هنا قال الحكماء:«العلم علة الشوق» وليس المراد من مقالهم أن العلم علة تامّة لحصول الشوق، لأن الشوق من مقولة أُخـرىٰ، وله منشأ مستقل في النفس، بل المراد هو أنّ الشوق لا يحصل بدون العلم، حيث أنّ الإنسان مالم يعرف الشيء لا يشتاق اليه، فالعلم في الحقيقة متمّم لعلة الشـوق، لأنّ الإنسان قد أودِع في فطرته دافعاً باتجاه متعلَّق الشوق، وهكذا الميول التي

---

(١) النمل: ١٤.

هي بالقوة بالنسبة الىٰ الملذات الماديّة أو الأمور المعنويّة حتّىٰ بالنسبة للقاء الله تعالىٰ، غايته أن تفعيله وتحفيزه مشروط بالعلم.

للعلم إذنْ دوران:

الأول: إنّه يكشف لنا الحقيقة ويعرِّفنا الحق والباطل.

الثاني: تجد ميولنا الفطريّة مصاديق متعلقاتها بفضل العلم والمعرفة، فيساعد العلم علىٰ تفعيل الميول وتأثيراتها العملية.

كيفية اكتساب العلم

الآن وبعد اتضاح أنّ العلم شرط الإيمان، يُطرح هٰذا السؤال: ما هو السبيل لاكتساب العلم بمتعلقات الإيمان (التوحيد والنبوة والمعاد)؟

في الإجابة نقول: على الإنسان السعي لتحصيل علم يقيني وبرهاني، ويتوقف ذلك علىٰ خروج الإنسان من حالة الغفلة وعزمه علىٰ معرفة الحق والبحث عنه. في هٰذه الحالة يستطيع إجالة الفكر في مجال معرفة الحق حتّىٰ يظفر ببراهين ساطعة موجبة لليقين. بناءً علىٰ هٰذا يكون الفكر بمثابة المفتاح للعلم والبصيرة. إنّ علينا لمعرفة الحق والحقيقة بشأن الله تعالىٰ وصفاته، والنبوة والمعاد ان نفكّر حتّىٰ نصل الىٰ نتيجة قطعية باستخدام براهين يقينية، وهٰذا هو السبيل الطبيعي لتحصيل العلم.

السؤال الآخر الذي ينبغي الإجابة عنه هو: هل اهتمّ القرآن الكريم بهٰذا الموضوع؟

في الإجابة نقول: نعم، فقد نزلت آيات كثيرة، نشير الىٰ نماذج منها:

ـ في مجموعة منها يرغّب الله تعالىٰ الناس للتدبّر في التوحيد، والنبوة والمعاد كي يعرفوا الحق حتّىٰ يؤمنوا به عن هٰذا الطريق.

وقد قمنا عند دراسة آيات معرفة الله والكون بتبيين الملاحظات التي أُشير إليها في القرآن الكريم نفسه، ومنها أنّ علىٰ الإنسان الإلتفات الىٰ الآيات الإلٰهيّة الباهرة في الآفاق والأنفس، والتفكّر بشأنها كي يعرف الله ووحدانيته وصفاته العليا.

للمثال قال تعالىٰ في آية:

﴿إِنَّ فيخَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فيالْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

وقال في ذيل آية في هٰذا المجال:

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وقال في ذيل آية أُخرىٰ من آيات معرفة الله وتوحيده:

---

(١) البقرة: ١٦٤. (٢) آل عمران: ١٩٠ و ١٩١.

(٣) يونس: ٢٤.

﴿يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[١].

وفي ذيل الآية التالية التي هي الأُخرىٰ تتحدّث عن معرفة الله والتوحيد، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

هناك تركيز في أغلب الآيات المذكورة على معرفة الله والتوحيد فقط، وفي بعضها اهتمام بالمعاد أيضاً، وبصورة عامّة يرغّب جميعها الإنسان لاكتساب المعرفة الحقة، ويؤكّد علىٰ هٰذه الملاحظة، وهي أن يتدبّر الإنسان كي يكتسب معرفة يقينية ومطمئنة في مجال التوحيد وصفات الله واسمائه الحسنىٰ وهكذا المعاد.

وبعض الآيات القرآنية تؤكّد على التدبربشأن النبوة أيضاً، نشير هنا الىٰ بعض الأمثلة، من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٣].

انّ بعض التعبير في الآية وإن كان ذا معنىً عام، الاّ أنّ الهدف الأساس فيها هو ترغيب الناس للتدبّر بشأن النبوة.

وقد جاء في مقدمة الآية:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾

وليست هٰذه القضية مستقلة، إذْ لو كانت هناك قضيتان مستقلتان لم تكن الموعظة واحدة مع إنّ الوارد في الآية: ﴿أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ ولو كان (ان تقوموا لله)

---

(١) الرعد: ٢.

(٢) الرعد: ٣.

(٣) سبأ: ٤٦.

قضية واحدة و(تتفكّروا) قضية مستقلة عنها لم تكن القضيتان موعظة واحدة، فنستنتج انّ إحداهما مقدمة للعبارة الأخرى، أي الأساس هو التفكّر الوارد في عبارة: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ وعبارة: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ تبيّن مقدمة التفكّر وهي أن تفكّروا اثنين اثنين أو فرداً فرداً. وقال في الآية التالية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وهي أيضاً بشأن النبي ﷺ لكي يتفكّروا في حياته مليّاً، ويعلموا انّه الذي عاش مع الناس أربعين عاماً متكامل العقل والدراية والفكر الوقّاد، منزّهاً عن نسبة الجنون النابية التي اطلقها بعض المشركين بحقه، كما إنّ الطمع بالمال أو المكاسب الدنيويّة لم يكن دافعه لهٰذه الدعوة، لانّه لم يقصد لنفسه شيئا غير ما ينفع الناس، ولم يطالب الناس بأجر إزاء ما بذله من جهود. إذنْ إنّ عدم ايمان البعض به ﷺ هو إمّا لظنهم أنّه مجنون، في حين إنّه ذو فكر سليم تماما وبريء من أيّ جنون وسفاهة، وإمّا لإعتقادهم انّه يبحث عن مال وجاه وهو غير صحيح أيضاً، وإمّا لانّهم في شك من أن ما يقوله هو كلام الله، ولكن بالبحث والتأمّل لا يبقى مجال للشك والترديد، ولكي يحثّهم علىٰ المزيد من التفكّر والتأمّل قال بشأنهم:

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[١].

فانّ عجزتم عن الإتيان بمثله فتفكّروا هل يجب الإيمان به أم لا؟ أليس هو نبياً حقاً؟

يقول العلامة الطباطبائي (ره) في ذيل آية البحث: إنّ العبارة الأُولى في الآية: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ تذكّر بحقيقة هي أنّ التفكّر يجب أن يتمّ في

(١) البقرة: ٢٣.

أجواء هادئة بعيداً عن الضجيج السياسي والاجتماعي المحرِّف لكي يُتوصل الىٰ النتيجة المطلوبة، ويسلك النهج الفكري الصحيح، لأنّ التقلبات الاجتماعية السياسية قادرة علىٰ جرّ الإنسان الىٰ كلّ جانب وإضلاله دون أن يستند الىٰ سعيه العقلاني ويعرف الحق. في ضوء هٰذه الحقيقة تأمر الآية المذكورة مخاطبيها: أبعِدوا أنفسكم عن الأجواء الاجتماعية وبادروا بالتفكير مثنىٰ أو فرادىٰ، ونظراً الىٰ أنّ الشخصين يمكن أن يفكّرا بنحو أفضل من خلال تبادل الأفكار بينهما، ويصلا الىٰ نتيجة أفضل دون تأثّر بالأجواء الاجتماعية قدّم المثنىٰ علىٰ فرادىٰ.

وهناك آية أُخرىٰ تماثل هٰذه الآية في التذكير بهٰذه النتيجة هي:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[١].

مراد الآية هو: فكِّروا في أنفسكم في مكان خالٍ، ولا تنقادوا لإيحاءات الآخرين، فانّ ذلك ليس فكراً، لأنّ حقيقة الفكر هو مايرتبط بعقولكم وأرواحكم. إنّ الهدف من الفكر هو إدراك العلاقة بين مقدّمات البرهان وبين النتيجة التي نأخذها، وإيضاح النهج الصحيح لتمييز الحق، وأمّا الإصغاء الىٰ ما يوحي به الآخرون فليس تفكّراًبل إنّه التقليد.

وعلىٰ صعيد الترغيب في التفكير والتأمّل في النبوة قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٢].

مفاد هٰذه الآيات وأمثالها هو أنّ التفكير بشأن النبوة ومعرفة نبي الله هو ما يهتمّ به القرآن الكريم ويرغّب فيه، والاّ فلا يمكن معرفة الحق استناداً الىٰ الأجواء الاجتماعية الصاخبة والتصديق بما يصدر من أفواه الآخرين.

وهكذا توجد آيات قرآنية أُخرىٰ ترغّب الإنسان في التفكير بشأن المعاد قال

---

(١) الروم: ٨.

(٢) الأعراف: ١٨٤.

تعالىٰ في إحداها:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[١].

أجل، إن النظام الكوني حق ولا عبث ولهو ولعب في أفعال الله عز وجل، فلابدّ أن تكون له نهاية تناسب خلقه.

قال في آية أُخرىٰ: **﴿وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**.

ويستنتج في النهاية: **﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[٢].

أي انّهم يدركون بعد التفكير بأنّ هناك معاداً وعالَماً بعد الموت، ويخشونه فيقولون: قِنا عذاب النار.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ القرآن الكريم يؤكّد بصورة مستقلة علىٰ الاصول والعقائد الأُخرىٰ التي يجب إثباتها بالعقل، ويصرّ علىٰ التفكير والتأمّل بشأنها، ونصل الىٰ هٰذه النتيجة وهي أن العلم كما أوضحنا آنفاً مقدمة للإيمان، ومفتاح العلم هو التفكير الصحيح.

آثار الايمان والكفر

تنقسم هٰذه الآثار بصورة عامّة الىٰ قسمين: الأول هي الآثار التي تترتب علىٰ الايمان أو الكفر في الدنيا، والثاني الآثار التي تظهر في الآخرة.

من علم بحقيقة ثمّ لم يؤمن بها فانّ من الطبيعي أن لا تجتذبه القيم المعنويّة

---

(١) الروم: ٨. (٢) آل عمران: ١٩١.

والأُخروية، بل يرتكز اهتمامه علىٰ القيم الماديّة والدنيويّة. إنّه لا يجعل الآفاق البعيدة هدفا ومنشأ لحركته، بل يتأثّر دوماً بالنعم الدنيويّة المتيسّرة والملذّات العاجلة التي تكون في متناوله، أو بالأتعاب والآلام التي تكون من هٰذا النمط.

علىٰ هٰذا الأساس الروحي يُلفت القرآن الكريم أنظار الناس الىٰ الآثار الدنيويّة للإيمان والكفر، ويذكّرهم بحلاوة ثمرة الإيمان ومرارة آثار الكفر، إنّ الكثير من السور القرآنية يذكرنا بتأريخ الأقوام السالفة الملئ بالعبر، وقد كثر في هٰذا الكتاب السماوي استعمال عبارة:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾

ومضمون بعض السور يتمحور بصورة عامّة حول ما تعرضّت له الأقوام السالفة من ألوان العذاب بسبب كفرها والأعمال الناشئة منه، وما حظي به أهل الإيمان من بركات ودرجات في الدنيا بفضل إيمانهم والأعمال الصالحة الناتجة منه. ونظراً لكثرتها فانّ البحث بشأنها يستدعي جهداً كبيراً، ولذا نكتفي باشارة سريعة إليها. ومن الضروري أن نذكّر بهٰذه الحقيقة وهي أنّ هناك إلفات نظر في صدر القصة القرآنية عادةً أو ذيلها بأن هٰذه القصة قد حُكيت لكي تعتبروا بها، فقد جاء في سورة الأعراف بعد حكاية قصص الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم والعذاب النازل بهم:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

ليعلموا أن عاقبة كفرهم واتّباعهم فرعون كانت هي الغرق في البحر. وقدّمت سورة يوسف في نهايتها وبعد النقل الكامل لقصته عليه السلام موجزاً عن سائر الأنبياء في

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

مجموعة آيات ثمّ قالت:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١].

ويُستدلّ ـ عادةً بمثل هٰذه الآيات التي تحثّ الناس علىٰ السير في الأرض على أنّ الله تعالىٰ يولي أهمية بالتأريخ، بأن عليكم أن تتعرفوا علىٰ سنن التأريخ من خلال دراسة تأريخ الماضين واستعينوا بها في الحياة. وعندما نتأمّل في هٰذه الآيات نجد أنّها وبدون استثناء تدعو الىٰ دراسة حياة الأمم الماضية للأطّلاع على عاقبة كفرها وتكذيبها واستكبارها، وبالإمكان أن نشير الىٰ بعض النماذج من قبيل:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

ومن قبيل:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٣].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[٤].

و ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[٥].

و ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[٦].

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) آل عمران: ١٣٧.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) فاطر: ٤٤.

(٥) الروم: ٤٢.

(٦) المؤمن: ٢١.

و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١].

من خلال التأمّل في الآيات المذكورة وأمثالها نستنتج أنّ عبارة (سيروا في الارض) في الاصطلاح القرآني تعني دراسة الآثار الدنيويّة لكُفر الأقوام والأجيال السالفة وشركِها، وذلك بهدف الإيقاظ وتقوية دافع اجتناب الكفر والشرك واختيار الإيمان.

كثيراً ما يؤكّد القرآن الكريم علىٰ ترغيب الإنسان لدراسة تأريخ حياة الماضين، والإعتبار بعاقبةِ أمرهم، حتّىٰ أنّ عدداً من سوره يتحدّث كلّها أو جُلّها عن هٰذا الأمر وتحذّر الإنسان، منها سورة (الشعراء) وفيها يحكي الله تعالىٰ قصص الأنبياء عليهم السلام والأقوام الماضية وينقل تعاملهم السيّىء معهم عليه السلام ويكرّر هٰذه الآية بعد ذكر كلّ قصة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

السورة الأُخرىٰ هي سورة (المرسَلات) مع فارق أنّ بُعدها التاريخي أضعف من السورة السابقة، وقد كرّرت في مقاطع قصصها عبارة:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ومنها أيضاً سورة (القمر) حيث تكرّر في مقاطعها:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

وفي العديد من السور القرآنية التي تنقل قصصاً تؤكد على أنّ الكفار والمشركين قد تعرضوا للعذاب الإلٰهي في الدنيا عقاباً علىٰ كفرهم وشركهم.

---

(١) الانعام: ١١.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ التأمّل في آثار الكفر والشرك يُحيي ويوقظ في الإنسان دافع منازلتهما والتوجه الىٰ الإيمان بالحق كي يقوىٰ علىٰ الصمود أمام الأهواء النفسيّة والوساوس الشيطانية.

بحث في الآثار الأخروية للشرك

وقد تصدّت مجموعة أُخرىٰ من الآيات القرآنية لبيان الآثار الأُخروية المترتبة علىٰ الشرك والكفر.

إنها آيات كثيرة أيضاً وتبيّن كيفية التعامل في الآخرة مع الذين مارسوا أعمالا صالحة، وهكذا مع الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا وأنكروا القيامة. فالمؤمنون في جنات تجري من تحتها الأنهار، والكفار في **﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**[1]، ولعددها الكبير لا يمكن التطرق إليها هنا.

القرآن الكريم يرغبنا في التفكّر بشأن هٰذه الآثار ولا يكتفي بهٰذه الدعوة، بل يقوم باستعراض وتكرار قصص الماضين وأفكارهم وسيرتهم وخصوصياتهم الأخلاقية وعاقبة أعمالهم وآثارها. والسبب الرئيس لتكرار هٰذه القصص هو أن تترسّخ في أذهاننا وتلتفت إليها قلوبنا حتّىٰ لا نغفل عنها. والنتيجة هي أنّ هٰذا التفكّر يمكن أن يساعدنا علىٰ الإيمان ثمّ الدخول في صراع مع الكفر.

الايمان منشأ التقوىٰ

علمنا أنّ الإيمان يقتضي العمل الصالح ويحثّنا علىٰ القيام به. ونذكّر هنا بهٰذه الملاحظة وهي أنّ الإيمان يمكن أن يكون منشأً للتقوىٰ، فيما لو كان حيّاً وفعّالاً

---

(١) ص: ٥٦.

والاّ لاستوىٰ وجوده وعدمه، وعجز عن بعث دافع قوي فينا لممارسة الأعمال الصالحة وترك الأعمال القبيحة وستغشاها الغفلة.

فمن الضروري بقاء الوعي والإنتباه حيَّين كي يكونا مؤثّرين. إنّ الإهتمام بالشؤون الماديّة إذا تعدّى حدّه الطبيعي فسوف يُنسي الإهتمام بالمعنويات والمصالح الحقيقية والأبدية، وفي هٰذه الحالة لا يُثمر الإيمان ولا تترتب عليه الآثار والنتائج المتوخّاة. مثل هٰذا الإنسان لا يراعي المصلحة أو المفسدة في عمله، بل سوف تُمسخ هويّته ويخرج عن طور الإنسانية وسيكون ـ حسب التعبير القرآني ـ كالأنعام، كما قال تعالىٰ:

﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١).

إنّ حقيقة المسخ الإنساني هي نسيان الكمالات الإنسانية، وإن كان من الممكن أن يفكّر جيّداً بمصالحه الماديّة ومكاسبه الدنيويّة ويراعي الدقة اللازمة في سبيل ذلك، ولكنه يغفل عن مصيره النهائي وعاقبة أمره، قال تعالىٰ في حقه:

﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(٢).

إنّ نسيان الله عزّوجلّ والغفلة عن مبادئ الإيمان يستوجب نسيان الإنسان نفسه وانقلابه الىٰ حيوان.

إنّ السير في الآفاق والأنفس ودراسة تأريخ حياة الأقوام التي خلت من قبل ينتشل الإنسان من هٰذه الغفلة، ويمهّد لامتلاك الإنسان قلباً وبصراً وسمعاً، كما قال القرآن الكريم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا

---

(١) الأعراف: ١٧٩.　　(٢) الحشر: ١٩.

تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

أجل، إذا كان الإنسان تابعاً لشهواته وبتعبير عرفي ولاذع (رأسه في معلفه) ويشابهه تعبير القرآن:

﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾(٢).

أي أن يفكّر دوماً ماذا يأكل ويلبس ويشرب وأية لذة ينالها، فانّه لا يتمتع ببصر وسمع إنساني ولم يبقَ له قلب إنساني، قال القرآن في توبيخه:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

ولكي يتوفق مثل هٰذا الإنسان لجعل قلبه إنسانياً يتحتمّ خروجه من حالة الإستغراق في الملذّات والرغبات المتطرفة، والرجوع الىٰ نفسه والخلوة معها، والتدبر في حياته ومستقبله كي يهتدي الىٰ الطريق الصحيح للحياة.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ السير في الأرض الذي يتكرّر ويتأكّد عليه في القرآن ليس مجرّد سير جسمي وتحرّك بالسيارة والطائرة، بل إنّ ما أراده القرآن من الإنسان هو الحركة المقرونة بالتدبر والاتّعاظ بوقائع الأرض كي يسترجع قلبه الضائع وينال سمعاً إنسانياً مسلّماً للحقائق، ويصقل قلبه الصدىء المظلم والفاقد للعين البصيرة. قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٤).

من هنا يحذّرنا القرآن دوماً حتّىٰ نؤوب الىٰ أنفسنا، وبدلاً من الإستغراق في

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) محمد: ٢.

(٣) الحجر: ٣.

(٤) الحج: ٤٦.

الحوادث والأشخاص والأشياء الأُخرىٰ علينا أن نفكّر ولو قليلاً بأنفسنا (عليكم أنفسكم) ولابدّ من أن يكون لنا فكر صائب ومعتبر تجاه الأمور الأخرى، بحيث يكون الفكران (الأنفسي والآفاقي) كجناحين قويّين يحلّقان بنا الىٰ القمم الشاهقة في الفكر المتألق والعرفاني، ويهبطان بنا علىٰ ذروة الاغصان في شجرة التوحيد العظيمة الباسقة في عنان السماء، ويحرّرانا من الحيوانية ويضعانا علىٰ طريق الإنسانية.

الأفكار العملية وحصيلة الأعمال

الآن وبعد ان تأمّلنا في متعلقات الإيمان وآثار الكفر وآمنّا في النهاية، يطرح هٰذا السؤال: بأيّ شيء ينبغي أن نفكّر عند العمل؟

للإجابة نقول: إنّ إحدىٰ مراحل الفكر العملي هي التأمّل لتمييز العمل (الصالح) من (السيّئ) كي ندرك بالعقل في المجالات التي يدركها أو بالشرع في المجالات التي لا يدركها العقل، أيّ عمل يجب علينا القيام به وأيّ عمل نتركه؟ هٰذا ومن الضروري التأمّل في عاقبة القيام بالأعمال الصالحة والسيئة وتركها ـ كما كان ذلك ضرورياً في آثار الإيمان والكفر ـ وندرس بدقةٍ الآثار الدنيويّة والأُخروية للأعمال الصالحة والسيئة.

يقدِّم القرآن الكريم للإنسان ـ كمثال ـ معلوماتٍ عن بعض الآثار الدنيويّة للأعمال، ولا تنحصر ـ طبعا ـ آثار أعمال الإنسان فيها، بل إنّ ظهورها لطف الٰهي يستدعي حذره وتيقّظه وتنبّهه لكي يُنقذ نفسه من عواقب هي أفدح ضرراً، ويقرِّبها من عواقب أطيب وأرحب كما قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٢].

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

حيث ذكر فيها الآثار الايجابية للأعمال الصالحة أيضاً، وهكذا الآثار المذمومة للأعمال السيئة، وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الْأَرْضِ﴾[٤].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

ما جاء في الآيات المذكورة هو الآثار المرّة والطيبة لسلوكنا وأعمالنا القبيحة والجميلة والتي تتجلّىٰ في هٰذا العالم، كما تنكشف للإنسان بعض الآثار لأعماله وسلوكه في عالم الآخرة، حيث تصدّت آيات وروايات جمة لتبيانها، إنّها تقول لنا: إنّ الأعمال الصالحة توصلنا الىٰ السعادة الأُخروية وتدخلنا الجنة، وفي المقابل تكون الأعمال السيئة سبباً لشقاء الإنسان ودخوله جهنم.

---

(١) الروم: ٤١.
(٢) الشورى: ٣٠.
(٣) الأعراف: ٩٦.
(٤) النور: ٥٥.
(٥) الأعراف: ١٢٨.

هنا ينبغي أن نتدبر في المقارنة بين النعم والنقم الدنيويّة والاُخروية، ونقيس الملذّات والآلام الماديّة والمعنويّة، وندرك شدّتها وضعفها وكمالها ونقصها، فيكون لها أبلغ الأثر علىٰ حياتنا العملية وتنزُّه سلوكنا ـ الىٰ حدّ كبير ـ من القبائح والتلوث.

الدافع الأقوىٰ للعمل الصالح

ثمة مجالات اُخرىٰ للتدبر، فعلىٰ الذين يبغون الرقيَّ إجالة الفكر فيها. وعلىٰ ذوي المعرفة الأكمل والروح الألطف أن يفكّروا بحضور الله ويوجّهوا أفكارهم نحو هٰذه الحقيقة، وهي أنّه تعالىٰ رقيب وعالم بجميع أعمالنا، كما قال تعالىٰ:

﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

كما إنّ علينا التدبر في نعم الله العظيمة والتي لا يمكن حصرها لكي يزرع حبّ الله في قلوبنا وينمّيه.

إنّ محبّة الله وأوليائه هي الدافع الأقوىٰ الذي يمنح الإنسان الصمود والثبات حتّىٰ يتغلب ويتسلّط علىٰ جميع المعاصي والقضايا الجذابة المحرِّفة. إنّ السبيل الوحيد لنيل هٰذه المحبّة هو التدبر في النعم والألطاف والرعاية التي شملت الإنسان. لقد ورد في حديث قدسيّ أنّ الله سبحانه قال للنبيّ موسىٰ:

«يا موسىٰ حبِّبني الىٰ خلقي».

فسأل موسىٰ: كيف؟ قال تعالىٰ ذكّرهم بنِعَمي وأَلِفت أنظارهمْ نحوها.

---

(١) آل عمران: ١٥٣.

من الأمور الفطريّة في الإنسان هي أنّه يحبّ من يحسن اليه، إنّه عبد الإحسان، والإحسان يوقظ فطرة الإنسان ويُحيي محبّة الله التي جُبل عليها. لا ينسىٰ الإنسان أبداً من ينقذه عند البلاء والمشكلات ويعتبر نفسه مَديناً له دوماً، ولكن رغم وجود هٰذا الحجم من المخلوقات الصغيرة والكبيرة التي تملأ حياة الإنسان وبيئته، والنعم التي لا يمكن مقارنتها ـ كمّاً وكيفاً ـ بما يقدّمه الإنسان من معونات وهدايا قد سخرها الله تعالىٰ للإنسان لماذا ينسى الإنسان الله عزّوجلّ ولا يتوجه بنحو يليق بالله الرحيم وليّ نعمته الأول؟

في الإجابة ينبغي القول: إنّ هٰذا النسيان وعدم التوجه يترتّبان كنتيجة للغفلة عن نعم الله الكبرىٰ، فلو تدبرنا بشأن هٰذه النعم الكثيرة، وأدركنا عمقها وعظمتها ودورها الأساس فانّ محبّة الله المالك الاصلي لها سوف تجد حياتها في قلوبنا، وينبعث فينا دافع الشكر لله وإطاعته، وفي هٰذه الحالة سوف يتمّ حل الكثير من مشكلات حياة الإنسان الفردية والاجتماعية.

* * *

القسم الأول



الأسباب العامّة للإنحطاط الأخلاقي

أ - هوى النفس

القرآن وهوى النفس

توضيح هوى النفس

النفس والعقل

هوى النفس يمنع الايمان

الجهاد مع أهواء النفس

ب - الدنيا

العلاقة بين الدنيا والآخرة

الدنيا المذمومة

القرآن وذمّ الدنيا

ج - الشيطان

عمل الشيطان

الشيطان وهوى النفس

الأسباب العامّة للإنحطاط الأخلاقى

قلنا انّ ثمة عاملَين لهما دور أساس في اكتساب القيم الأخلاقية:

أ ـ الإحاطة العلمية والمعرفية بما يجب الإيمان به.

ب ـ دعم الرغبة نحو الأمور التي يجب الإيمان بها.

كما أشرنا الىٰ هٰذه الحقيقة، وهي أنّنا ـ بعد العلم والمعرفة بالحقائق التي يجب علينا الإيمان بها ـ نشعر ببعض الميول المعارضة التي تحول أحياناً وفي بعض الموارد دون ايمان الإنسان بها. من هنا يجب علينا السعي الجادُّ لمعرفة هٰذه الميولٰ المعارضة وإضعافها، ودعم الميول المناسبة والايجابية لكي نوفّق في تطبيع نفوسنا مع القيم الأخلاقية.

وبما أنّ بحثنا الفعلي عامٌّ ولا نعزم علىٰ البحث حول القيم الخاصّة وأضدادها، نقوم بطرح اجمالي لموانع الإيمان المستفادة من القرآن الكريم تحت عناوين عامّة، ونشير الىٰ الآيات ذات العلاقة بكلّ مورد.

يمكن القول: إنّ موانع الإيمان وأسباب الانحطاط قد ذكرت في القرآن بصورة عامّة تحت ثلاثة عناوين عامّة ورئيسة ومترابطة هي:

١ ـ هوىٰ النفس

٢ ـ الدنيا

٣ ـ الشيطان

ومن الافضل أن نقول: إنّ علماء الأخلاق قد لخّصوا موانع تكامل الإنسان وأسباب الانحطاط ـ في ضوء الآيات القرآنية ـ في الأسباب الثلاثة المذكورة. والآن نباشر بالبحث والتحليل لهٰذه الأسباب وترابطها واستقلالها وعدم استقلالها فيما بينها.

أ ـ هوىٰ النفس

يمكن بصورة عامّة دراسة الأسباب التي تضعّف الإيمان أو تسلبه أو تحول دون تحققه من الأساس تحت عنوان عامّ هو (هوىٰ النفس). إنّ هوىٰ النفس يجتذب قلب الإنسان ولا يُبقي له قلبا سليماًلكي يكون موضعاً لنفوذ الإيمان.

يطرح هنا هٰذا السؤال: ماذا يعني هوىٰ النفس؟

في الإجابة نقول: هناك نحو من الإبهام في عنوان هوىٰ النفس، والتعابير المستعملة في هٰذا المجال تسبّب الوقوع في الخطأ لدىٰ الكثير.

ولتوضيح السؤال من الافضل أن نقسّمه قسمين، ونجيب عليهما مستقلا:

ـ ما هي النفس أولاً؟

ـ وما هو هوىٰ النفس ثانياً؟

وقبل توضيحهما من الافضل أن نشير الىٰ الآيات القرآنية التي نزلت في هوىٰ النفس وندرس ـ الىٰ حدّ ـ تطبيقاتها القرآنية ومصاديقها.

القرآن وهوىٰ النفس

قال تعالىٰ عن بلعم بن باعورا:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[١].

لقد كان ذا علم ولكنه ـ على العكس ـ اتّبع هواه بدليل قوله تعالىٰ عنه في الآية السابقة:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[٢].

كان السبب في انحرافه هو اتّباعه هواه وعدم العمل بمقتضىٰ علمه.

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٣].

وقد جاء في آية أُخرىٰ:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[٤].

وفي آيتين قال تعالىٰ بأنّ أُناساً اتّخذوا من هوىٰ النفس إلٰهاً لهم، فقال في إحداهما:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٥].

وفي الثانية:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٦].

---

(١) الأعراف: ١٧٦.
(٢) الأعراف: ١٧٥.
(٣) الكهف: ٢٨.
(٤) طه: ١٦.
(٥) الفرقان: ٤٣.
(٦) الجاثية: ٢٣.

وفي بعض الآيات اعتبر اتّباع الهوىٰ معارضاً للأهتداء الىٰ سبيل الله، قال تعالىٰ:

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[١].

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾[٢].

وقال في آية أُخرىٰ عن بعض المنافقين:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[٣].

حسب مضمون هٰذه الآية هناك تلازم بين اتّباع أهواء النفس والطبع علىٰ القلب.

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٤].

تذكّر هٰذه الآية بأنّ ثمّة لون من التعارض بين اتّباع هوىٰ النفس وتلقّي الهداية الإلٰهيّة. وتذكر آية أُخرىٰ إنّ شدّة التعارض بين هوىٰ النفس والهداية التي يعرضها الأنبياء عليهم السلام يبلغ حدّ التكذيب بهم وقتلهم وتقول:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٥].

وقال تعالىٰ في آيتين أُخريَين:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ

---

(١) ص: ٢٦.
(٢) القصص: ٥٠.
(٣) محمد: ١٦.
(٤) النجم: ٢٣.
(٥) المائدة: ٧٠.

مُسْتَقِرٌّ﴾[١].

وقال في آيتين أُخريَين:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[٢].

في هاتين الآيتين لوحظت العلاقة بين خوف الله والنهي عن الهوىٰ والإستقرار في الجنة، وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[٣].

إضافةً الىٰ ما سبق هناك آيات استعملت لفظ الشهوات بدلاً عن الهوىٰ، فقد قال تعالىٰ في آية:

﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾[٤].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[٥].

توضيح هوىٰ النفس

بعد نضد هٰذه الآيات نقول في توضيح الإجابة عن السؤالين:

هناك تأكيد شديد في الكتب الأخلاقية على ضرورة أن يكون الإنسان تابعاً للعقل ويجاهد هوىٰ نفسه، وقلب الإنسان ـ في الحقيقة ـ ميدان للصراع بين النفس

---

(١) القمر: ٢ و ٣.

(٢) النازعات: ٤٠ و ٤١.

(٣) المؤمنون: ٧١.

(٤) النساء: ٢٧.

(٥) مريم: ٥٩.

والعقل، ويوصف اتّباع النفس بمفهوم قيميّ سلبي. ومفهوم هوىٰ النفس واضح، ولكن بما أنّ النفس لها مفاهيم مختلفة، وتكون أحياناً منشأً للخطأ والخلط بين الاصطلاحات يلزم أن نوضّح هٰذه الاصطلاحات والمفاهيم والاختلاف بينها.

يقول القرآن الكريم في موضع:

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[١].

ويقول في موضع آخر:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[٢].

ويتحدّث في آية أُخرىٰ عن النفس اللوّامة:

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٣].

وأخيراً يتحدّث في آية أُخرىٰ عن النفس الأمّارة:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٤].

وقد استعملت النفس في الاصطلاح الفلسفي بمعنىٰ الروح، وعلىٰ هٰذا فانّ للنفس استعمالاتٍ متنوعةً قرآنية وفلسفية تورث الخطأ في الفهم.

ما هي هٰذه النفس التي هي مصدر الفساد والشر وينبغي عدم الخضوع لما تريد، وما هو الفرق بينها وبين النفس المطمئنة التي يتوجه إليها خطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾؟

قال بعض الأعاظم بهٰذا الشأن: هناك نفسان: نفس طبيعية وأُخرىٰ إنسانية أو إلٰهية، واعتقد بعض آخر أنّ النفس ذات مراتب متعدّدة، واستعمل آخرون تعابير أُخرىٰ بما يتناسب مع هٰذا الموضوع، وهٰذه الآراء المختلفة تحكي عن الإبهام الموجود في هٰذه الكلمة.

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) الفجر: ٢٧ و ٢٨.

(٣) القيامة: ٢.

(٤) يوسف: ٥٣.

في رأينا أنّ المستفاد من موارد استعمال هٰذه الكلمة في القرآن هو أنّ كـلمة (النفس) لم يقصد منها في القرآن غير المعنىٰ اللغوي لها، وهو «الشخص» أو «أنا» باستثناء الموارد التي استعملت للتأكيد من قبيل «جاء زيد نفسه» مـع فـارق أنّ هناك خصوصياتٍ تضاف إليها حسب اختلاف الموارد، فتصير النفس بلحاظ تلك الخصوصية ذات قيمة إيجابيّة أو سلبية.

وقد قال بعض: النفس بمعنىٰ الروح، ولكن في رأينا لا يمكن حتّىٰ القول بأنّ النفس تعني الروح لأن كلمة «النفس» قد نسبت الىٰ الله عزّوجلّ أيضاً، كما جاء في القرآن الكريم حيث قال تعالىٰ حكاية عن قول النبي عيسىٰ ﷺ مخاطبا الله تعالىٰ:

﴿تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ﴾[1].

ففي هٰذه الآية أُسند (نفس) إلىٰ الله سبحانه في حين أن الله ليس له روح كما لا جسم له، وأمّا الروح المسند إليه في قوله «روحي» فهو مخلوق له مـضاف إليـه إضافة تشريف.

وعلىٰ أيّ حال فانّ ال(نفس) حسب خصوصيات التطبيق والمـورد تكـون (سيئة) تارة و(حسنة) تارة أُخرىٰ، ولكن ليس لها أكثر مـن مـعنىٰ فـي اللـغة، وبلحاظ أنّ المفهوم الإستعمالي للـ(نفس) ليس شيئا غير معناه اللغوي ينبغي القول : إنّ السبب في وصف النفس بـ(الحسنة) و(السيئة) في موارد مختلفة هو أنّ الله تعالىٰ قد أودع فيها نوعين من الميول: ميل نحو الخير والصلاح وميل نحو الشر والسوء، وليس المراد أنّ الخير والشر موجودان في نفوسنا، بل إنّ المصاديق التي

(١) المائدة: ١١٦.

يصدق فيها عنوانا الخير والشر لها جذور وعروق في نفوسنا بالفعل، بمعنىٰ انّ في فطرتنا ميولاً نحو أمور ينطبق عليها عنوان الخير، وميولاً نحو أمور اُخرىٰ ينطبق عليها عنوان الشر، وليس في النفس ميل الىٰ (الخير بما هو خير) وميل الىٰ (الشر بما هو شر). إذنْ تتلوّن الميول المودعة في الإنسان حسب المصاديق الأخلاقية الخارجيّة، و(نفس) الإنسان تتلوّن بتلوّن هٰذه (الميول)، وبلحاظ مجموعة من هٰذه الميول يطلق عليها (نفس أمّارة بالسوء).

سؤال: من الذي يحثّنا علىٰ اتّباع ميولنا وغرائزنا وشهواتنا؟

الجواب: إن هٰذه الميول الغريزية متجذّرة في وجودنا، قد عُجنت مع فطرتنا وتدفعنا لإشباعها، وذلك ممكن عن طريق جائز ومشروع أو غير جائز وغير مشروع، لأنّ الميل الغريزى أعمىٰ لا يميّز بين الحسن والسيئ، بل إنّه يبغي إشباعه فحسب، وفي الموارد التي تشبع النفس غرائزها عن طريق معاكس وغير مشروع هي الأمّارة بالسوء.

إضافةً الىٰ الميول المذكورة في النفس هناك ميل للكمال والسعادة تدفع الإنسان للتحرك بهدف الوصول الىٰ الكمال.

لعلّ معنىٰ كلام الله في القرآن:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1].

هو ما قلناه آنفاً وهو انّ في نفوسنا مجموعةً من الميول التي تجرّنا نحو التقوىٰ أو الفجور، ولكن مصاديق (التقوىٰ) و(الفجور) نعرفها بهَدي من العقل أو الوحي، وحيث إنّ كليهما من صنع الله تعالىٰ صحّ أن يقال إنّ ما يُعرف بهما من التقوىٰ

(١) الشمس: ٨.

والفجور قد ألهمه الله سبحانه إيّانا.

أجل، إنّ جميع هٰذه الميول أعمّ من الماديّة والمعنويّة توجد في فطرة الإنسان، بفارق هو أنّ الميول الماديّة تكون فعلية عادةً وتنشط تلقائيا: كالميل الىٰ الأكل والنوم والغريزة الجنسية و...في حين تكون الميول الأُخرىٰ بالقوة في الإنسان وتتفعّل في ظروف خاصّة، وتتطلب تربية وارشاداً خاصّاً. وفي موارد استثنائية يمكن أن تكون هٰذه الميول فعلية بالفطرة لدىٰ بعض الناس، وفي عقيدتنا إنّ هٰذه الميول هي فعلية لدىٰ المعصومين عليهم السلام منذ ولادتهم، علىٰ عكس الأشخاص الإعتياديين فانّهم ليسوا كذلك حيث لم تجد هٰذه الميول فعليّتها من البداية فتكون (النفس) الإنسانية في هٰذه الحالة أمّارة بالسوء، ولكن مع يقظة هٰذه الميول تكون النفس ذاتها هي التي (تلوم) الإنسان علىٰ أفعاله القبيحة كما قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[1].

وعندما نلبّي رغباتنا المعنويّة ونسلّم لطريق الحق فانّ تلك (النفس) ذاتها تصل الىٰ الكمال والطمأنينة وتخاطب بـ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾.

وعلىٰ هٰذا فانّ النفس ذات حقيقة واحدة لكنها ذات مراحل مختلفة، لا أنها ذات حقائق مختلفة إحداها (النفس الأمارة) والأُخرىٰ (النفس اللوامة) والثالثة (النفس المطمئنة). هناك وجود واحد، أي إنّ وجود الإنسان هو الذي يطلق عليه هٰذه العناوين حسب الظروف المختلفة التي تطرأ عليه، ويقوم بنشاطات متنوعة ويكتسب منافع متكثرة. من هنا قال النبي يوسف عليه السلام رغم أنّه طوىٰ مراحل سامية من الكمال واعتبره الله سبحانه من عباده المخلصين:

---

(١) القيامة: ٢.

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

بناءً علىٰ ذلك فليس الواقع أن لا يكون وجود للنفس الأمارة في الإنسان في إحدىٰ المراحل. فالنفس موجودة دوماً وتأمر الإنسان أحياناً بالنسوء وإن كان نبياً كيوسف ﷺ، كما حكىٰ الله سبحانه عنه قوله:

﴿وَمَا أُبَرِّءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

إذنْ ليست النفس قوة خاصّةً يمتلكها البعض، بل يتمتع بها جميع الناس حتّىٰ نهاية العمر. فما دام الإنسان موجوداً فانّ له ميولاً وغرائز، وما دامت الميول الغريزية موجودة فانّ هناك نفسا أمّارة بالسوء أيضاً، لا أنّها تأمره بالسوء صراحة من جهة أنّه سوء، بل إنّ النفس ذات رغبات يكون متعلقها مصاديق للسوء أحياناً. فمثلاً: النفس التي تدفعنا لتناول الطعام هي التي تُحيي فينا الميل نحو الطعام. هٰذا الميل الغريزي ليس سيّئا وينبغي إشباعه، الاّ أنّه يشبع تارة عن طريق صحيح وتارة عن طريق خاطىء، وعندما يشبع عن طريق خاطىء يقال: إنّ النفس قد أمرت بالسوء.

النفس والعقل

النفس بميولها المختلفة ـ كما أسلفنا ـ هي الموضوع للأخلاق والمخاطبة في التعاليم الأخلاقية.

من الضروري وجود هٰذه الميول المختلفة في النفس، لأنّ الكمال الانساني في الأساس ممكن بوجودها فقط.. فمن كان زمامه بيد النفس الأمارة فانّ غرائزه هي التي تقوده، ويتّبعها ببصر وسمع موصدَين من دون التفات الىٰ ما وراء الرغبات

الغريزية، مثل هٰذا الإنسان يبقىٰ في مستوى النفس الأمارة أبداً، كما قال تعالىٰ:
﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[١].

إنّه لا يبغي شيئا آخر وراء الرغبات الغريزية، مثل هٰذاالإنسان لا يستفيد حتّىٰ من علم التوحيد أيضاً، ويكون متشبّثاً بالأرض ولا يفارق عالم المادة والمحسوسات واللذائذ الماديّة، فهو لا يهتدي أبداً حتّىٰ يخرج من هٰذه الحالة والمرحلة فيقرّ بوجود الحدود ويعزم على أن يراعيها. وبعد المعرفة يتقبّل الحق وينكر الباطل ويعزم علىٰ السير في الطريق الصحيح ولا يكون أسيرا طِلقاً للميول والغرائز. يمنع النفس حينما تأمره بالسوء ويمارس الجهاد الأكبر مع نفسه، أي يعرف موازين الحق والباطل والقيم الصحيحة ويلتزم بها، ويتغلّب على نفسه حينما تأمره علىٰ عكس ذلك، أو تميل وتنجذب الىٰ ما لا ينبغي. لكن الكثير من الناس ليسوا كذلك حيث لا يتوفقون في ساحة الجهاد مع النفس وقد ذمهم الله تعالىٰ، حيث قال عن بني اسرائيل لضعفهم في هٰذا الأمر:
﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾[٢].

إذا جاء النبي بما تهواه أنفسكم لا تعارضونه وتعتبرونه نبياً جيّداً، ولكن إذا أراد منكم ما لا ترغبون فيه تخالفونه وتستكبرون عن إطاعته. فمنشأ انحرافات الإنسان كلها و الذي يمنعه عن طاعته وعبوديته لله هو هوىٰ النفس. والاّ فانّ طاعة الأنبياء عليهم السلام في ما يتناغم مع ميول الإنسان ورغباته ليست ذات أهمية، بل المهمّ هو الإنتخاب الصحيح في موارد التعارض، فعليه أن ينتخب الطريق الصحيح في المواضع التي تجتذبه الىٰ الجهة المعاكسة، ويدعم الميول الصحيحة

---

(١) الأعراف: ١٧٦. (٢) البقرة: ٨٧.

ويرجّجها بإرادته، ويكبح جماح نفسه كي يتوفق لابراز قيمته عن هٰذا الطـريق. وبناءً علىٰ هٰذا فانّ أهواء النفس وإن تعدّدت وتنوّعت ولكلّ واحد منها دور في صفة من صفات الإنسان الاّ أنه يمكن القول: إنّ الطريق لكسب القيم هو أن نتعرّف علىٰ أهواء النفس أولاً، ثمّ نباشر بمصارعتها.

الآن وبعد هٰذه التوضيحات يـمكن القـول: إنّـنا إذا اتّـبعنا المـيول الغـريزية والجواذب العمياء التي لا تبغي سوى اشباعها دون تدبر في عواقب ذلك، وكان هدفنا هو الإلتذاذ الآني كان ذلك هوىٰ النفس، ولكـن إذا تـدبرنا وتأمـلنا فـي تأثيراتها علىٰ ارواحنا ومصيرنا وارتباطنا بالله تعالىٰ، ثمّ عزمنا ـ وإن كان العزم النهائي هو ما تهواه الغريزة ـ فانّ العمل بهٰذا العزم ليس اتّباعا للنفس وهواها، إذْ إنّ دافعنا في هٰذه الحالة ليس الغريزة فقط، لانّنا قد قمنا بالمحاسبة واخترنا طريقنا بعد التأمّل في النتيجة ومستقبل الأمر، فلو كانت هناك نتائج سيئة تترتّب عليها لم نقم بذلك العمل. فنحن الآن وإن قمنا ـ في الحقيقة ـ بذلك الفعل الغريزي ولكـن يكون له قيمة أخلاقية، ويرجع ذلك الىٰ الدافع في ذلك العمل وهو ـ كما أسلفنا ـ روح القيمة الأخلاقية (النية).

وباختصار: إنّ الملاك في هوىٰ النفس هو اشباع الغريزة العمياء التي لا تعرف حدوداً، والنقطة التي تقابلها هي الإستجابة لنداء العقل وإنْ كان المـورد إشـباع الغريزة.

ما هو العقل؟

المراد بالعقل ههنا هو قوة المحاسبة التي تقيس مدىٰ تأثير هٰذا العمل المبحوث عنه علىٰ مستقبلنا ومصيرنا وآخرتنا، بينما لا تقوم الغريزة بمحاسبة، بل هي قوة جاذبة مبهمة كالجذب والإنجذاب المغناطيسي، وتجرّ الإنسان الىٰ جهة دون النظر

الىٰ عواقب العمل ومستقبله، والعقل يقوم بوعي بالمحاسبة والتقييم لهٰذا العمل: الىٰ أين يوصلنا؟ وما هو تأثيره علىٰ مستقبلنا؟ ويتخذ قراراً بما يناسب هٰذا الوعي والمحاسبة والتقييم، ثمّ يُقدم علىٰ عمل تعقبه نتيجة طيبة.

إذنْ ما قيل من أنّ العقل والنفس متصارعان واعتبرا متقابلين هو من أجل تقريب البحث الىٰ الذهن بصورة أكبر وتيسير استيعابه، والاّ فانّهما ليسا في عَرض واحد، لأنّ النفس ذات مجموعة من الرغبات والميول بينما العقل ينير الدرب. وأخيراً فانّ القوة التي تتخذ القرار هي إحدىٰ مراتب النفس وتنبعث من جوهر النفس وتكون الحاكم بين العقل والميول. فإمّا ترجّح مقتضىٰ القوىٰ الغريزية، أو تنتخب ما يؤدي الىٰ السعادة الأبدية بإرشاد من العقل.

إنّ فعل العقل ليس من سنخ الجذب أساساً، بل إنّه يرشد الىٰ الطريق ولا يخاصم أحدا، إنّه مصباح يضيىء وينير الدرب. وحينما يقولون: العقل يصارع النفس فانّ المقصود في الحقيقة هو أنّ إحدىٰ مراتب النفس تدخل في صراع مع الميول والغرائز العمياء بدافع من طلب الكمال. وبعبارة أُخرىٰ: توجد في النفس جواذب أُخرىٰ. والذي يُعرض كخصم ليس هو العقل المدرك، بل هو مجموعة من الجواذب التي تتحرك وفق اضاءة العقل وتقييمه وتصديقه. والاّ فانّ العقل ليس شيئاً فيه الدفع والسوق والتحريك.

إذنْ يكون الصراع بين مقتضيات قوّتين ومرتبتين من النفس، أيّ الميول التي تتزاحم فيما بينها. والحاكم بينها هو جوهر النفس الذي يُصدر القرار.

قلنا في تبيين نظريتنا في فلسفة الأخلاق إنّ الارادة تعني تجلّي جوهر النفس، وتنبع من ذات النفس، وبها ننتخب أحد الميول ونقرّر مصيرنا.

بناءً علىٰ هٰذا، لكي نؤمن بما نعلم به لابدّ من تحرير أنفسنا من قيود هوىٰ النفس، أي نتخذ موقفاً علىٰ أساس من الرؤية الصحيحة وملاحظة المستقبل

والمقارنة والتقييم وانتخاب الطريق الافضل.

هوىٰ النفس يمنع الإيمان

ذكرنا أنّه بعد توفّر المعرفة من الممكن أن تحول الميول النفسيّة المنحرفة دون ايماننا، ولوجود هٰذه الآفات النفسيّة لا نذعن ولا نلتزم عملياً رغم معرفتنا.

ولعلّ هٰذا السؤال يُثار لدىٰ بعض الناس: كيف يمكن أن يدرك إنسان أمراً ما، ثمّ لا يرتب عليه أثرا ولا يخضع لِلازمه؟

في الجواب نقول: إنّه من الواقعيات التي يمكن ملاحظتها بسهولة في حركات الإنسان وسلوكه، فمثلاً: كثيراً ما يتفق أن يعلم الإنسان في مناظرة أو حوار مع صديق بأنّ الحق معه، ورغم ذلك يحس بوجود دافع لردّه، كما أنّ أُناساً كانوا يعلمون ـ في مستوى أعلىٰ ـ أنّ الأنبياء والائمة عليهم السلام صادقون ولكن حبّ المقام، والكِبر، والعصبية والأهواء النفسيّة الأُخرىٰ كانت تمنعهم من التصديق بأقوالهم الحقة واتّباع الحق.

إنّه أمر واقعي مسلّم به، وهو أن يعيش الإنسان صراعاً مع دوافعه الباطنية وأمراضه النفسيّة ووساوسه الشيطانية، ومن الممكن أن تمنعه أحياناً من التفاعل والإلتزام بالحقائق التي يعرفها، وبما أنّ الإنسان بصير بنفسه فانّه أعرف من غيره بأمراضه، لانّه يرىٰ جهاراً إنّه قد فهم القضية وتوضّح في ذهنه وجود نسبة بين الموضوع والمحمول، ولكن قلبه لا يميل للإذعان بها، يقول القرآن الكريم في حقه:

﴿الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أو ﴿الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾.

والزيغ هو الانحراف عن حالة الاعتدال والسلامة.

الصراع مع هوى النفس

في ضوء القضايا المذكورة هل يصحّ الأخذ بهٰذه النتيجة، وهي أنّ الإيمان إنّما يتيسّر لمن له قلب سليم عن الآفات، أمّا الذين تلوّثوا بالأهواء والأمراض النفسيّة فلا يمكن أن ينفذ الإيمان في قلوبهم؟

للإجابة عن السؤال يجب القول: يمكن فسح المجال لنفوذ الإيمان في القلوب التي تعيش صراعا مع مثل هٰذه الأمراض والموانع، وذلك عن طريق مكافحة الأمراض النفسيّة ورفع الموانع.

ولكن يطرح هنا سؤال آخر: كيف يمكن مكافحة هٰذه الأمراض ورفع هٰذه الموانع؟

من الممكن أن يستخف بعضٌ بمثل هٰذه الأمراض ويكتفي ـ وفق نظرة ساذجة ـ بالايصاء لمقاومتها. ولكن رأينا في هٰذا المجال هو أنّ هٰذا الايصاء غير نافع، ولا يمكن أن يكون وصفة ناجعة ومؤثرة للمصاب الذي وقع في فخّ الدوافع ومخالب أهواء النفس القوية، فيلزم لمعالجة هٰذا المرض إيجاد عامل تكويني مؤثر وقويّ في نفس الإنسان لكي يفلح للصمود أمامه. من الواجب خلق دوافع رحمانية بوجه الدوافع الشيطانية وذلك عن طريق الفكر الصحيح، أو بتعبير أدقّ: لابدّ من إيقاظ تلك الدوافع وتوعيتها وتفعيلها، لأن الدوافع بصورة عامّة ـ شيطانية كانت أو رحمانية ـ من الأمور الفطريّة للإنسان قد أُودعت في طبيعته، مع هٰذا الفارق وهو أنّ عدداً منها يتفتّح ويتفعّل بنفسه وبمعونة من الظروف الخارجيّة، وقد يصول ويجول لوحده في النهاية في ساحة النفس الإنسانية، والآن حيث نريد كبح جماحها ونردّها الىٰ موضعها الأول لكي لا تتعدّي حدودها لابدّ من إيجاد

قوة أُخرىٰ ودعم دافع آخر الىٰ المستوى الذي يمكنه التغلب عليها. لقد جاء في المناجاة الشعبانية:

(إلٰهي لم يكن لي حول فانتقل به عن معصيتك الا في وقت ايقظتني لمحبّتك).

إذنْ حينما تتغلب الأهواء النفسيّة وتجرّني الىٰ المعصية يكون العامل الفريد لمنعي من ذلك هو محبّة الله سبحانه التي يجب احياؤها في قلب الإنسان.

بناءً علىٰ هٰذا يتمثّل طريق الجهاد مع أهواء النفس في وجود جواذب أُخرىٰ تواجهها، ثمّ دعمها والتغلب علىٰ تلك الأهواء، والاّ فما دامت هٰذه الأهواء هي الفارس الوحيد في مضمار نفوسنا فلا يمكن فعل شيء، بل سنُغلب ولا يتأتّىٰ لنا الصمود تجاهها.

هٰذه الميول المدافعة ـ طبعاً ـ موجودة في أساس فطرتنا، الاّ انّها في حالة سبات وفاقدة للتأثير، فيجب تفعيلها وتعبئتها قبال الميول المهاجمة والأهواء النفسيّة.

ويخطر في الذهن سؤال آخر: أيُّ عامل يكون قادرا علىٰ تفعيل وإيقاظ هٰذه الميول الخاملة؟ نقول في الإجابة: إنّه الفكر و الإدراك حيث قال الحكماء: إنّ الإدراك هو العامل للشوق، لأنّ الميل الخامل ينبعث وتدبّ فيه الحياة بالإدراك والشعور وعلينا دعمه بهٰذه الطريقة.

من الضروري أن نذكر هنا: إضافةً الىٰ التدبر في الاصول المذكورة ـ التوحيد، والنبوة والمعاد ـ هناك أمر آخر ينبغي الإهتمام به لكي يُحيي فينا الدافع العملي المتناسب مع هٰذه الأفكار والمنسجم مع هٰذه الاصول.

إنّ التأمّل في الاصول أوصلنا الىٰ هٰذه النتيجة وهي أنّنا عرفنا وجود الله، ويوم

القيامة، وأن نبي الإسلام ﷺ علىٰ حق، والقرآن كتاب الله، الاّ أنّ مجرّد إدراك هٰذه الحقائق لا يكفي لوحده لخلق الشوق فينا لطاعة الله والإيمان والإلتزام العملي، فلابدّ ان نسعى وراء أمر ينسجم مع الشوق ويكون من سنخه، ويمكن أن يكون مؤثرا في تنشيطه وانبعاثه.

لتوضيح هٰذا الكلام نقول: إنّ الأصل في انبعاث الإنسان لإنجاز أعماله كافة هو الخوف والرجاء: الخوف من الابتلاء بالشرور، والرجاء في نيل الخيرات. إنّ هدف بني الإنسان ـ طبعا ـ وضالّتهم التي يسعَون من أجلها واعتقادهم بالنسبة للخيرات والشرور ليس على سياق واحد، فبعض يقصد النعم الدنيويّة، والآخر يقصد الخيرات ونعم الجنة، وبعض آخر يعرفون نعماً وخيرات هي الأسمى كرضوان الله وجواره والقرب منه، ويسعَون للوصول الىٰ ذلك، ولكن لا اختلاف بين اصحاب هٰذه الأهداف المختلفة في أنّ العامل الوحيد في سعْيهم للوصول الىٰ كلّ واحد من الأهداف الثلاثة هو الخوف والرجاء.

بناءً علىٰ ذلك ينبغي للإنبعاث نحو العمل والسعي والتحرك أن نعالج ما يبعث فينا الخوف والرجاء، أي نتدبر في ما يحدث لو آمنّا، وما يحدث لو لم نؤمن؟

إذنْ في مجال العمل الاختياري ـ ومنه الإيمان ـ لو تدبرنا بصورة صحيحة، وأدركنا ما في ذلك العمل من مصلحة لنا هاج فينا الشوق لتحصيله، كما أنّنا لو أدركنا الآثار المرّة والنتائج الوخيمة التي تترتب علىٰ ذلك العمل انبعث فينا الخوف من نتائجه ودفعنا للإحتراز منه، إنّ السر في وجود هٰذا الكمّ من الوعد والوعيد في الآيات القرآنية هو لهٰذه الملاحظة التي ذكرناها تماماً، وصدوره قائم علىٰ مبادئ علم النفس القرآني، حيث نلاحظ في كلّ صفحة وعداً أو وعيداً وانذاراً أو تبشيراً، صريحاً أو تلميحاً. إنّ سبب وجوده مثل هٰذه الآيات هو إثارة

دافع الخير فينا والإهتمام بآثار أعمال الخير وإحياء الشوق فينا لممارستها والاحتراز من أعمال الشريرة للخوف من الآثار الوخيمة المترتبة عليها.

بناءً علىٰ هٰذا، بعد العلم والإعتقاد ينبغي أن نتأمّل في آثار الإيمان لكي يصير الإلتفات إليها دافعاً قويّاً لنا نحو تحقيق الإيمان الاختياري، وهكذا نتأمّل في الآثار المذمومة للكفر لكي تمنعنا منه، من هنا يؤكّد القرآن الكريم بشدّة على أن نتأمّل كثيراً بهٰذا الشأن.

ب ـ الدنيا

يتضمن القرآن الكريم بحوثاً عديدة ومتنوعة حول الدنيا، بحيث يرتبط كلّ بحث منها بقسم خاصّ من أقسام المعارف المختلفة. لقد قمنا سابقاً ببيان أقسام منها من جملتها: المقارنة بين الدنيا والآخرة، وبيان حقيقة الدنيا وهي كونها مقدمة وجسراً للآخرة، وكون النعم في الدنيا لاختبار الإنسان وأبحاث مماثلة. كما توجد بحوث أُخرىٰ تدور حول الدنيا والآخرة يرتبط جلُّها بالسنن الإلٰهيّة من قبيل البحث حول ماهيّة العلاقة بين الدنيا والآخرة، وهل يمكن الجمع بينهما؟ وبعبارة أُخرىٰ: هل يمكن لإنسانٍ أن يحظىٰ بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة معاً؟

وفي المقابل: هل يمكن أن يكون الإنسان شقياً في الدنيا والآخرة معاً؟ أو إنّ النعم والنقم والسعادة والشقاوة الدنيويّة والأُخروية لا تجتمعان، فمن كان متنعّماً في الدنيا كان محروماً في الآخرة، ومن كان محروماً في الدنيا تمتع بالنعم والراحة في الآخرة؟

العلاقة بين الدنيا والآخرة

إجابتنا عن السؤال المذكور هي أنّ نعم الدنيا ونعم الآخرة، وهكذا النقم فيهما ليست حسب الاصطلاح (مانعة جمع) ولا (مانعة خلو) فمن الممكن أن يكون الإنسان سعيداً في الدنيا والآخرة، كما يمكن أن يكون محروما وغير سعيد في الدارين. والعديد من آيات القرآن الكريم يشهد لهٰذه الدعوىٰ ويدلّ علىٰ عدم التلازم بين نعم الدنيا ونعم الآخرة، وهكذا بين وجود أحد النعمتين مع عدم النعمة الأُخرىٰ، وبعبارة أُخرىٰ لا يوجد تلازم أو تنافٍ بين هاتين النعمتين، بل إنّ التمتع بالنعم الدنيويّة والأُخروية أو الحرمان منهما أو التمتع بأحداهما والحرمان من الأُخرىٰ له علله وعوامله وملاكاته الخاصّة، فالقرآن يذكر أمثال النبيّ سليمان عليه السلام الذي حظي بالدنيا والآخرة، وقال عن النبيّ ابراهيم عليه السلام:

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[١].

كما قال عن بعض المؤمنين:

﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾[٢].

وقال في آية أُخرىٰ عن النبيّ ابراهيم عليه السلام أيضاً:

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[٣].

فنستنتجّ من هٰذه الآيات أنّ بوسع الإنسان أن يحظىٰ بنعم الدنيا، ويكون سعيداً في الآخرة أيضاً، كما يمكن استنتاج هٰذه الحقيقة من آيات أُخرىٰ، وهي أن يخسر الإنسان الدنيا والآخرة، ويُحرم من النعم واللذائذ فيهما. ففي آية أشار الله تعالىٰ

---

(١) النمل: ١٢٢. (٢) آل عمران: ١٤٨.

(٣) البقرة: ١٣٠.

في إحدىٰ الفئات الإنسانية الاربعة التي تحدّثت عنها سورة (الحج) الىٰ أُناس متزلزلين ومذبذَبين، يقدِّمون قدماً ويؤخرون أُخرىٰ دوماً، يسيرون علىٰ هامش الدين بانتظار فرصة سانحة، فيتقدّمون إذا تحسنت أوضاع الدين والمتدينين ويتراجعون بسرعة في حالة العكس، قال عنهم تعالىٰ:

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[١].

وجاء في آية أُخرىٰ أيضاً:

﴿لَهُمْ في الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

أي إنّ الذين يصدّون الناس عن ذكر الله في المساجد، ويسعَون في خرابها سوف ينالهم الخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة، جاء في آية أُخرىٰ:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[٣].

وفي القرآن الكريم تعبيرات مماثلة كثيرة نستنتج من مجموعها: ليس دائماً إذا كان الإنسان شقياً في الدنيا أن يكون سعيداً في الآخرة، فقد يكون أكثر شقاء.

وهكذا قد يكون الإنسان متنعّماً في الدارين، وقد يتمتع بالدنيا ولكن لا نصيب له في الآخرة، فالله تعالىٰ يفسح المجال لبعض الكفار ليتمتعوا بالمزيد من النعم في الدنيا لكي يزيد في عذابهم في الآخرة، ويطلق علىٰ ذلك (الإستدراج) حسب المصطلح القرآني، حيث نقرأ في آية:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٤].

---

(١) الحج: ١١.
(٢) البقرة: ١١٤.
(٣) الرعد: ٣٤.
(٤) آل عمران: ١٧٨.

هٰؤلاء لهم نعمة موفورة في الدنيا ولكنهم محرومون في الآخرة. وعكس ذلك ممكن أيضاً وذلك بأن يبتلىٰ المؤمنون في الدنيا بالجبارين و...ولكنهم يكـونون سعداء في الآخرة تحت ظل الرحمٰن ورحمته ورعايته.

إذنْ لا تعارض ولا تنافي ولا تلازم ولا ترابط بين نعم الدنيا والآخرة والنقم فيهما، بل إنّ اجتماعهما وافتراقهما معلولان لعللهما، حيث يتّبع كلّ واحد قانوناً خاصّا وتحكمه السنّة الإلٰهيّة. تلك السنن التي جعلها الله سبحانه لتـدبير شـؤون البشرية، وتكون نعم الدنيا والابتلاء فيها للاختبار كما قال سبحانه:

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

الدنيا المذمومة

إنّ ما له ارتباط أوثق مع البحوث الأخلاقية ويعتبر موضوعاً من موضوعاتها هو أنّ الدنيا في الكثير من الآيات والروايات، وتبعاً لها فـي الكـثير مـن كـتب الأخلاق، تُطرح كرمز لما يتعارض مع القيمة. وقد وردت في أغلب كتب الأخلاق مقالات جديرة بالإهتمام في ذمّ الدنيا، وكتاب نهج البلاغة مشحون بذمّ الدنيا من أوله الىٰ آخره، والآيات القرآنية هي الأُخرىٰ تـنعت الدنـيا بـعناوين مـذمومة ومرفوضة كما في الآية:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٢].

والآية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣]

وبالنظر الىٰ إمكان انطباع مفاهيم خاطئة عن الدنيا المذمومة في الأذهان نقوم

(١) الأنبياء: ٣٥. (٢) الانعام: ٣٢.

(٣) الحديد: ٢٠.

بضبط الإجابة عن بعض الأسئلة بهٰذا الشأن من قبيل: ما معنىٰ الدنيا؟ ما الوجه في ذمّ الدنيا الوارد في الآيات والروايات وكتب الأخلاق؟ وأخيراً هل الدنيا عامل مستقل في انحطاط الإنسان إزاء هوىٰ النفس أم لا استقلال لها تعبيراً عن الحقل الذي يلعب فيه هوىٰ النفس؟

للإجابة عن الأسئلة نقول: (الدنيا) مؤنث لفظ (أدنىٰ) ومع ذلك فانّ القرآن الكريم قد استعملها كصفة محذوفة الموصوف كالآية:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[1].

في هٰذه الآية استعملت (الدنيا) مطلقة، وبدون ذكر للموصوف قبال لفظ (الآخرة) المطلقة أيضاً. وقد كثر استعمال اللفظ المذكور في الآيات القرآنية، وسؤالنا هو:

هل الدنيا في هٰذه الموارد ذات جانب وصفي أيضاً، أم هي اسم جنس أو علَم قد انسلخت عن مفهومها الوصفي؟

نقول في الإجابة: الدنيا صفة تفضيلية دوماً كما نقلنا عن اللغة وتعتبر صفة لموصوف، فينبغي أولاً التعرف علىٰ موصوفها، وهٰذه من الخصوصيات التي قد توجد في اللغات الأخرى، الاّ انّها شائعة ومألوفة في اللغة العربية، وكثيراً ما يحدث أن يُهمل الموصوف تدريجيّاً وتحلّ الصفة محلّه، نظير لفظ (الحسنة) و(السيئة) إذ أنهما صفتان في الاصل، ولكلّ صفة موصوف لكنهما تستعملان حالياً بدون ذكر للموصوف، كالآية:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[2].

---

(١) الانفال: ٦٧.

(٢) المؤمنون: ٩٦.

وكالآية:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾[1].

فصفة (السيئة) في الآيتين وصفة (الحسنة) في الآية الثانية ذُكرتا بدون ذكر للموصوف. وفي الحقيقة إنّ الصفتين كانتا ذات موصوفين في الاصل، ولكن نظراً لشيوعهما وكثرتهما في التحاور أُهمل موصوفاهما تدريجيّاً حتّىٰ صارا نسياً منسيّاً.

ويمكن أن يقال: إنّ الموصوف المحذوف هو (الخِصلة) أي (الخصلة الحسنة) و(الخصلة السيئة) فأُهمل تدريجيّاً، وحلّت الصفتان المبحوث عنهما محل الموصوف المذكور. ومثل هٰذه الكلمات التي يوجد فيها تاء التأنيث كاللفظين هٰذين قد تعتبر تاؤها تاء الوحدة وعلى هٰذا يجب أن يكون لها موصوف قد لوحظ فيه الوحدة.

وأمّا لفظ (الدنيا) وهو محور البحث فهو صفة حُذف موصوفها أيضاً، ويستعمل عادةً بمعنىٰ (أقرب) قبال (الآخرة) التي هي أبعد بالنسبة إلينا، والدنيا أقرب إلينا من الناحية الزمانية. وقد جاء في القرآن الكريم (السماء الدنيا) مع ذكر الموصوف، والظاهر أنها بمعنىٰ السماء الأقرب إلينا، وقد لوحظ فيه القرب المكاني ويبدو أنها استعملت قبال الآخرة بهٰذا المعنىٰ أيضاً وقد لوحظ فيها القرب الزماني.

قال بعض العلماء: إنّ الدنيا ـ في الأصل تعني الدناءة والحقارة، واستعمالها قبال الآخرة هو لهٰذا التناسب، وهو أنّ هٰذه النشأة ليس لها قيمة تُذكر بالنسبة الىٰ

---

(١) فصلت: ٣٤.

النشأة الآخرة، ولا يصلح أن تُجعل ثمناً للآخرة ينال إزاء فقْد الآخرة في معاملة بيع.

في رأينا انّه قول غير صائب، لأن (الدنيا) وإن كانت أدون قياسا الىٰ الآخرة، ولكن في استعمال هٰذا اللفظ لم تُلحظ هٰذه الحيثية بدليل أنّ لفظ (الآخرة) قد وُضع في النقطة المقابلة لها تماماً، في حين أنّ (الدنيا) لو استعملت بمعنىٰ (الأدون) لكان فمن المناسب أن يقابل بـ(العليا) و(الأشرف) وما شاكل من ألفاظ تتضمن معنىٰ القيمة الأشرف والأعلىٰ، في حين لم يحدث ذلك. وأما السؤال عن ماهية الموصوف للفظ (الدنيا) فيمكن الإجابة عنه من خلال الفحص عن موارد استعمالها.

ففي آيات كثيرة استعمل لفظ (الدنيا) بنحو توصيفي للحياة (الحياة الدنيا)، وفي قبالها استعمل لفظ (الآخرة) كوصف آخر لها أيضاً (الحياة الآخرة) ووُصف بها أحياناً لفظ (دار) كـ(الدار الآخرة) أو كـ(دار الآخرة).

وبناءً علىٰ هٰذا يمكن أن يقال: إنّ لفظ (الدنيا) الذي استعمل مقابل لفظ (الآخرة) سواءً ذُكر موصوفه بالنحو المذكور أم ورد مطلقاً بدون ذكر موصوفه ـ وقد كثر استعمالهما في القرآن الكريم ـ يكون في جميع هٰذه الموارد والإستعمالات بمعنىٰ الحياة الأقرب.

وهٰهنا ينبغي الإشارة الىٰ أنّ المفهوم من هٰذا اللفظ والجاري علىٰ الألسن في هٰذا العصر هو استعمال الدنيا بمعنىٰ العالَم حيث يقال: دنيا الحيوانات، ودنيا الإنسان، ودنيا الشرق، ودنيا الغرب وأمثالها. إنّه مفهوم حديث نشأ من التحاور العرفي، في حين لم يستعمل بهٰذا المفهوم في الروايات والقرآن الكريم، حيث لم يستعمل لفظ (الدنيا) فيهما كاسم للسماء والأرض والنجوم أبداً، وكما قلنا استعمل

كوصف لـ(الحياة) و(الدار) أو كصفة بدون ذكر للموصوف، والمقصود في جميعها هو الحياة الأقرب.

وفي ضوء هٰذه التوضيحات يمكن القول: إنّ (الدنيا) و(الآخرة) وصفان لحياة موجود حيّ يمكن أن يكون ذا نوعين من الحياة. إحداهما حياة فعلية وقريبة منه والأُخرىٰ هي حياته المستقبلية الأبعد، وأطلق القرآن علىٰ الأُولى (الحياة الدنيا) وعلىٰ الثانية (الحياة الآخرة).

إنّ المصداق البارز لهٰذا الموجود (ذي الحياتين) هو الإنسان، وإضافةً إليه يستفاد من القرآن انّ (الجنّ) كذلك ذوو حياتين (دنيويّة) و(أُخروية)، وعن سائر الحيوانات ـ إنْ ثبت حشرها ـ يمكن القول أنّها تحظىٰ بالحياتين أيضاً.

الآن وبعد توضيح لفظ (الدنيا) يطرح هٰذا السؤال: هل الحياة (الدنيا) شيء مذموم ويجب اعتبارها رمزاً لما يعارض القيمة؟

نقول في الجواب: إنّ الإنسان الذي يعيش في هٰذا العالم ليس فيه حيثية مضادة للقيمة وليس فيه قيمة سلبية فحسب، بل يجب القول: إنّ له قيمة إيجابيّة أيضاً، إذ لولا الحياة الدنيا للإنسان لم توجد له حياة أُخروية. إنّنا نشيّد الحياة الآخرة ونصوّرها بصورة جميلة وسعيدة أو بصورة مشوّهة وشقيّة من خلال أعمالنا وسلوكنا الاختياري، وكما ورد في الروايات: (الدنيا مزرعة الآخرة)، فتجب الزراعة هنا ليتمّ الحصاد هناك.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾[١].

فولا الدنيا لم يدخل الجنة أحد. إنّ نعم الجنة تمثّل الجزاء لأعمال الدنيا،

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

والكرامات والمقامات الأُخروية هي الثمرة لمساعي الإنسان وأعماله في الدنيا. إذنْ للدنيا قيمة عالية جداً، حيث يمكن بأمدها القصير تحقيق سعادة لا نهاية لها ولذةٍ لا تزول في الآخرة.

الآن وقد توصّلنا الىٰ هٰذه النتيجة، وثبتت لدينا قيمة الحياة الدنيا يطرح هٰذا السؤال: إذنْ لماذا هٰذا الكمّ الهائل من الذمّ والوصف السيّىء ـ في الآيات والروايات ـ للدنيا، وما الهدف من وراء ذلك؟ لماذا تطلق التعبيرات الموهنة للدنيا في القرآن الكريم كقوله تعالىٰ عن المشركين والكفار:

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[1]. أو قوله: **﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾**[2].

وأمثالهما.

للإجابة عن هٰذا السؤال يجب القول في ضوء مضمون الآيات: لا عيب في الحياة الدنيا باعتبارها موجوداً عينياًومن جملة مخلوقات الله الحكيم، وعلىٰ أساس قاعدة كلية يمكن استخراجها من الآية:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾[3].

وهي أنّ نظام الحياة الدنيا أفضل نظام ويحظىٰ بإتقان وجمال تامّين. بناءً علىٰ هٰذا يجب البحث عن سرّ ذمّ الدنيا في ناحية أُخرىٰ، وبشيئ من التأمّل في الآيات والروايات نصل الىٰ هٰذه النتيجة، وهي انّ منشأ العيب والشناعة يكمن في كيفية ارتباط الإنسان وتعامله مع الدنيا، لأنّ تعامله مع الدنيا هو الذي يجعلها نافعة أو ضارّة، قيّمة أو غير قيّمة وحسنة أو سيئة. وبغضّ النظر عن التعامل والسلوك في

---

(١) الانعام: ٧٠.
(٢) لقمان: ٣٣.
(٣) طه: ٥٠.

حياة الإنسان ومستقبله ما هو عيب الدنيا حتّىٰ يوجب ذمّها وتعيير المتعاطي لها؟ نعم، نتيجةً للتزاحم يحدث بعض الشرور والنقائص شئنا أم أبينا، وتستلزم تضييقات في حياة الإنسان، لكن هٰذه الشرور والنقائص لا يمكن مقايستها بخيراتها وكمالاتها الغالبة والحاكمة.

هنا يطرح سؤال آخر: ما المقصود من علاقة الإنسان بالدنيا التي تكون سبباً لسوئها، وتجعلها مضادة للقيمة وضارة بالنسبة لمستقبله؟ أيُّ سلوك وتعامل مع الدنيا يعقبه هٰذا الضرر؟

جوابنا عن هٰذا السؤال هو أنّ المقصود من هٰذه العلاقة والتعامل الإنساني غير المناسب مع الدنيا ليس القيام بأعمال نظير الأكل والشرب وما شاكل، إذ أنّها ضرورية لحياة الإنسان، ولها دور أساس في تحقيق سعادتنا الأُخروية ومستقبلنا. وهكذا ليس المقصود منها علاقة الإنسان الطبيعية مع الدنيا، والفعل وردود الفعل التي تقتضيها القوانين القاهرة والتكوينية والطبيعية بين جسم الإنسان والظواهر الموجودة في الطبيعة كـ: الغازات، والفيتامينات، والمأكولات، والمشروبات، والنور، والحرارة والجاذبيه وغيرها، بل المقصود هو علاقتنا القلبية والروحية مع الدنيا، والتي يجب أن تخضع لنظام معيّن وتنحو نحواً خاصّاً وتتكيّف بكيفية خاصّةً. إنّ نِعم الدنيا بل زينتها وجمالها قد خلقها الله للإنسان، بل ورغّبه في الإنتفاع بها حيث يقول:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ﴾[١].

أو يقول:

---

(١) الأعراف: ٣٢.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[١].

إذنْ لا إشكال أبداً في التمتع بنعم الله في الدنيا، بل الكلام في المنظار الذي ينبغي أن ينظر الإنسان به الىٰ نعم الدنيا؟

فبعض ينظرون إليها بمنظار مادي، ويظنون أن لا حياة غير الحياة الدنيا التي نموت فيها ونحيى، وهٰذا الظنّ باطل، والنظر الىٰ الدنيا بهٰذا المنظار خطأ يستتبع أخطاء أُخرىٰ كثيرة في أعمال الإنسان وسلوكه.

بناءً علىٰ هٰذا من الضروري في الخطوة الأُولى أن نصحّح نظرتنا الىٰ الدنيا، وندرك أنّ حياة الإنسان لا تنحصر في الحياة الدنيا، بل له حياة خالدة وراءها، وأن نكتشف في الخطوة الثانية العلاقة الواقعية بين الدنيا والآخرة، وذلك بأن نقارن بينهما ونقيّم كلاً منهما من خلال هٰذه المقارنة، لكي ندرك أنّ علاقة الدنيا مع الآخرة هي علاقة الطريق والهدف، أو الوسيلة والغاية، لكي لا تترتب آثار سيئة علىٰ نظرتنا وأعمالنا الناشئة عنها في النهاية.

يقول الامام علي عليه السلام عن الدنيا بعبارة قصيرة وغزيرة المعنىٰ:

(من أبصر بها بصّرتْه ومن أبصر إليها أعمتْه).

وتعني أنّ رؤية الإنسان للدنيا يجب أن تكون صحيحة، فلو نظرنا الىٰ (الدنيا) نظر إعجاب وافتتان بزينتها واتّخذناها هدفا أساسيا ونهائيا، في هٰذه الحالة حيث لا حقيقة واقعية لهٰذا الأمر ستكون رؤيتنا ذاتها خاطئة ومنشأً لاخطائنا السلوكية، لأنّنا قد اتّخذنا الوسيلة هدفاً والطريق مقصداً. إنّ حال صاحب هٰذه الرؤية حال من يوفّر مستلزمات السفر الىٰ بلدة لأداء عمل ضروري جدّاً، ثمّ يتحرك ولكنه

(١) طه: ٨١.

ينجذب في الطريق الىٰ منطقة خضراء ومشهد جميل حتّىٰ ينسىٰ هدفه الأساس، وهو سفره الىٰ تلك البلدة والقيام بالعمل الضروري والحيوي. إنّه يقيم في تلك المنطقة مادام مستغرقاً في ذلك المنظر ومركّزاً نظره إليه ولا يمكنه التحرك، وإنّما يقدر علىٰ التحرك نحو الهدف الأساس حينما يؤوب الىٰ نفسه، ويتذكر هدفه الأساس وعمله الضروري، ويلتفت الىٰ أنّه لم يقصد المكث في الطريق، بل كان عازما علىٰ المرور بتلك المنطقة والوصول الىٰ الهدف.

وكما أشرنا في الماضي لا يعني هٰذا الكلام ـ طبعا ـ إهمال الطريق وعدم الإلتفات إليه أبداً، والنظر إلىٰ الأرض والتحرك بعين موصدة، إذ صحيح أنّ الطريق ليس هدفا ويجب المرور منه بالسرعة الممكنة والتعجيل في الوصول الىٰ الهدف الأساس، ولكن إذا لم نتأمّل فيه ولم نحمل معنا الوسائل والأدوات والزاد الضروري للمرور فيه فقد نواجه أخطاراً جمّة، من قبيل خطر الانقلاب، والسقوط، والحيوانات المفترسة، والجوع والعطش، والانحراف يميناً أو شمالاً والاصطدام وما شاكل ذلك. وعليه يجب علينا الإلتفات إليه بدقةٍ، ولكن بلحاظه طريقاً للمرور ووسيلة للوصول الىٰ المقصد لا أكثر.

انّ نقطة الانحراف الأساسية إذنْ والتي تنشأ منها كلّ العيوب هي الافراط في اهتمام الإنسان بالدنيا، وتعلّق قلبه بها وابتغاؤها بصورة مستقلة ولأجلها بالذات. هٰذه الرؤية والتعلّق ناشيء عن جهل الإنسان وقلة بصيرته، لانّه لو عرف أنّ الدنيا ليست دار بقاء، بل إنّ ماهيتها الانقضاء وإنّنا في حال تحرك دائب فيها، ولا نتوقف حتّىٰ لحظة واحدة لا في النوم ولا في اليقظة، وليس في وسعنا في كلّ فصل من فصول السنة المكث أكثر من ثلاثة أشهر من أعمارنا فيه، وما أن نلتفت الىٰ أنفسنا حتّىٰ نجد أن سنين وفصولا وأياماً قد انقضت. أجل إنّها حالة التغيُّر والتحول

والتحرك بكلّ ما تحويه من معنىً نحو عالم يسوده الثبات والأبدية، نحو الاستقرار والحياة الخالدة والبقاء، دار لا دار وراءها لكي تقصد.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[1].

لو كانت للإنسان مثل هٰذه الرؤية لم يتعلّق قلبه بالدنيا أكثر من المستوىٰ المطلوب.

والآن حيث طرحت الرؤية الصحيحة حول الدنيا، أي اعتبرت الدنيا ممرّاً لا مقصداً أساسيا وهدفا نهائيا، فمن الضروري أن يكون موقفنا العملي منها بهٰذا النحو، أي يجب إعداد ما يُحتاج إليه للوصول الىٰ الكمال من الطعام والملبس والمسكن وغيرها، لأن عدم توفّر هٰذه الأمور الضرورية يعني هلاك الإنسان نتيجةً للعطش أو الجوع أو البرد والحر أوالحيوان المفترس، ولا يبقى حياً لكي يواصل تكامله الروحي، بل يكون كالثمرة التي تسقط من الشجرة قبل أوانها. إنّه يهلك في الطريق قبل الوصول الىٰ الكمال الإنساني وفعلية القابليات والقوىٰ.

من الطبيعي ـ كما أشرنا سابقاً ـ أنّ الماء والطعام ليسا هدفا أساسيا، بل هما مقدمة للوصول الىٰ الهدف الاصلي. فاذا اعتبر شخص هٰذا الطعام والملبس والمسكن والسيارة والمال والثروة والرئاسة هدفا أساسيا واهتمّ بها متجاوزاً الحدّ المعقول لها كان تعامله هٰذا خاطئاً ويصدّه عن بلوغ الكمال الإنساني والهدف الأساس من خلق الإنسان. فمن ينوي ركوب سيارة للأجرة لكي يصل الىٰ مقصده لا يفرق لديه اللون وطراز السيارة وسائقها، فاذا اشغل ذهنه عند ركوبها بأفكار أُخرىٰ بدلاً عن الوصول الىٰ الهدف وأخذ يفكّر بطراز السيارة وكراسيها ولونها

---

(١) النجم: ٤٢.

وأمورها الترفيّة فانّه سيكون غافلاً عن هدفه، لأن هٰذه الأمور لا علاقة لها مع مقصده. نعم،إنّ المقصد الأساس يستدعي أحياناً رعاية بعض هٰذه الأمور، فمثلاً: للسفر من بلد الىٰ آخر ينبغي أن يختار سيارة سليمة وسريعة كي لا تؤخره في الطريق وتصل بسرعة الىٰ المقصد، فانّ هٰذه الأمور لا تمنع من الوصول الىٰ المقصد، ولا يتعارض رعايتها مع الإهتمام بالمقصد.

فمثلاً: إذا انصرف الإنسان عن مأكولات نافعة لجسمه وضرورية لأنّها لم تكن لذيذة جدّاً، وتناول مأكولات غير نافعة ولكنها لذيذة، فمن الطبيعي أن تناوُل الطعام لديه قد أصبح هدفاً لا وسيلة، لانّه لو كان وسيلة لراعى في انتخاب الطعام الكمية والكيفية الأكبر فائدةً لسلامته وصحته اللتين ستكونان مقدمة لعبادة الله وتكامل الإنسان معنويا. فمن كان في انتخاب الطعام تابعاً للذّة الأكبر فقد انتخب الوسيلة بدلاً عن الهدف، لأنّ ما يلاحظ في الوسيلة هو تأثيرها في الوصول الىٰ الهدف الأساس، بأن تعطي الإنسان الطاقة التي تمكّنه من العمل والسعي أعمَّ من كونها أطيب أو لا. واللطف الإلٰهي طبعا ـ قائم على أن تكون الأطعمة الأكبر فائدة هي الأطيب. وتجتذب رغبة الإنسان بصورة أشدّ وتجذبه لتناولها، ولكن من الناحية الأخلاقية لا ينبغي بالإنسان أن يجعلها هدفاً، ويتعلّق قلبه بالدنيا فوق المستوى المطلوب، فهٰذه الحالة تكون منشأً للخطر والخسران.

ممّا ذكر استنتجنا أنّ الحياة في الدنيا لا إشكال فيها، ولكن الإخلاد إليها يكون ضاراً وخطيراً، فقد ورد في نهج البلاغة[١] أنّ شخصا ذمّ الدنيا في محضر الامام علي عليه السلام فعارضه بشدّة قائلا:«أيها الذامُّ للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع

(١) ما تقرأه هنا هو ترجمة لما ورد في الكتاب (المترجم).

بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثمّ تذمُّها؟ ـ الىٰ أن قال ـ إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّىٰ ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله...»(١)

نعم، إنّ الحياة الدنيا غير مذمومة بل إنّ العلاقه الخاصّه بين الإنسان والدنيا هي المذمومة، إنّ إساءة استغلال الإنسان للدنيا وانخداعه واغتراره بها وغفلته عن الآخرة وانشغاله بالدنيا ونسيان الله هو المذموم، وأنّ تعاملنا مع الدنيا هو الذي قد يكون صحيحاً أو خاطئا، ولكن بما أنّ المتعلّق والموضوع لتعامل الإنسان هو الدنيا فانّها تكون أحياناً موضعا للذمّ والنهي تبعاً لتعامل الإنسان، فالذمّ يتوجه أولاً وبالذات الىٰ سلوك الإنسان الاختياري الذي يكون موضوعا للأخلاق ومتعلقا للقيمة الأخلاقية أو ضدها. إنّ الدنيا بدون السلوك الإنساني من الأمور العينية التي لا يمكن ان تكون موضوعا للأخلاق والقيمة الايجابية أو السلبية.

القرآن وذمّ الدنيا

الآن وقد توضّح السبب في ذمّ الدنيا يُطرح سؤال آخر: هل يؤيد القرآن الكريم ما قدّمناه من تحليل عن السبب في ذمّ الدنيا؟

نقول في الإجابة: نعم، فانّ في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً تشير الىٰ هٰذه الحقيقة بوضوح، وتبيِّن منشأ السوء في الدنيا كالآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا

---

(١) نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح / الصفحة ٤٩٢.

غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

الآية لم تذمّ الذين يعيشون في الدنيا، يأكلون ويشربون ويتمتعون، بل الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها، واختاروها بدلاً عن الآخرة وتشبّثوا بها، فلا يرغبون في شيء آخر ولا يشعرون بنقص الىٰ جانبها، وطبق الآية: **﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾**[٢].

إنّ أساس صلاح الإنسان وفساده يكمن في كلمة (يريد) هذه. والمقصود من الآية: **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾**[٣]. هو أنّ ارادتكم تتعلّق أساساً بالدنيا، والاّ فانّ الارادة التابعة للدنيا ليس فيها إشكال ولا تتعارض مع إرادة الآخرة فحسب، بل هي أمر مطلوب وضروري أيضاً وبدونها لا يمكن الوصول الىٰ الهدف الأُخروي.

جوهر الكلام هو أنّ نلاحظ بماذا يتعلّق دافع الإنسان وإرادته في الأساس، فاذا كانت إرادته متعلقة بالآخرة واهتمّت بالدنيا بغية الوصول الىٰ الآخرة كان ذلك أمراً طبيعيا وقيّما وضروريا، ولكن إذا كان يريد الدنيا لذاتها دون اكتراث بوجود الآخرة وعدمها فانّ مثل هٰذه الدنيا لم تتبوّء موضعها المراد لها ويتوجه اللوم إليها، لأنّ طلب الدنيا بهٰذا النحو يكون أساساً لفساد الإنسان، ومن هٰذا اللون من الإعتبار للدنيا ينشأ الكفر والنفاق والعصيان والفسوق والفجور وأمثالها.

الآن وقد توضّح أين يكمن المنشأ لذمّ الدنيا والعيب فيها، نقدِّم جوابنا الحاسم علىٰ السؤال: هل الدنيا تمثّل حقيقة أُخرىٰ غير هوىٰ النفس وتعتبر مانعاً مستقلا بالنسبة له، أم إنها تعبير آخر عن هوىٰ النفس؟ وهو أنّ الدنيا وهوىٰ النفس

---

(١) يونس: ٧ و ٨.
(٢) آل عمران: ١٥١.
(٣) الانفال: ٦٧.

حقيقتان مترابطتان تماماً: أي الدنيا هي الموضوع لهوىٰ النفس، إذنْ هما ليسا عاملين مستقلين، بل نطلق (هوىٰ النفس) علىٰ رغبات الإنسان وميوله التي تتعلّق بالدنيا كمطلوب رئيس بلحاظ كونها رغبة في نفس الإنسان، في حين نطلق (الدنيا) علىٰ الموضوع والمتعلَّق للرغبات الإنسانية التي تُقصد مجرّدةً عن الآخرة. فالدنيا المذمومة هي التي تصدّ الإنسان عن الآخرة. إذنْ (النفس) و(الدنيا) مترابطتان، والدنيا هي (الموضوع) و(المتعلق) لـ(هوىٰ النفس).

ج ـ الشيطان

هناك موضوعات كثيرة جديرة بالملاحظة حول الشيطان، وحقيقة الشيطان، وكيفية خلق الشيطان، وأعمال الشيطان وما شاكل، وقد بحثنا قسما منها سابقا، والمناسب طرحه وبحثه هنا منسجماً مع علم الأخلاق هو أنّ آيات قرآنية كثيرة اعتبرت اتّباع الشيطان «رمزاً» لما ينافي الاخلاق، حتّىٰ أنّ بعض الآيات تقول: هناك طريقان أمام الإنسان: أحدهما طريق الله، والآخر طريق الشيطان. وتضع عبادة الشيطان مقابل عبادة الله تعالىٰ كالآية:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عدوّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

هنا يُسأل: من هو الشيطان؟

هل هو الدنيا أو هوىٰ النفس أو هو شيء مستقل عنهما؟

---

(١) يس: ٦٠ و ٦١.

ظن البعض أنّ الشيطان ليس سوى «النفس الأمّارة» ولكن توضّح ممّا سبق أنّ القرآن يعتبر الشيطان وإبليس موجوداً مستقلا من جنس الجن، فهو مخلوق من النار ومستقل عن الإنسان. إذنْ لا يكون الشيطان في القرآن الكريم بمعنىٰ هوىٰ النفس، أو النفس الأمّارة أو القوة الوهمية أو قوة أُخرىٰ من قوىٰ النفس، بل هو موجود مستقل. وقد يطلق لفظ الشيطان على الإنسان الشرير أيضاً، وقد يطلق لغةً علىٰ الموجود الشرير كهوىٰ النفس أيضاً، ولكن في المواضع التي يراد منه ابليس وجنوده، فليس المراد منه هوىٰ النفس أو النفس الأمارة وما شاكل قطعاً، كالآية:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾[١].

أعمال الشيطان

يصنف القرآن الكريم أعمال الشيطان تحت عدة عناوين، من الضروري اطّلاع الإنسان عليها. ويمكن القول أنّ أصل الأعمال الشيطانية هو الوسوسة، وهو ما أُشير إليه في مواضع من الآيات القرآنية، كالآية:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٢].

وآيات سورة الناس:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[٣].

---

(١) الأعراف: ٢٧. (٢) طه: ١٢٠.

(٣) الناس: ١ ـ ٦.

والسؤال المطروح في هٰذا المجال هو: كيف يقوم الشيطان بالوسوسة في قلب الإنسان، وصدره حسب التعبير القرآني؟

جوابنا علىٰ السؤال: هناك عدة عوامل يؤكّد عليها القرآن في هٰذا المجال:

أ ـ تزيين الأعمال القبيحة: فالشيطان يزيّن الأعمال في نظر الإنسان ويوسوس له عن هٰذا الطريق، ويكون سبباً لعدم ترك ذلك الفعل القبيح فحسب بل التمادي في مزاولته، لأن تزيين الشيطان يقوّي الدافع لممارسة ذلك العمل. وقد أشارت آيات عديدة الىٰ (تزيين الشيطان) كالآية:

﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

والآية: **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾**[٢].

والآية (٣٨ ـ العنكبوت) التي تشابه هٰذه الآية بفارقٍ ورود **﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾** بدلاً عن **﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾**.

ب ـ تقديم الوعود الكاذبة للإنسان بقوله له: إنّ فعلت هٰذا العمل كان لك كذا وكذا، وقد تحدّثت بعض الآيات عن مثل هٰذا الوعد، كالآية:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[٣].

والآية (٦٤ ـ الإسراء) هي الأُخرىٰ تحدّثت عن وعود الشيطان الكاذبة للإنسان.

ج ـ تخويف الإنسان تجاه مستقبله بهدف صدّه عن ممارسة أعمال الخير، قال

---

(١) النحل: ٦٣.
(٢) النمل: ٢٤.
(٣) النساء: ١٢٠.

تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[1].

وبهذه الطريقة يصدّكم عن ممارسة الأعمال الاجتماعية والأخلاقية النافعة (الإنفاق).

الشيطان وهوىٰ النفس

بعد اتضاح ماهية الشيطان وطريقة عمله يُطرح سؤال آخر بشأنه: هل يعمل الشيطان مستقلا عن النفس وهواها ويحرف الإنسان ويمنعه من عمل الخير، أم يعمل من خلال ذلك الطريق ذاته؟

الجواب: من خلال البحث في الآيات ذات العلاقه يمكن أن نستنتج بأنّ الشيطان ينفذ في الإنسان عن طريق أهواء النفس ويؤيد عمله وسعيه أو يغيّره.

يزين له الأعمال القبيحة ويسنده لارتكابها، وفي المقابل يثير فيه الخوف ويصدّه عن ممارسة أعمال الخير ويغيّر مسيرته، فمثلاً: في جمع الأموال التي يريدها الإنسان بنفسه ويحرص عليها يقوم الشيطان بتأييده ودعمه بالتزيين والخداع.

وقد جاء في الآيات القرآنية أنّ الشيطان يخاطب الذين انخدعوا به ويلعنونه يوم القيامة: لا تلعنوني كثيراً فانّي لم أكن مهيمناً عليكم، بل وعدتكم وأخلفتكم موعدي، ومع ذلك كنتم تتّبعونني:

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[1].

إذنْ عندما يؤيد الشيطان هوىٰ النفس يكون له دور المُعين والمعدّ، فلولا هوىٰ النفس لعَجز الشيطان عن إيجادها فينا، ونظراً لوجودها فينا عندما تحدث رغبة في نفوسنا يقوم الشيطان بتزيينها وتأييدها لكي يتضاعف انشدادنا إليها. وحصيلة فعل الشيطان هو الغفلة عن الله عزّوجلّ والابتعاد عن ذكره والإنجذاب الىٰ الدنيا والإهتمام المفرط بالماديات.

والإنسان عندما ينجذب الىٰ الماديات واللذائذ الدنيويّة بفعل الوساوس الشيطانية يغفل عن الله ولا يبقى مجال في قلبه لذكره تعالى، وقد جاء في القرآن الكريم بهٰذا الشأن:

﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[2].

فالذين يتّبعون الشيطان ويضعون غلّ العبودية والرقّية له في اعناقهم يتسلّط الشيطان عليهم تدريجيّاً، والسبب في ذلك هو سوء اختيارهم، كما قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[3].

كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

أي إنّهم لا يؤمنون باختيارهم، وبذلك يمهّدون لتسلّط الشيطان عليهم كما قال سبحانه في آية أُخرىٰ:

---

(١) ابراهيم: ٢٢.
(٢) الاحزاب: ٣٣.
(٣) النحل: ١٠٠.
(٤) الأعراف: ٢٧.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1].

وعليه فانّ الإنسان يغفل في البداية عن الله عزوجل، ثمّ يكون الشيطان قرينه وصاحبه في الطريق، يضع زمامه في رقبته ويقوده الىٰ الجهة التي يهواها. إذنْ إنّ سوء اختيار الإنسان هو السبب لحدوث هٰذه الأوضاع والأحوال المؤلمة.

بناءً علىٰ هٰذا نستنتج أنّ الشيطان وإن كان موجوداً مستقلا عن هوىٰ النفس، ولكن ليس بوسعه أن يعمل ضد الإنسان مستقلا عنه، بل يؤيد الهوىٰ والرغبات النفسيّة فيه، أي له استقلال وجودي بالنسبة لهوىٰ النفس، لا استقلال عملي.

في ختام هٰذا الفصل وفي ضوء ما قلنا في هٰذا المجال يمكن الوصول الىٰ هٰذه النتيجة الكلية: إنّ ما يمنعنا من الوصول الىٰ القيم الأخلاقية هو (هوىٰ النفس) كعنوان عامّ موضوعه ومتعلقه هو الحياة الدنيا، ويقوم الشيطان بتأييده وتزيينه.

* * *

---

(١) الزخرف: ٣٦.

القسم الأول

٨

الأخلاق في القرآن الكريم

تصنيف المسائل الأخلاقية

عرض المواد وشرحها

ما معنىٰ القلب؟

طريق معرفة حقيقة القلب

ما معنىٰ الصدر؟

الأخلاق في القرآن الكريم

الىٰ هنا قمنا بالبحث عن قواعد ومبادئ علم الأخلاق من وجهة نظر القـرآن الكريم، ومن المناسب أن نقوم هنا بدراسة الأبـحاث الأسـاسية لعـلم الأخـلاق وشرح فروعه وتفاصيله في القرآن، ولكن قبل الخوض في ذلك نـقوم بـتصنيف الأبحاث والموضوعات الأخلاقية، وفي إطار منهج عامّ نشرع بهٰذا البحث مـن نقطة ليكون هناك تسلسل منطقي بين محتوياته قدر ما يمكن.

لا يوجد في القرآن الكريم ـ طبعا ـ منهج وتصنيف واضح للمسائل الأخلاقية ولا توجد نقطة بداية خاصّة، وعلىٰ الأقل لم نلاحظ هٰذا الأمر من مفاد ظواهـر الآيات، فنضطرّ لدىٰ البحث عن القضايا الأخـلاقية الىٰ اخـتيار مـنهج خـاصّ لتتوضّح بداية البحث وآخره.

تصنيف المسائل الأخلاقية

قام فلاسفة الأخلاق حتّىٰ هٰذا العصر ـ تـبعاً لاءرسـطو ـ بـتفسير الأخـلاق

بالملكات الراسخة في النفس التي تحصل نتيجةً لتكرار العمل. ونظراً الىٰ أنّ منشأ الأعمال وسلوك الإنسان هو قواه الإنسانية قاموا بتقسيم فصول الأخلاق الىٰ أقسام متنوعة وفق تنوّع قوىٰ النفس وتعدّدها.

إنّهم يقولون: إنّ القوىٰ المؤثرة في تحقّق الأفعال وملكات الإنسان بتبعها تنقسم الىٰ ثلاث مجموعات:

١ ـ القوة العقلية ٢ ـ القوة الشهوية ٣ ـ القوة الغضبية. وكلّ قوة من القوىٰ الثلاثة تستدعي سلوكا خاصّا، كما إنّهم حسب الأولوية في هٰذه القوىٰ يقومون بدراسة أعمال الإنسان وسلوكه. وقد قام علماء الأخلاق الإسلامية في الغالب ـ تبعاً لأرسطو ـ برعاية هٰذا التقسيم الىٰ حدّ ما.

فيما يتعلّق بهٰذا التقسيم يُطرح سؤالان يجدر التأمّل فيهما في موضعه المناسب

الأول: هل يصحّ تقسيم قوىٰ النفس الىٰ قوىٰ ثلاث؟ وهل يمكن حصرها في هٰذه الثلاثة؟

الثاني: هل يكون من المقبول تقسيم الأخلاق والسلوك والملكات الأخلاقية علىٰ أساس التنوّع في القوىٰ النفسيّة، أم من الأفضل البحث عن منهج آخر للتقسيم؟

يمكن القول إنّ الأمرين قابلان للمناقشة الىٰ حدّ ما، فبالإمكان طرح تقسيمات أُخرىٰ في هٰذا المجال استناداً الىٰ تنوّع قوىٰ النفس، أو تقسيمات مستندة الىٰ قوىٰ النفس دون أن نحصرها في القوىٰ الثلاثة هذه، ونجعل عددا أكبر من قوىٰ النفس وتنوّعاً أكثر ظرافة فيها أساساً للبحث وتقسيم السلوك والملكات الأخلاقية، وهٰذا ما سنطرحه قريبا بعون الله.

حسب رأينا إنّ موضوع الأخلاق أعمُّ من الملكات النفسيّة التي أكـد عـليها فلاسفة الأخلاق حتّىٰ هٰذا العصر كـموضوع لعـلم الاخـلاق، وكـما أسـلفنا: إنّ موضوع علم الأخلاق أعمُّ من الملكات الأخلاقية، ويشمل كلّ الأعمال القيمية للإنسان التي تتصف بالحسن والسوء، ويمكن أن تمنح النفس الإنسانية كـمالاً، وتستدعي رذيلة ونقصا في النفس، وتدخل بأجمعها في نطاق الأخلاق، وسياق آيات القرآن الكريم والروايات الشريفة يؤيّد هٰذه النظرية.

بناءً علىٰ هٰذا يمكن القول: إنّ موضوع الأخـلاق واسـع وشـامل للـملكات والحالات النفسيّة والأفعال التي يمكن أن تكون ذات طابع قيمي.

الآن وبعد اتضاح حدود موضوع الأخلاق يمكن ـ كأطروحة للبحث ومنهج دراسي ـ أن نقدِّم تقسيمات أُخرىٰ علىٰ أساس التنوّع في قوىٰ النفس، أو بصورة أُخرىٰ لكي تتوضّح نقاط الدخول والخروج والتسلسل المنطقي للأبـحاث عـند السير الدراسي والتحقيق.

بإمكاننا تقسيم المسائل الأخلاقية حسب تـنوّع قـوىٰ النـفس أو مـتعلقات الأفعال الأخلاقية، وبعبارة أُخرىٰ بوسعنا أن نبدأ التقسيم من مبدء الفعل، ونقسّم الأفعال الأخلاقية الىٰ مجموعات متنوّعة بنحو يـتناسب مـع المـبادئ النـفسيّة المتنوّعة ونجعلها في رتب مختلفة، كما صنع أتباع أرسطو، مع فارق هو أنّ تقسيماً آخر من القوىٰ النفسيّة سيكون هو الملاحظ وسنقدِّمه بعون الله، وبوسعنا أيضاً أن نبدأ التقسيم من المتعلَّق وطرف العلاقة، وتبويب وتنظيم الموضوعات الأخلاقية علىٰ أساس تنوّع متعلّقات الأفعال الأخلاقية.

وبـالنسبة لتـقسيم الأخـلاق حسب المـتعلّقات نـقول: إنّ مـتعلَّق الأفـعال الاختيارية إمّا هو الفاعل نفسه أو الآخرون، وإما يرتبط مع الله سبحانه، حـيث

يمكن اطلاق عنوان خاصّ يتناسب مع كلّ واحـد. ونـطلق عـلىٰ القسـم الأول «الأخلاق الفردية» وعلىٰ القسم الثاني «الأخلاق الاجـتماعية» وعـلىٰ القسـم الثالث «الأخلاق الإلٰهيّة» وسيكون هٰذا التقسيم أوقع فـي النـفس مـن التـقسيم السابق.

وحسب المبادئ النفسيّة للأفعال يمكن ـ كما قلنا ـ تقسيم الأخلاق بـصورة أُخرىٰ، ونحن هنا نطرح تقسيماً بهٰذا النحو وهو أنّ أفعال الإنسان:

١ ـ تكون تارة ذات منشأ غريزي، أي يكون الفعل والانفعال الجسمي منشأً مباشراً لدوافعها كالأكل وإشباع الغريزة الجنسية وما شاكل، حيث إنّ المنشأ فيها هو الميل نحو الأكل أو الجنس، وهٰذه الميول تـتحقّق بسـبب الفـعل والانـفعال الطبيعي.

٢ ـ يكون منشأ الأفعال تارة أُخرىٰ هو الانفعالات النفسيّة للإنسان من قبيل حالات الخوف والوحشة والاضطراب التي يطلق عليها «الانفعالات» في عـلم النفس.

٣ ـ تنشأ مجموعة أُخرىٰ من الأعمال من الميول الإنسانية الفطريّة المتعالية ـ كما يصطلح عليها ـ من قبيل: طلب الحقيقة، وطلب الكمال، والميل نحو الفضائل الأخلاقية والعبادة، أيّ الميول التي ليس لها منشأ جسمي وعضوي ولا تنشأ من العوامل الماديه والطبيعية وليس لها مبدأ أو غاية ماديّة.

٤ ـ هناك حالات يكون للسلوك الإنساني فـيها مـنشأ عـاطفي وشـعوري، وتنقسم بدورها الىٰ نوعين:

الأول: الممارسات التي يكون دافعها العواطف الايـجابية للإنسـان كـالأُنس والمحبّة.

الثاني: الممارسات التي تنشأ من العواطف الإنسانية السلبية من قبيل الحسد والحقد والتضجر.

معالم أطروحتنا

نتابع هنا الأطروحة والتقسيم حسب متعلقات الأفعال ـ كما قلنا ـ الىٰ:

١ ـ الأخلاق الإلٰهيّة وتعني الأخلاق الإنسانية ذات العلاقة بالله سبحانه كذكر الله، والخشية والخوف من الله، والرجاء والإيمان بالله وغيرها، والتي تُمارس علىٰ أساسها بعض العبادات كالصلاة والصيام وغيرهما.

٢ ـ الأخلاق الفردية، أي الأعمال التي ترتبط بالإنسان نفسه، ولا تقصد العلاقة مع الله في ادائها بالذات وإن كان من الممكن ارتباطها بالله وبالناس أحياناً، ولكن الملاحظ فيها أساساً هي العلاقة مع الإنسان نفسة كالأكل الكثير واتّباع الشهوات، فانّ الإنسان سواءً أكان كثير الأكل أو قليله، واتّبع الشهوات أو لم يتّبع، فانّ ذلك يرتبط بالإنسان نفسه، وإن أمكن ارتباطه بالله تعالىٰ نظراً لإمكان تحققها كطاعة لله في صورة ومخالفته في صورة أُخرىٰ، أو كاشباع الغريزة الجنسية الذي منشؤه شهوة الشخص ويؤدّىٰ تلبية لندائها، فانّه يرتبط ذاتاً بالإنسان نفسه، ولكن من الطبيعي أن يرتبط مع شخص آخر أيضاً.

٣ ـ الأخلاق الاجتماعية التي تمثّل علاقة الإنسان مع الآخرين محورَها الأساس، وتنشأ من معاشرة الآخرين في الحياة الاجتماعية كالإحسان للآخرين واحترامهم أو إهانتهم، ومحورها الأساس هو العلاقات الاجتماعية.

من الضروري أن نشير هنا الىٰ هٰذه الحقيقة وهي أنّ الممارسات الإنسانية وإن كانت متنوعة كما قسمنا، وتصنّف الىٰ ثلاثة أصناف هي الأخلاق الفردية،

والأخلاق الاجتماعية والأخلاق الإلٰهيّة الاّ أنّ جميعها ينشأ من مجموعة مبادئ نفسيّة مختلفة ذات كليات مشتركة.

لقد بيّنا في بحوث معرفة الإنسان بأن أفعال الإنسان الاختيارية تنشأ بصورة عامّة من كلّ مبدء من المبدءين النفسيين: ١ ـ الرؤىٰ والمعارف ٢ ـ الميول والرغبات، وقلنا أيضاً بأنّ لهٰذين النوعين من مبادئ الأفعال النفسيّة أثرين مختلفين علىٰ أداء الأفعال، حيث إن أحدهما يكشف الأمور الواقعية، والآخر يحرّك ويدفع الإنسان نحو القيام بالعمل، وهٰذا الاندفاع طبعاً يتقارن مع حالات وكيفيات نفسيّة كالخوف والأمل وينتهي في الكثير من الموارد بفعل جسمي، وفي بعض الموارد يتحقّق فعل باطني فقط، وإن أُنجز باعضاء داخلية كالدماغ والأعصاب الاّ انّها لا تسري الىٰ خارج الجسم. وهٰذه الأفعال لكونها من جملة أفعال الإنسلن الاختيارية فانّها تدخل في نطاق الاخلاق.

الملاحظة الأُخرىٰ التي يمكن ملاحظتها مع إنّنا توصّلنا في (مبادئ وفلسفة الاخلاق) عقلا وكتابا وسنّة الىٰ هٰذه النتيجة وهي أنّ قيمة الأخلاق تستند الىٰ عاملين: الأول صلاح الفعل نفسه، الثاني: نية الفاعل ودافعه، وهما في الحقيقة بمثابة الجسم والروح للعمل الأخلاقي، أي إنّ العمل الأخلاقي يجب أن يكون في ذاته صالحا وصحيحاً، ولابدّ من ادائه بنيّة ودافع صحيح لكي يكون قيّماً. وبناءً علىٰ هٰذا إنّنا نرتبط بالنية في جميع الأفعال ـ شئنا أم أبينا ـ وتمثّل روح العمل وأساس القيمة من جهة، وهي أحد الأفعال الباطنية الخفية التي تتحقّق في قلب الإنسان من جهة أُخرىٰ، وقد قمنا في الماضي بتبيان النية المطلوبة حسب الرؤية الإسلامية حيث لها ـ علىٰ أيّ حال ـ ارتباط مع الله سبحانه، ويكون لها مرتبة من التقرب الىٰ الله بحيث يؤدّىٰ العمل إمّا خوفاً من الله، أو طمعا بنعمه، أو يكون الدافع

لدىٰ الفاعل هو إطاعة أمرَ الله والتقرب اليه، دون أن يكون الطمع في ثـوابـه أو الخوف من عذابه واسطة في الإرتباط بالله تعالىٰ.

علىٰ أيّ حال، نظراً الىٰ أنّ مبادئ أفعال الإنسـان الاخـتيارية مـن الأمـور الباطنية، ومهما كان دافع العمل فانّ له موقعه في قلب الإنسان، لذا لابدّ من اجراء دراسة حول «القلب» قبل أيّ شيء.

ما هو معنىٰ القلب؟

قبل الإجابة علىٰ هٰذا السؤال الأساس، نذكّر بأنّ البحث والدراسه بشأن القلب وإن لم يكن بحثا أخلاقيا، ولا يمكن أن يعتبر من جملة مسائل علم الأخـلاق، ولكن بما أنّنا نتحدّث عن النية بوصفها من عمل القلب فمن المناسب قبل الخوض في مسائل علم الأخلاق أن يكون لنا بحث في هٰذا المجال، فنبحث عن لفظ القلب أو الفؤاد في القرآن الكريم وعلم الأخلاق كي لا نقع في الأخطاء والمغالطات.

نقول في الإجابة عن السؤال: إن للفظ (القلب) في علم الفسلجة والعـرف العـامّ معنىٰ واضحاً، وهو أنّه أحد اعضاء جسم الإنسان ويقع عادةً في الجانب الأيسر من الصدر ويطلق عليه في الفارسية (دِل) وما يرادفه في اللغات الأخرى، ولكن حينما يستعمل لفظ (القلب) هٰذا أو (الفؤاد) أو (دل) فـي الفـارسية فـي مـجال الأخلاق وعلم الأخلاق لا يكون هٰذا المعنىٰ مراداً للمتكلم قطعاً، وهـدفنا مـن إثارة هٰذا السؤال هو توضيح المعنىٰ الأخلاقي للقلب، وهكذا اصطلاحه القرآني والروائي.

وقد أبدىٰ علماء فقه الحديث والمفسرون آراءهم في تفسير الآيات والروايات، وإيضاح المعنىٰ الموضوع له هٰذا اللفظ والمناسبة في استعماله بالمعنىٰ الثاني. قال بعض اللغويين في بيان المناسبة بين معنيَي القلب والعلاقة بينهما: إنّ لفظ القلب ـ وهو من مجموعة تضمّ ألفاظاً كالتقلّب والقلب والانقلاب ـ يفيد معنىٰ التغيير والتحول، وهٰذا هو وجه الإشتراك بين المعنىٰ اللغوي والمصطلح الأخلاقي، لأن الدم في القلب بمعنىٰ العضو الجسماني يكون في حالة تقلّب، والقلب بالمعنىٰ الأخلاقي والقرآني هو الآخر يتضمن حالات التغيّر والانقلاب، وعليه فانّ هٰذا اللفظ قد استعمل في هٰذين الموردين لوجود مضمون الانقلاب والتقلّب والتحوّل.

لكن لا يكون لمثل هٰذه الابحاث لدىٰ الإجابة عن السؤال فائدة كبيرة، فلابدّ أن نفكّر بنحو آخر لايضاح مفهوم القلب في علم الأخلاق والاصطلاح القرآني والروائي.

للفظ القلب المستعمل في هٰذين المعنيين المختلفين ـ الطبيعي والأخلاقي – حكم الإشتراك اللفظي، ويستعمل في كلّ معنىٰ من المعنيين بلا ملاحظه المعنىٰ الثاني والعلاقة بينهما. فمراد عالم الطبيعة حينما يستعمل لفظ القلب هو العضو الخاصّ دون أدنى التفات الىٰ المعنىٰ الأخلاقي، كما إن عالم الأخلاق لا يقصد من استعماله هٰذا اللفظ غير المعنىٰ الاصطلاحي الخاصّ بالأخلاق ولا يلتفت الىٰ معناه الطبيعي.

بناءً علىٰ هٰذا يستعمل لفظ (القلب) كمشترك لفظي في هٰذين المعنيين، ولا يهمنا كشف العلاقة بين هٰذين المعنيين، أو تمييز المعنىٰ الأصلي عن الفرعي بينهما، وإيضاح أنّ الوضع في أيّهما كان أولاً ثمّ نُقل الىٰ الثاني، لأن مثل هٰذه القضايا تفقد أدنىٰ تأثير في إدراك المعنىٰ الأخلاقي الذي نقصده من لفظ القلب،

وإن كان ذلك بحثاً ممتعاً لدىٰ اللغويين وله قيمته في حدّ ذاته، كما عقد صاحب تفسير الميزان بحثاً مستقلاً تحت عنوان (القلب في القرآن) وقام بتقديم الوجه في بيان العلاقة بين هٰذين المعنيين بهٰذا النحو، وهو أنّ الحياة الإنسانية تتعلّق بالقلب في المرحلة الأُولى، ثمّ تنفصل عنه في مرحلتها الأخيرة، أي إنّ آخر عضو يموت وتفارقه الحياة هو (القلب) واستشهد بأقوال الأطباء القدامى أمثال ابن سينا وبالتجارب والإكتشافات الطبية الحديثة تأييداً لكلامه في التناسب بين معنيي القلب.

بناءً علىٰ هٰذا يكون استعمال لفظ القلب في الروح والصفات الروحية بهٰذا التناسب، وهو أنّ (القلب) بمعناه كعضو جسمي مظهر الروح وأول عضو تتعلّق به الروح، ويكون في أحد معانيه الواسطة في ترابط الروح مع الجسم.

ما ذكر قضية تجريبية يوكَل اثبات صحتها الىٰ علماء الطبيعة، ومن المحتمل أنّ يوجد لها رصيد علميّ، ولكن الكلام يتركّز في أنّ استعمال لفظ القلب في هٰذا المعنىٰ والمفهوم هل كان بهٰذا اللحاظ، وهو أنّ الروح تتعلّق أولاً بالقلب ثمّ تخرج منه أخيراً؟ هل إنّ كون القلب أول عضو تلج فيه الحياة وآخر عضو يموت هو السبب في استعمال لفظ القلب بمعنىٰ القوة المدركة ومركز العواطف؟ ولعل المناسب هو أن تستعمل الروح بهٰذا المعنى، فانّ الروح هي التي يتداعى منها معنىٰ الحياة، وعلىٰ أيّ حال من المستبعد أن يكون اللحاظ المذكور منشأً لإطلاق لفظ (القلب) علىٰ القوة المدركة ومركز العواطف.

ويمكن القول أيضاً: إنّ الحالات الروحية التي تنسب الىٰ القلب والروح من قبيل الفرح، والاضطراب، والخوف وغيرها يتمّ الشعور بها في القلب بصورة أكبر وأسرع من أيّ عضو آخر، والإنسان يدرك أنّ (القلب) هو العضو المرتبط بهٰذه

الحالات في جسمه، ففي حالة الغمّ والحزن يكون الصدر هو الذي يتضيّق والقلب هو الذي ينبض بصعوبة، ومنشأ عملية النبض هو القلب، وقد استعملت عبارة (ضيق الصدر) في القرآن الكريم في الموارد التي يشعر الإنسان فيها بضيق القلب، كما استعمل (شرح الصدر) في موارد الشعور بالسرور والإنبساط. وإذا كان من الواجب ان نقدِّم وجها في بيان العلاقة بين القلب بمعنىٰ العضو الخاص، وبين القلب بمعنىٰ القوة المدرِكة ومركز العواطف كان هٰذا الوجه هو الأوجه والأجمل، وإن لم يكفِ أيُّ بحث من هٰذه البحوث مؤونة حلّ المشكلة، وليس بإمكانه أن يعيننا في الإجابة عن ماهية معنىٰ القلب في القرآن الكريم. وبناءً علىٰ هٰذا يطرح هٰذا السؤال: ما السبيل لمعرفة معنىٰ القلب ومصداقه في القرآن الكريم؟ وهو ممّا ينبغي أن نجيب عنه هنا.

طريق معرفة حقيقة القلب

الطريق الوحيد الذي وجدناه لمعرفه معنىٰ (القلب) في القرآن الكريم هو أن نبحث عن الأعمال التي تنسب الىٰ القلب فيه، وما هي آثارها فنتعرف علىٰ القلب من خلال مطالعة هٰذه الآثار. إنّنا حينما نراجع موارد استعمال لفظ القلب بهٰذا الهدف نجد أنّ حالاتٍ متنوعةً وصفاتٍ مختلفةً قد نسبت الىٰ القلب والفؤاد أهمُّها هو (الإدراك) الأعمّ من الإدراك الحصولي والحضوري، وقد أُشير في القرآن الكريم - بتعابير مختلفة - الىٰ أنّ الفهم والإدراك من شؤون (القلب) و(الفؤاد) ـ الذي يستعمل كمرادف له ـ من هنا نلاحظ أنّ القرآن وبتعابير مختلفة وباستعمال ألفاظ من مجموعة (العقل والفقه والفهم والتدبر و...) ينسب الإدراك وعدمه الىٰ

القلب، أي حتّىٰ في الموضع الذي ينفي فيه الإدراك عن القلب يريد إفهام هٰذه الحقيقة، وهي أنّ القلب قد لا يؤدي وظيفته ويكون غير سليم، فيفيد أنّ شأن القلب هو أن يدرك، وعدم إدراكه يكون لعدم سلامته، ولو كان سليما لقام بعملية الإدراك بالطبع.

نواجه في القرآن الكريم آيات من قبيل الآية:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1].

إنها تعترض علىٰ بعض ذوي القلوب بأنّهم لا يفقهون، وتشير الىٰ أنّ القلب قد جعل للفهم والفقه. كما تقول آية أُخرىٰ:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[2].

تتحدّث هٰذه الآية عن أنّ قلوب هؤلاء لا تفهم آيات الله وكلام النبي ﷺ وتسند عدم فهمهم هٰذا الىٰ الحُجب والموانع التي تصدّ القلب عن أداء وظيفته، أي إنّ مقتضىٰ الفهم موجود، لأنّ القلب قد خلق للإدراك والفهم، ولكن الحجب والموانع تحول دون إنجازِ عمله.

وقد استعمل لفظ العقل في بعض الآيات، قال تعالىٰ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[3].

من خلال هٰذه الآية يمكن إدراك أنّ القلب قد خلق للتدبر وإدراك الواقع، فلابدّ للإنسان من أن يستفيد من هٰذه الوسيلة التي سخرها الله تعالىٰ للفهم بنحو مناسب، ويستخدمها لإدراك الحقائق حيث أنّ الله مهّد له الأرضية الخِصبة لكي يفهم عن طريق القلب.

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الانعام: ٢٥ كما جاءت عبارة (جعلنا علىٰ قلوبهم اكنة ان يفقهوه) في الآية ٤٧ من سورة الإسراء والآية ٥٧ من سورة الكهف.

(٣) الحج: ٤٦.

واستعمل لفظ التدبر في آية أُخرىٰ، قال تعالىٰ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

هٰذه الآية نسبت (التدبر) ضمنيا ـ وليس صريحاً ـ الىٰ القلوب، وتعاتب المنافقين علىٰ عدم فهمهم للقرآن: هل إنّهم لم يفعّلوا قلوبهم ولم يفكّروا ويتدبروا، أم إنّ هناك اقفالاً علىٰ قلوبهم، وهٰذا المانع يصدّهم عن الفهم؟ فيستفاد منها أنّ القلب موضوع للفهم، وأنّ عدم فهم هٰؤلاء مع وجود القلوب هو إمّا لأنّهم لا يستخدمون قلوبهم للفهم، أو إنّ هناك موانع للإدراك.

وبغض النظر عما ذكر فانّ القرآن يعدّ القلب ـ بلفظ (القلب) أو (الفؤاد) ـ من جملة وسائل الإدراك من قبيل السمع والبصر دائماً، كالآية:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٢].

كما يؤيد بتعابير أُخرىٰ هٰذه المسانخة في بعض الآيات كالآية:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٣].

حيث وضع القلب مرّة أُخرىٰ الىٰ جانب البصر والسمع كآلة وأداة للإدراك.

إضافةً الىٰ الإدراك الحصولي في بعض الآيات الكريمة نسب القرآن الإدراك الحضوري الىٰ القلب أو نفاه عنه بلحن الذمّ والتوبيخ، فيدلّ في مجموعه على أنّ القلب قد خلق بنحو يتمكّن من الإدراك الحضوري، وامتلاك مثل هٰذا الإدراك دليل علىٰ صحة القلب وسلامته، كما أنّ فقدانه غير متوقّع ودليل علىٰ المرض والعمىٰ.

---

(١) محمد ﷺ: ٢٤.

(٢) الإسراء: ٣٦، راجع أيضاً: النحل: ٧٨، المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٩، الاحقاف: ٢٦ والملك: ٢٣.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

ونظير هٰذه الآيات ما ورد بلفظ الفؤاد، حيث قال تعالىٰ:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾[١].

هٰذه الآيات نسبت الرؤية الىٰ القلب، ورؤية القلب هي الإدراك الحضوري في الواقع، كما نسب العمىٰ الىٰ القلوب في بعض آخر من الآيات، كالآية:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

وطبيعي أنّ العمىٰ يكون في مورد من شأنه البصر، فعدم البصر هنا ليس عدما مطلقاً، بل عدم ملكة.

والتعبير الآخر الذي يؤيد الإدراك الحضوري هي الآية النازلة في الكفار حيث تقول:

﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

فقلوبهم قد غشاها الصدأ، فلا ضياء فيها لكي تعكس الحقائق كما ينبغي.

كما أنّ هناك تعابير مختلفة ـ الىٰ جانب هٰذه الآيات ـ تشير الىٰ هٰذا المضمون، وبعبارة أُخرىٰ تدلّ على أنّ القلب إذا كان سليما فانّه يدرك الحقائق لا محالة، فانّ لم يدركها كان ذلك دليلاً علىٰ وجود نوع من الأمراض القلبية. هٰذه التعابير من قبيل الختْم أو الطبْع علىٰ القلب في الآيات:

﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾[٤].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[٥].

وكجعل الأقفال علىٰ القلوب في الآية:

---

(١) النجم: ١١ ـ ١٣.
(٢) الحج: ٤٦.
(٣) المطففين: ١٤.
(٤) الجاثية: ٢٣.
(٥) الأعراف: ١٠١.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

هٰذه التعابير ظاهرة في انّ هٰذه القلوب لا تفهم، وعدم فهمها أمر غير طبيعي ودليل علىٰ وجود المرض فيها، كما أنّ تعبير: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[٢] يحكي عن هٰذه الحقيقة.

كما أنّ من جملة التعابير التي وردت في الآيات وتدلّ على أنّ وظيفة القلب هو الإدراك هي ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣] أو ﴿بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٤] أو ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[٥] وأمثالها.

وعليه نستنتج أنّ القرآن الكريم يرىٰ أنّ الإدراك - أعمَّ من الإدراك الحصولي أو الحضوري ـ وظيفة القلب بحيث لو كان الإنسان ذا (قلب سليم) فانّ الإدراك لا محالة يتمّ بنحو جيّد، وإن لم يؤدِّ عملية الإدراك كان ذلك دليلاً علىٰ مرض القلب.

وهناك نوع آخر من الإدراك أيضاً هو الوحي الذي نجهل حقيقته، وفي القرآن الكريم أُسند تلقّي الوحي ـ هٰذا الإدراك المعقّد والمرموز ـ الىٰ القلب.

ففي هٰذا الشأن ورد أن الله تعالىٰ قد أنزل القرآن الكريم علىٰ قلب النبي ﷺ بتعابير من قبيل:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عدوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[٦].

و﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[٧].

بناءً علىٰ هٰذا فانّ تلقّي الوحي عمل قلبيٌّ أيضاً يجد مصداقه في الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) محمد ﷺ: ٢٤.
(٢) الانعام: ٢٥.
(٣) التوبة: ٤٥.
(٤) التوبة: ١١٠.
(٥) البقرة : ٨٨.
(٦) البقرة: ٩٧.
(٧) الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

إذنْ نستنتج أنّ الإدراك الحصولي عمل قلبيٌّ يتمّ بالتعقل والتفقّه والتدبر وهكذا الإدراك الحضوري أوالرؤية الحضورية وتلقّي الوحي فانّه عمل قلبيٌّ.

والحاصل إنّ الإدراك بمعناه العريض والأعمّ من الحصولي والحضوري والإعتيادي وغير الإعتيادي عمل يرتبط بالقلب، وصفة يوصف بهاالقلب بتعابير مختلفة.

القلب والشعور الباطني

من الأمور التي تُسند الىٰ القلب وتُعدّ من آثاره هي حالات الانفعال والشعور الباطني. و قد أسند القرآن هٰذه الحالات بتعابير مختلفة الىٰ القلب، ومنها الشعور بـ(الخوف) الذي يُعدّ من الحالات والانفعالات القلبية، ونلاحظ آيات في هٰذا المجال، من قبيل الآية:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[١].

والآية:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[٢].

ففي هاتين الآيتين تمّ استعمال لفظين مشتقين من مادة (وَجَل) التي تُستعمل في معنىٰ الشعور بالخوف.

وفي آيات أُخرىٰ استُعمل لفظ (رُعْب) وهو الآخر يعني الشعور بالخوف مع هٰذا الفارق ظاهراً، وهو أنّه يتصف بشدّة أكبر، ويستعمل غالباً في موارد الخوف

---

(١) الانفال: ٢.   (٢) المؤمنون: ٦٠.

السلبي من قبيل الآية: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[١].

كما جاء هٰذا التعبير في آية أُخرىٰ: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[٢].

والشعور بـ(الاضطراب) من المشاعر الباطنية للقلب كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[٣].

كما أنّ الله يبيّن اضطراب وقلق أمّ موسى عليه السلام حينما ألقته في النيل والتقطه آل فرعون من الماء بهٰذا النحو:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

يُستفاد من هٰذه الآية جيّداً بأن (القلب) يساوي (الفؤاد).

ومن جملة المشاعر الباطنية والحالات التي يسندها القرآن.الىٰ (القلب) هو (الحسرة) و(الغيظ) حيث يقول: ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٥].

ويقول في آية أُخرىٰ: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[٦].

ومن الحالات التي تسند الىٰ القلب هي (القسوة) و(الغِلظة) بتعابير من قبيل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[٧] أو ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٨] أو ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[٩].

كما خاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مورد الغلظة:

---

(١) آل عمران: ١٥١ وباختلاف طفيف الانفال: ١٢.

(٢) الحشر: ٢.

(٣) النازعات: ٨.

(٤) القصص: ١٠.

(٥) آل عمران: ١٥٦.

(٦) التوبة ١٥.

(٧) الزمر: ٢٢.

(٨) البقرة: ٧٤.

(٩) المائدة: ١٣.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١].

فالغلظة تقع في النقطة المقابلة للّين كما جاء في صدر هٰذه الآية:

﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

كما أُسند ما يقابل الحالات المذكورة من قبيل حالة (الخشوع)، و(اللين)، و(الرأفة)، و(الرحمة) و(الإخبات) الىٰ القلب في القرآن من قبيل الآية:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٢].

حيث وضع خشوع القلب قبال قسوة القلب، والآية:

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[٣].

والآية: ﴿وَجَعَلْنَا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[٤].

والآية: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[٥].

وهناك حالات أُخرىٰ من قبيل (الغفلة) و(الإثم) قد أُسندت في القرآن الكريم الىٰ القلب أيضاً كما جاء في الآية:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[٦].

وجاء في آية أُخرىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٧].

وهكذا اعتبر (الذكر) و(التوجه) و(الإنابة) و(القصد) و(العمد) من حالات القلب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٨].

---

(١) آل عمران: ١٥٩. (٢) الحديد: ١٦.
(٣) الزمر: ٢٣. (٤) الحديد: ٢٧.
(٥) الحج: ٥٤. (٦) الكهف: ٢٨.
(٧) البقرة: ٢٨٣. (٨) ق: ٣٧.

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾[١].

وجاء في آية أُخرىٰ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢].

وفي آية أُخرىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٣].

وقال في آية أُخرىٰ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[٤].

كما أن (الاطمئنان) و(السكينة) و(التثبيت) صفات يتصف بها القلب في القرآن الكريم حيث نلاحظ تعابير من قبيل:

﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[٥] و﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾[٦]. و﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٧] وأمثالها[٨] في إسناد الاطمئنان والسكينة الىٰ القلب، كما جاء في آية أُخرىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٩].

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١٠].

وفي آية أُخرىٰ:

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١١].

ومن الصفات التي تستقر في القلب: صفتا (الإيمان) و(التقوىٰ) حيث قال

---

(١) الرعد: ٢٨.
(٢) الاحزاب: ٥.
(٣) البقرة: ٢٢٥.
(٤) ق: ٣٣.
(٥) النحل: ١٠٦.
(٦) الرعد: ٢٨.
(٧) البقرة: ٢٦٠.
(٨) كالآيات: آل عمران: ٢٦ والمائدة: ١١٣ و...
(٩) الفتح: ٤.
(١٠) الفرقان: ٣٢.
(١١) هود: ١٢٠.

تعالىٰ في آية: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

وقال في آية أُخرىٰ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[2].

كما جاء عن التقوىٰ في بعض الآيات:

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[3].

كما جاء: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[4].

ويمكن القول: إنّ القرآن الكريم يرىٰ أنّ (الطمع) يرتبط بالقلب أيضاً حيث يقول في آية: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[5].

و(الزيغ) أيضاً من الحالات التي يسندها القرآن الىٰ القلب في هٰذه العبارة التي قال فيها: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾[6].

كما أن (الإشمئزاز) أُسند الىٰ القلب في الآية: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[7].

وهكذا اعتبر (الصَغْوِ) و(اللهو) من صفات (القلب) في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[8]. ويقول: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[9].

---

(١) الحجرات: ١٤.
(٢) المجادلة: ٢٢.
(٣) الحج: ٣٢.
(٤) الحجرات: ٣.
(٥) الاحزاب: ٣٢.
(٦) التوبة: ١١٧ و(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) آل عمران: ٧، (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) الصف: ٥.
(٧) الزمر: ٤٥.
(٨) التحريم: ٤.
(٩) الانعام: ١١٣.

ويقول في آية أُخرىٰ: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[١].

كما أسند (الإباء) و(الإنكار) و(الكذب) و(النفاق) الىٰ القلب في آيات مختلفة، كالآية: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢].

والآية: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

والآية: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾[٤].

والآية: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[٥].

حيث نفت الكذب عن القلب، الاّ أنّ نفي الكذب عن القلب يعني إثبات شأنية القلب لنسبة الصدق والكذب إليه، على أنّ نفي الكذب سيكون في ذاته إثباتاً للصدق.

كما أنّ (الحميّة) قد أُسندت الىٰ (القلب) في بعض الآيات، حيث يقول تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[٦].

كما أُسند (الفزع) الىٰ القلب في الآية:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[٧].

كما اعتبرت (الطهارة) و(الامتحان) من شؤون (القلب) وأُسندا الىٰ القلب في الآيات القرآنية، كالآية: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[٨].

والآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[٩].

---

(١) الأنبياء: ٣.
(٢) التوبة: ٨.
(٣) النحل: ٢٢.
(٤) التوبة: ٧٧.
(٥) النجم: ١١.
(٦) الفتح: ٢٦.
(٧) سبأ: ٢٣.
(٨) الاحزاب: ٥٣.
(٩) المائدة: ٤١.

فالآيات كلها تشير الىٰ أنّ المراد هو الطهارة والتطهير المعنوي مـن التـلوث وأهواء النفس، كالآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[١].

كما أنّ من جملة صفات (القلب) صفتَي (السلامة) و(المرض) كما قال تعالىٰ في الآية: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

وقال في آية أُخرىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيم * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

وكالآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾[٤].

وأمثال هٰذه الآيات التي تشير قرائنها الىٰ أنّ المراد من السلامة والمرض ليس السلامة والمرض الطبيعيّين والماديّين لكي يتطابق مع (القلب) المادي الكائن في الصدر، بل السلامة والمرض المعنويّين.

كما أُسند (الشوق) و(الميل) الىٰ القلب حيث قال تعالىٰ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٥].

كما أنّ (التآلف) و(الأُنس) و(الإستئناس) مع الآخرين عمليات قلبية حـيث جاء: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[٦].

وجاء في آية أُخرىٰ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٧].

---

(١) الحجرات: ٣.
(٢) الشعراء: ٨٨ و ٨٩.
(٣) الصافات: ٨٣ و ٨٤.
(٤) البقرة: ١٠.
(٥) ابراهيم: ٣٧.
(٦) آل عمران: ١٠٣.
(٧) الانفال: ٦٣.

وبملاحظة الصفات والأمور المتنوعة التي نسبت الىٰ (القلب) في القرآن الكريم من قبيل الإدراك، والتدبر، والخوف والاضطراب، والحسرة والغيظ، والقسوة والغلظة، والغفلة والمعصية، والزيغ والكذب، والنفاق والانكار، والذكر والتوجة، والإنابة والإيمان، والتقوىٰ والاطمئنان والسكينة والخشوع والرحمة والرأفة واللين والأُنس والأُلفة والصفات والأعمال المتعدّدة والمتنوعة الأُخرىٰ علىٰ التفصيل المذكور آنفاً ـ يمكن الإستنتاج جيّداً بأنّ مصطلح القلب في القرآن يختلف تماماً مع القلب المادي، ولعله يمكن القول: إنّ القلب بمعناه الجسماني لم يستعمل في موضع من القرآن، لانّه لا يمكن اسناد أيّ واحد من هٰذه الأعمال الىٰ عضو جسمي، وحتّىٰ بعض الصفات النادرة كالسلامة والمرض اللّذين يمكن أن يكونا من صفات القلب المادي فانّ القرائن الحافة بالكلام تدلّ جيّداً علىٰ أنّ المراد من السلامة والمرض ليس المعنىٰ المادي والجسماني منهما، بل الجهات الروحية والأخلاقية والمعنويّة.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ (القلب) في المصطلح القرآني موجود يتولّى مهمة القيام بهٰذه الأعمال: الإدراك، والتدبر، وتركيز المشاعر، واتخاذ القرار، والصداقة والعداوة و... ويمكن الادعاء بأن المراد من القلب هو الروح والنفس الإنسانية التي يمكن أن تكون منشأً لجميع الصفات السامية والخصائص الإنسانية، أو منشأً للإنحطاط والرذائل الإنسانية. ويمكن ادعاء هٰذه الحقيقة وهي عدم إمكان العثور علىٰ بُعد من أبعاد النفس الإنسانية، وصفة من الصفات، أو عمل من أعمال الروح الإنسانية آبٍ عن الإسناد الىٰ القلب. نعم، يمكن استثناء مورد واحد وهو أنّ الروح منشأ الحياة لا يصحّ إسنادها الىٰ القلب. لكن لابدّ من الإلتفات الىٰ أنّ المراد من الحياة

هنا هي الحياة النباتية والحيوانية، والمراد من الروح هي الروح النباتية والحيوانية، أو هي ـ علىٰ الأقل ـ أعمُّ وتشملهما، ولكـن لو اعـتبرنا الحـياة بـمعنىٰ الحـياة الإنسانية كما قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

في هٰذه الحالة يمكن أن نسندها الىٰ القلب أيضاً، لأن الحياة الإنسـانية فـي الحقيقة ليست غير هٰذه الصفات السامية والخصائص والامتيازات التي تنبع من القلب وتستقر فيه.الاّ أن نقول: إنّ الإنسان لا يملك غير روح واحدة، وهي منشأ حياته النباتية وهكذا الحيوانية والإنسانية. بناءً عليه تكون له روح واحدة كاملة، فهي إضافةً الىٰ دَورها كروح نباتية وحيوانية تمتلك امتيازات وخصائص إنسانية تمتاز بها عن الأرواح النباتية والحيوانية. وبهٰذا الفرض يكون القلب أحد أبـعاد روح الإنسان، وعبارة عن تلك المرتبة الروحـيه التـي تكـون مـنشأً للـصفات والخصال الإنسانية التي ذكرناها تفصيلاً. وعلى هٰذا المبنى يمكن القول: إن الروح منشأ للحياة الحيوانية والنباتية، ولكن لا يمكن اسناد ذلك الىٰ (القلب) باصطلاحه القرآني.

الملاحظة الأُخرىٰ التي يمكن استنتاجها من الآيات هي أنّ للفؤاد معنىٰ القلب ذاته مع فارق أنّ (القلب) إذا كان لفظاً مشتركاً بين (القلب) الجسماني و(القلب) غير الجسماني فانّ الفؤاد يستعمل في (القلب) غير الجسماني فقط، وهٰذا ـ طبعا ـ فارق في الإستعمال العرفي للّفظَين لا الإستعمال القرآني، إذ كما أشـرنا آنـفاً لم يستعمل القلب في القرآن بمعنىٰ القلب المادي أبداً، وبناءً عليه فلا وجود لفارق

(١) الانفال: ٢٤.

بهٰذا النحو بين (القلب) و(الفؤاد) في الإستعمال القرآني بهٰذا المعنى، والدليل على أنّ الفؤاد والقلب متحدان في القرآن هو قوله تعالىٰ:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

هٰذه الآية استعملت لفظي (القلب) و(الفؤاد) بمعنىٰ واحد وأطلقتهما علىٰ شيء واحد.

الدليل الآخر هو أنّ أعمالاً وصفاتٍ متشابهةً قد أُسندت إليهما في آيات مختلفة، كما يتضح ذلك من التأمّل في الآيات التي مرّ ذكرها.

ما معنىٰ الصدر؟

التعبير الآخر الذي يلاحظ في القرآن الكريم هو لفظ «الصدر» من قبيل شرح الصدر أو ضيق الصدر، فما هو المراد من الصدر في الآيات الكريمة؟

في الإجابة عن هٰذا السؤال يمكن القول: المراد من الصدر هو ما يعتبر وعاءً وموضعاً للقلب. وعلى هٰذا فانّ القلب إذا كان ماديّاً فالصدر مادي أيضاً وسيكون موضعه، وفي القلب المعنوي سيكون الصدر أيضاًبما يناسبه موضعاً غير جسماني، أي إنّ القلب بمضمونه المعنوي ـ وإن لم يكن أمراً جسمانياً لكي يكون وعاءً وموضعاً جسمانياً ـ قد اعتبر له ما يشابه الظرف أيضاً، وذلك نظراً الىٰ أُنس أذهاننا بالماديات والمحسوسات، ويتصور للقلب المادي وعاء باسم الصدر ويمثّل فضاءً

---

(١) القصص: ١٠.

أوسع من القلب ويحويه، فقد قدّر للأمور المعنويّة مثل هٰذا التقدير أيضاً وهو أنّ روح الإنسان وعاء لقلبه وعبّر عنها بالصدر، كهٰذه الآية التي تقول:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

إذنْ المراد من الصدر هو الروح ومرجع ضيق الصدر وشرحه الىٰ احساس الروح بالضيق والانشراح.

الحصيلة: يمكن تقسيم خصوصيات القلب التي ذكرناها تفصيلاً الىٰ ثلاث مجموعات: الأُولىٰ ترتبط ـ سلبا أو إيجابا ـ بأنواع المعرفة المختلفة. والثانية ترتبط ببُعد الميول والأحاسيس المتنوعة. والثالثة هي الخصوصيات التي ترتبط بالقصد والارادة والنية.

من اللازم هنا التذكير بهٰذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان في البداية لا فعلية فيه لأيّ بُعد من الأبعاد المذكورة غير مجموعة من الغرائز الحيوانية كغريزة الميل الىٰ الطعام. فالمعرفة في الإنسان تكون بالقوة ولا فعلية لها كما قال تعالىٰ:

﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[٢].

والقدر المتيقن هو أن لا وجود في البداية لمعرفة واعية لبني الإنسان الإعتياديين، وهكذا الميول التي تظهر في روح الإنسان إذ لا وجود لها في بدء الخلق الاّ بالقوة، وتتحقّق بالفعل علىٰ مدىٰ سنين ومراحل مختلفة للحياة وفي ظروف مؤاتية.

فهٰذه الأمور توجد بالقوة في النفس وتصل الىٰ الفعلية تدريجيّاً، الاّ أنّ فعليتها غير متساوية، إذْ إنّ بعضها تصبح فعلية بصورة ذاتية وليس لاكتساب الإنسان واختياره دور يذكر في فعليتها كالغريزة الجنسية، وبعض آخر من الغرائز والأمور

---

(١) الحج: ٤٦. (٢) النحل: ٧٨.

الفطريّة وغير الإكتسابية التي تجد فعليتها وتصل الىٰ حدّ بلوغها ونضجها في ظروف طبيعية خاصّة. فالإدراكات الحسية في بُعد المعرفة تحصل للإنسان بصورة غير اكتسابية، بمعنىٰ أنّ إعداد أسباب الإدراكات الحسية ليس اكتسابيا. وهٰذا النوع من الإدراكات يحصل للإنسان في ظروف خاصّة بنحو طبيعي وإن كان بمقدوره الحيلولة دون تحقّق الكثير منها، بأن لا يرىٰ بعض الأشياء ولا يسمع بعض الأصوات، ويتحكم بسائر حواسه الىٰ حدّ ما.

الملاحظة الأُخرىٰ التي ينبغي التذكير بها هي أنّ ما كان من هٰذه الأبعاد غير اكتسابي ويحصل بصورة طبيعية، ونظراً لعدم دخل اختيار الإنسان فيها فلا يمكن دخوله في دائرة الأخلاقِ ليكون موضوعاً للمدح والذمّ أخلاقياً، كما هو حال الإنسان في امتلاكه الثروات الطبيعية والقابليات الإلٰهيّة القهريّة فانّه لا يمدح أو يذمّ عليه أخلاقياً،ولا يتعلّق بها أجر أو عقاب، ولكنه في المواضع التي يكون لاكتساب الإنسان واختياره دور في فعلية هٰذه الأبعاد يدخل في نطاق الأخلاق ويكون ذا قيمة أخلاقية إيجابيّة أو سلبية. وأما الجهل الفطري والطبيعي الذي يصاحب خلق الإنسان وإن كان أمراً غير اختياري وليس فيه ذمّ أخلاقي، الاّ أنّ طلب العلم والمعرفة والخروج من الجهل الفطري أمر اختياري تماماً، فيمكن أن يعدّ في مجموعة الموضوعات الأخلاقية.

* * *

القسم الثاني

علاقة الإنسان مع الله

١

معرفة اللّه تعالىٰ

ما معنىٰ معرفة الله؟

قيمة معرفة الله

علاقة معرفة الله مع الإيمان

طريق معرفة الله

دوافع معرفة الله

معرفة اللّه تعالىٰ

ذكرنا أنّ صفات الإنسان وأفعاله الاختيارية تدخل في نطاق الأبحاث الأخلاقية والقيمية، ويمكن أن تقسّم حسب متعلقاتها الىٰ مجموعات ثلاث:

ترتبط الأُولى بالله تعالىٰ، والثانية بالإنسان نفسه، والثالثة بمخلوقات الله تعالىٰ.

في المجموعة الأُولى يعتبر (الإيمان) أول فعل نفساني للإنسان ذي علاقة بالله تعالىٰ حيث قلنا آنفا: إنّه الأصل لقيمة سائر الأفعال والصفات الأخلاقية، وقلنا أيضاً: نظراً الىٰ أنّ حقيقة الإيمان هي نوع من أفعال الإنسان الاختيارية فانّه يدخل في نطاق الأخلاق والأبحاث الأخلاقية، وكما قلنا:

الشرط الضروري لانعقاد الإيمان في نفس الإنسان هو معرفة متعلّق الإيمان، ونظراً الىٰ أنّ العلم يحصل عادةً بطرق اختيارية أمكن أن يكون من زمرة الأفعال الاختيارية القيّمة.

بناءً علىٰ هٰذا نستنتج أنّ تحصيل العلم بالنسبة لمتعلّق الإيمان من قبيل (الله عزوجلّ، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث والنشور والحساب) شرط لازم لانعقاد الإيمان في النفس، كما أنّ الإيمان شرط لازم وأساس لسائر القيم

الأخلاقية.

من هنا ينبغي المبادرة بالبحث ـ قبل كلّ شيء ـ حول طلب العلم ومعرفة الله سبحانه، ويعتبر ذلك محوراً لسائر الأمور، ونجيب عن اسئلة يمكن طرحها في هٰذا المجال من قبيل: ما المراد من معرفة الله؟ كيف تتمّ معرفة الله؟ ما هي قيمة معرفة الله؟ ما هي آفات وموانع المعرفة؟ إنها مهمة الأخلاق وعالِم الاخلاق، فعليه أن يحدّد درجة أهمية كلّ شيء وقيمته، ومنه هٰذا العلم وبيان طريق تحصيله وصيانته للآخرين من خلال دراسة موانعه وآفاته.

ما معنىٰ معرفة الله؟

تكون معرفة الإنسان بالله علىٰ نحوين: المعرفة الحضورية والمعرفة الحصولية، وتنقسم المعرفة الحضورية الىٰ صورتين عامتين:

الصورة الأُولى هي الإدراك الفطري أو المعرفة الإلٰهيّة الفطريّة، وقد تمّ بحثها في قسم معرفة الله تعالىٰ من معارف القرآن وقلنا: إنّ آيتي الميثاق والفطرة ناظرتان الىٰ المعرفة الإلٰهيّة الفطريّة والإدراك الحضوري الضعيف والعلم نصف الواعي. إنّ العلم الحضوري في صورته الفطريّة غير اكتسابي وخارج عن دائرة اختيار الإنسان وإرادته، ولا يدخل في نطاق علم الأخلاق طبعاً، إنّ الإدراك الفطري لدىٰ أغلب الناس هو مجرّد استعداد ومادة أولية، بوسع من توفّرتْ لديه أن يخرجها من الإستعداد الىٰ الفعلية، ومن حالة الابهام الىٰ مرحلة الإدراك الحضوري الواعي.

الصورة الثانية: هي العلم الحضوري الذي يكتسبه الإنسان بنشاطه النفسي،

ويكون أهلاً لإفاضة هٰذا العلم الواضح والواعي من مبدأ الفيض بعد اجتياز مراحل التكامل. والعلم الحضوري تشكيكي أيضاً ذو مراحل آخرها هي الغاية النهائية من الخلق والغاية القصوى للكمال الإنساني، والهدف من خلق الإنسان أساساً هو الوصول الىٰ تلك الدرجة.

من هنا ينبغي أن تتّجه الأفعال الأخلاقية نحو تلك الغاية، وتقع في طريق الوصول الىٰ هٰذه المرتبة من الكمال الإنساني. إنّ الآيات القرآنية والروايات تشير أيضاً الىٰ هٰذه الحقيقة بتعبيرات مختلفة من قبيل الرؤية، والشهود، والنظر وغيرها وتدلّ على أنّ أولياء الله ينالون ذلك في العالم الآخَر، وبذلك يكونون قد بلغوا سعادتهم الأبدية، من قبيل قوله تعالىٰ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١].

أو قوله تعالىٰ:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢].

من البديهي أنّ هٰذه المرحلة النهائية ـ والإدراك الحضوري الواضح أيضاً ـ ليست في متناول الإنسان مباشرةً، بل إنّها أمر يفيضه الله ويعطيه بلطفه وكرمه لعباده المخلصين وبني الإنسان الصالحين، لكن مقدّمات الوصول الىٰ هٰذا المقام وإفاضة هٰذا الكمال اختيارية، لأنّ الوصول الىٰ هٰذا الإدراك الحضوري والسموّ الإنساني يحصل كنتيجة للأفعال الاختيارية التي إنْ وُجّهت بنحو صحيح ستنتهي بذلك المقام، وإفاضة هٰذا الكمال في الواقع هو جزاء لبعض الأفعال لاختيارية، الأفعال التي تنجز بنحو صحيح وحسن فيكون أجرها تامّاً وكاملاً في العالم

---

(١) القيامة: ٢٢ و ٢٣. (٢) الانعام: ٧٥.

الآخر، وإن كان ممكنا أن يحظىٰ أولياء الله في هٰذا العالم بمراتب دانية من هـٰذا الإدراك الحضوري علىٰ صورة حال أو ملكة.

وينبغي الإلتفات الىٰ أنّ هدفنا في هٰذا البحث عن المعرفة الإلٰهيّة لا يمكن أن يكون شيئاً من هٰذين الإدراكين الحضوريين ـ الإدراك الفطري المبهم والإدراك الحضوري الواضح ـ لقولنا عدم وقوع أيّ منهما تحت اختيارنا، والإدراك الحضوري الفطري الأول ليس اكتسابيا من الأساس، والإدراك الثاني وإن كان اكتسابيا الاّ أنه ليس تحت إرادتنا مباشرةً ولا يتحصل بدون مقدمة، ويطرح كهدف أعلىٰ للسلوك الاختياري.

بناءً علىٰ هٰذا فالمناسب لهٰذا المقال ويكون مقصوداً لنا أمران:

الأول: الإدراكات الحصولية والإستدلالية والتحليلية والعقلية التي يمكن أن نكتسبها بشأن الله عزّوجلّ وصفاته وأفعاله.

الثاني: الأعمال الصالحة الاختيارية للإنسان، والتي يمكن أن تكون مؤثرة في اقتراب الإنسان من مرحلة الكمال النهائي والإدراك الحضوري الواعي.

علىٰ هٰذا الأساس يمكن القول: إنّ الموضوع المقصود في هـٰذا البحث هو المعرفة الإلٰهيّة الحصولية بمعناها العامّ الذي يشمل التصديق بأصل وجود الله تعالىٰ وتوحيده، وسائر اسمائه وصفاته وأفعاله التي وردت في القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام ويمكن إثباتها ومعرفتها عقلاً، كما يشمل الهداية التي تتمّ علىٰ يد الأنبياء عليهم السلام ممّا يتعلّق بمعرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله حتّىٰ الحساب والجزاء والعقاب في عالم الآخرة، من حيث اعتبارها من جملة الأفعال الإلٰهيّة، وتدخل جميعاً في نطاق المعرفة الإلٰهيّة.

قيمة المعرفة الإلٰهيّة

هدفنا من طرح هٰذا البحث الأخلاقي هو أن نقيّم المعرفة الإلٰهيّة بهٰذا المضمون وفي هٰذه الحدود، وسؤالنا هو: ما قيمة المعرفة الإلٰهيّة أخلاقياً؟

في الإجابة نقول: نظراً الىٰ أنّ الأصل في القيم الأخلاقية كافة هو الإيمان بالله تعالىٰ، ومن وجهة نظر الإسلام لا يكون العمل قيّما مالم يؤدَّ بدافع الإيمان، ومع اعتبار توقف الإيمان علىٰ المعرفة، حتّىٰ أنّ للنقص والكمال في المعرفة تأثيرَهما الدقيق في كمال الإيمان ونقصه، وكلما اتصفتْ معرفة الإنسان بحَيويّة وعمق أكبر امتاز ايمانه بحيوية وعمق بتلك النسبة ذاتها. إنّ النتيجة الطبيعية لهاتين المقدّمتين هو أن يُعدَّ العلم والمعرفة بمتعلّق الإيمان من جملة المبادئ والأُسس للقيم الأخلاقية. وكما أنّ الإيمان حقيقة تشكيكية ذو شدّة وضعف ـ الاّ أنّه كلما كان أكثر حيويةً وقوةً دفع الإنسان نحو نشاط وسعي أكبر ونظام سلوكي أدق، ويوجب أخيراً قيماً أسمى فيما يتعلّق بالفوز والفلاح والسعادة الأبدية للإنسان ـ تكون للعلم والمعرفة ذات النسبة من الشدّة والضعف أيضاً، وكلما كانتا أكثر كمالاً أوجدتا قيمة أسمى عن طريق التأثير علىٰ الإيمان، وكان لهما تأثير أعمق في وصول الإنسان الىٰ سعادته الخالدة، والىٰ أكثر القيم والكمالات اصالةً في حياته.

وكنتيجة: لكي يصل الإنسان الىٰ سعادة أكبر من الضروري أن يقوّي ايمانه، ولتحصيل الإيمان الأقوىٰ لابدّ من المزيد من المعرفة كشرط ضروري الىٰ جانب الشروط الأخرى.

المعرفة الإلٰهيّة والإيمان

يمكن القول: إنّ المعرفة الإلٰهيّة الحصولية التي تُكتسب باستخدام المفاهيم

والتحليل الذهني والإستدلال العقلي هي عبارة عن مجموعة من القضايا في دائرة المسائل المتعلقة بالمعرفة الإلٰهيّة التي تطرح علمياً وفلسفياً وكلامياً. القضايا التي تكون ذات موضوعات ومحمولات ينبغي تعريفها، ونسبٍ يمكن أن تنال تأييد الإنسان وتصديقه باقامة البرهان. أي إنّنا كما نفكّر في مسألة رياضية ونتوصل الىٰ طريقة لحلها، لابدّ أن نفكّر بدقةٍ في المسائل والمشكلات التي تعترض المعرفة الإلٰهيّة، ونبادر بمعونة رجال الفكر لحلها وفك عُقدها المبهمة. وإنْافترقت المعرفة الإلٰهيّة عن العلوم الرياضية من جهة أُخرىٰ، لأنّ الأخيرة لا دور لها في سلوك الإنسان ومسيرة تكامله الإنساني والأخلاقي، ويغفل عنها غالباً، الاّ أن يمارسها الإنسان في وظيفته ومهنته اليومية، كالمهندس الذي يمارس الهندسة غالباً، أو المحاسب الذي يضطر لاستخدام القواعد الهندسية والقوانين الرياضية يوميا بمقتضىٰ عمله ومهنته، ويكون هٰذا العلم فيه حياً وفعالاً، على عكس الكثير من الذين قاموا بحل المسائل الرياضية ولهم القدرة علىٰ حلها، الاّ أنّهم يغفلون عنها نظراً لعدم التأثير الكبير للعلوم الرياضية علىٰ حياتهم.

إنّ المعرفة الإلٰهيّة علم له تأثيره علىٰ تكاملنا الأخلاقي والإنساني والمعنوي، الاّ أنّها ـ بلحاظ تأثير تطبيقها الدائم والإهتمام المتواصل بها علىٰ بقائها حيةً ومؤثرةً وفعالةً ـ كالرياضيات والهندسة تماماً. إنّنا لو طالعنا ولاحظنا القضايا الفلسفية والكلامية المتعلقة بالمعرفة الإلٰهيّة وأدلتها وبراهينها مرّة واحدة، بل وتعمّقنا فيها، ثبت لدينا وجود الله بوضوح بالأدلة والبراهين القاطعة، ولكن لو احتفظنا بها في ذاكرتنا، ثمّ غفلنا عنها عملياً فانّ هٰذه المعرفة سوف لا تبقى حيةً، ولا يمكن أن يكون لها تأثير بالغ علىٰ حياتنا وتكاملنا ما لم نهتمّ بها يوميا وبنحو متكرر، ونراجعها في فرص مناسبة ونحاول استحضار تلك المعلومات في أذهاننا

الواعية، وبهٰذا النحو تكون المعرفة الإلٰهيّة فينا حيّة وفعالة، وتلعب دورها في حياتنا العملية، وتنظيم سلوكنا وتكاملنا المعنوي والأخلاقي وسموّنا الإنساني وتوجيه أعمالنا ونشاطنا اليومي. وهٰذه هي المعرفة الإلٰهيّة التي يؤكّد القرآن الكريم على آثارها حيث يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ في صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[(١)].

أجل، فانّ مثل هٰذه الآيات التي تُلاحظ كثيراً في القرآن الكريم تحثّ علىٰ الإيمان الحي والمؤثّر عملياً، والذي ينبع من المعرفة الإلٰهيّة الحية والناشطة.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ المعرفة يمكن أن تؤثر في تكامل الإيمان بلحاظين وعَبر قناتين:

الأُولى من ناحية الكيفية، أي كلما كانت معرفة الإنسان أقوىٰ في قطعيتها وأرسخ وأوضح وأبعد من الشك والإبهام والتردد، وبلغت حدّ اليقين وترسخت في مرحلة اليقين فانّه يحظىٰ بايمان أقوىٰ، وتصديق أعلىٰ، والتزام عملي أشمل وأعمق.

الثانية: كلما اشتدّ اهتمام الإنسان بالمعرفة الحاصلة وتكررتْ مراجعته إليها وسعى لجعلها مؤثّرة في حياته العملية واليومية، فمن الطبيعي أن لا تنسىٰ هٰذه المعرفة وتبقى مؤثّرة علىٰ ايمانه الحي والفعّال.

بناءً علىٰ هٰذا يكون لمراتب العلم والإلتفات المتكرر إليها التأثير البالغ في تنمية الإيمان وترسيخه وبقائه وحياته و... من هنا ندرك السبب في تأكيد القرآن

---

(١) المؤمنون: ١ - ٥.

الكريم الخاصّ علىٰ فضيلة العلم والمعرفة، حيث أنّ الآيات الكريمة النازلة في فضيلة العلم يمكن القول بوضوح أنّ اكمل وأوضح مصاديقه هو العلم بـذات الله عزّوجلّ وأفعاله وصفاته، وتمثّل هٰذه المعرفة القدرَ المتيقن من مصاديق العلم في الآيات المطلقة، فضلا عن الآيات التي ينحصر ظهورها في هٰذا النوع من العلم.
ويمكن القول أيضاً: إن ملاك فضيلة العلم ومعيار سموّه يعودان أيضاً الىٰ تأثيره علىٰ الإيمان، ومن خلاله علىٰ السلوك، ومن خلال الأخير علىٰ السعادة الدنيويّة والخالدة للإنسان، ويكون منشأً للحياة الماديّة والمعنويّة والفردية والاجتماعية الفاضلة والسعيدة للإنسان، قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

طريق معرفة الله

الآن وبعد اتضاح مفهوم معرفة الله وعلاقتها بالإيمان وقيمتها السامية يُطرح هٰذا السؤال: كيف يدرك الإنسان تلك المعرفة القيّمة؟

في الإجابة عن السؤال نقول: القضايا العلمية علىٰ نحوين: القضايا البـديهية التي يكفي لتصديقها تصور الموضوع والمحمول والنسبة بينهما، والقـضايا غـير البديهية التي يحتاج التصديق بها الىٰ أمر غير التصور وهو «الدليل» بمعناه العامّ.
ولا ينحصر طريق تحصيل المعرفة ـ طبعاً ـ في البرهان العقلي، بل حسب تناسب الموضوعات التي تنالها معرفة الإنسان يمكن استخدام طـرق مـتنوعة أُخـرىٰ

(١) الانفال: ٢٤.

كالتجربة في الموضوعات العلمية، والنقل في الموضوعات التأريخية، وأحاديث المعصومين في الموضوعات الفقهية وغيرها، فكلّ واحدة منها تقدِّم معرفة في موضوعها المتناسب معها، ولكن المعرفة الإلٰهيّة لا يوجد فيها غير طريق واحد وهو البرهان العقلي. فعندما يكون موضوع المعرفة هو الله سبحانه فلا معنىٰ للاستناد الىٰ نقل الآخرين حتّىٰ النبي ﷺ أو الائمة المعصومين عليهم السلام. بناءً علىٰ هٰذا يكون الطريق الوحيد لمعرفة الله هو البرهان العقلي. ومن الواضح - كما قلنا آنفاً - إن بحثنا هنا هو المعرفة الإلٰهيّة الحصولية وليس الحضورية التي لا تكتسب عن طريق الإستدلال والبرهان العقلي، وطريق الوصول إليها هو عبادة الله تعالىٰ وتركيز التوجّه إليه سبحانه.

في مجال المعرفه الإلٰهيّة الحصولية توجد براهين واضحة ومطمئنة لا نستعرضها هنا، وللتعرف عليها يمكن مراجعة العلوم ذات العلاقة بها كعلم الكلام والفلسفة. الأمر الوحيد الذي ينبغي التذكير به هو أن براهين المعرفة الإلٰهيّة تستند غالباً الىٰ مقدمات وأصول موضوعة، بحيث يتوقف الإدراك الحقيقي لتلك البراهين علىٰ إدراك هٰذه المقدّمات، ويتمّ إدراك تلك المقدّمات بالممارسة والأُنس مع المنطق وعلم الكلام والفلسفة. من هنا فانّ بيان هٰذه الموضوعات وطرح هٰذه البراهين علىٰ الأشخاص الإعتياديين والجاهلين بالعلوم المذكورة لا يكون عديم الفائدة فحسب، بل قد يكون ضاراً ومثيراً للشبهات في أذهانهم، ولا يدركون الردود عليها سريعاً. إذنْ من الضروري في التعليم أن نأخذ بعين الإعتبار مستوىٰ إدراك المتعلم ونقوم بتعليم القضايا المقصودة مراعين قابلية الإدراك ومستوىٰ الفهم، ونحترز من طرح الشبهات المعقَّدة التي يشكل ردّها، لكي لا نكون سبباً للإضلال بدلاً عن الهداية.

يمكن القول انّ أفضل منهج للمعرفة الإلٰهيّة هو منهج الأولياء والأنبياء وأفضلها

هو منهج القرآن، هٰذا الكتاب السماوي وكلام الله تعالى، ويمكن الإستعانة بـهٰذه المناهج لنشر المعرفة الالٰهيّة بين عامّة الناس، ولا نقصد طبعاً الحـط مـن شـأن الأبحاث الكلامية والفلسفية، بل نريد القول: إنّ طرح هٰذا النـوع مـن الأبـحاث يكون نافعاً لفئة خاصّة من ذوي الأفهام المتوقدة، والمطلعة علىٰ الفسلفة وعـلم الكلام، و ليس لعامّة الناس، أو عند ضرورة الردّ عـلى الشـبهات التـي يـثيرها الآخرون. ولكن في التعليم الابتدائي للأشخاص الإعتياديين لا تتوقف المعرفة الإلٰهيّة علىٰ طرح القضايا الفلسفية المعقَّدة وإدراك مصطلحاتها العويصة، حتّىٰ إذا عجزوا عن إدراكها يئسوا من معرفة الله أيضاً. نستنتج من ذلك أنّ طريق المعرفة الإلٰهيّة هو إقامة البرهان العقلي، والقرآن يقيم البرهان أيضاً في مـجال المـعرفة الإلٰهيّة والمسائل العقائدية، وذلك لاقناع العقول وتنوير أفكار الناس.

دوافع المعرفة الإلٰهيّة

هناك سؤال آخر جدير بالطرح والبحث بشأنه هنا وهو: ما العوامل والدوافع التي تحفّز الإنسان لطيّ طريق المعرفة الإلٰهيّة والبحث عن الله؟

تحظىٰ الإجابة عن هٰذا السؤال بأهمية كبيرة في علم الاخلاق، لأنّ الإنسان يستطيع بمعرفة هٰذه العوامل والدوافع أن يحثّ نفسه أوالآخرين علىٰ بذل المزيد من السعي في المعرفة الإلٰهيّة، أو يندفع من خلال تعريفهم وتأييدهم وتحفيزهم لاكتساب المعرفة بنحو تلقائي.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ من الضروري معرفة هٰذه الدوافع من قِبل مـعلّم الأخـلاق والمربّي، وهكذا معرفة طرق تقويتها وتحفيزها. ولذا نقوم هنا ـ حسب المـجال

المسموح به ـ للإجابة عن السؤال بدراسة بعض هٰذه العوامل والدوافع:

أ ـ من الدوافع ذات التأثير الايجابي في مطلق العلوم وجميع المعارف لدىٰ الإنسان هو (غريزة البحث عن الحقيقة) فالله تعالىٰ قد خلق الإنسان بنحو يكون باحثاً في فطرته وباطنه عن معرفة الحقائق، و باحثاً عن ضالّته هذه، وبهٰذا الصدد يطرح باستمرار أسئلة في المجالات والموضوعات المتنوعة ويسعى للحصول على أجوبتها. من هنا حقق الإنسان تقدّما كبيراً في المعارف والعلوم، ووضع فلسفة وعلوما مختلفة وفروعا تخصّصية متنوعة تتشعب بسرعة يوماً بعد آخر، وقام من خلال ذلك باختراعات واكتشافات وحقق تقدُّماً في الحياة.

إنّ البحث عن الحقيقة نزعة فطرية وقهرية متجذّرة في كلّ إنسان، ويعبّر عنها أحياناً بغريزة البحث والتحرّي. هٰذه النزعة بأيّ عنوان ذكرناها هي جزءٌ من حقيقة الإنسان، ومتجذّرة في طبيعته وأعماق وجوده، إنْ غفلْنا عنها فسوف نغفل عن جزء من إنسانيتنا ووجودنا. بناءً علىٰ هٰذا فانّ إنسانية الإنسان وكماله يقتضيان البحث عن الحقائق وإدراكها، فانْ أُهمل في هٰذا المجال خُدشت إنسانيته وسيهوىٰ الىٰ حضيض البهيمية ودونها.

بناءً علىٰ هٰذا نستطيع من خلال الربط بين (البحث عن الحقيقة) و(البحث عن الكمال) في الإنسان والذي سيكون أعمَّ منه وأوسع وأعمق ـ ومن الأفضل أن نقول: بالتوعية والتنبيه علىٰ هٰذه العلاقة الواقعية الموجودة بين هاتين الغريزتين ـ يمكن أن ندفع الإنسان الىٰ بذل المزيد من الجهد والنشاط في هٰذا المجال، لأنّ أيّ إنسان لا يرغب في عدم تكامله، أو هويّه الىٰ حضيض البهيمية وابتعاده عن الإنسانية والكمال الإنساني. وإذا التفت الىٰ أنّ الإهمال في إدراك الحقائق يعني ذلك فانّه سوف يبذل المزيد من السعي المقدور للحيلولة دون السقوط، فيقوم

بطرح الاسئلة، ويستعدّ لتلقّي الأجوبة عنها، ومن أهمّها هو هٰذا السؤال الأساس: هل للعالم خالق أم لا؟ وإن كان له خالق فما هي صفاته وأفعاله؟

هٰذه الغريزة لا يلزم أن تكون مؤثرة في جميع الناس، بل إنّ ثلّة قليلة يـقوىٰ فيها هٰذا الدافع فتتابع العلم والمعرفة بتحفيز فطري بحثاً عن الحقيقه فقط. إن أغلب الذين يهمّهم اكتساب المعارف ـ ومنها التوحيد والمعرفة الإلٰهيّة والمسائل ذات العلاقة بها ـ لابدّ أن يضموا دوافع أُخرىٰ الىٰ دافع البحثّ عن الحقيقة، ليكـونوا ناشطين في انتهاج هٰذا الطريق، وقليلون هم ذوو الهمة العـالية الذيـن يـتحرَّون الحقائق، وفي صدارتها خالق الوجود بهدف إدراك الحقيقة، ورفع مستوىٰ المعرفة لديهم.

ولعل استناد القرآن الكريم في موارد كثيرة جدّاً الىٰ الحق والحقيقة يؤيد مـا نقول، وهٰذا الإهتمام في نفسه دليل علىٰ إقرار القـرآن بـوجود هـٰذا المـيل فـي الإنسان وامضائه والإستناد إليه كعامل تربوي مؤثر. من هنا نلاحظ آيات مـن قبيل الآية: ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾[(١)].

والآية: ﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾[(٢)].

حيث تشير الىٰ أن الجميع يبغون الحق، ولكنهم يختلفون فـي مـعرفة الحـق وتعيين مصداقه.

أو الآية: ﴿**تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾[(٣)].

أو الآية: ﴿**وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ**﴾[(٤)].

---

(١) البقرة: ١٤٧.　(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) المائدة: ٨٣.　(٤) المائدة: ٨٤.

والآية: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾[١].

أو الآية: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾[٢].

هٰذه الآيات تعترف بوجود هٰذا الميل في الإنسان، وتتحدّث عن الحق بأساليب مختلفة بهٰذا الشأن، فلولاه يفقد هٰذا اللون من التأكيد معناه، ومن خلال وجود هٰذا الميل يقوم بتوجيهه نحو أهداف خاصّة بتحديد مصداق الحق. بعبارة أُخرىٰ يقرّ القرآن الكريم بمبدأ غريزة الميل الىٰ الحق في الإنسان، وبعد الإقرار يقوم بتقويتها وتأييدها وهدايتها عبر طريقين: أحدهما الإشارة الىٰ هٰذا الميل، وإلفات نظر الإنسان الىٰ وجوده وتحفيزه، والثاني تحديد المصداق ومعرفة الحق، فيكون ذلك سبباً للمزيد من الاتضاح والتحديد لمتعلّق هٰذا الميل وجهته، ليستتبع تحرك الإنسان نحو معرفة الحقائق وأكبرها وأشرفها وهو وجود الله تعالىٰ.

ب ـ الدافع الآخر الموجود في الإنسان ـ ويمكن التأكيد عليه بمقتضىٰ هٰذا البحث ـ هو (حبّ الذات) الذي له دور العامل الباطني القوي الذي يبعث الإنسان لتحصيل كمالاته والاحتفاظ بفضيلته وشرفه الإنساني في نفسه. ومن وجهة نظر (الفلسفة) و(علم النفس) إنّ أحد فروع حبّ الذات والذي يعبّر عنه أحياناً بـ(حبّ الكرامة) هو رغبة الإنسان الشديدة في صون إنسانيته والتميّز عن الحيوانات، ونظراً الىٰ أنّ الحياة والكرامة الإنسانية ـ علىٰ عكس الحياة الحيوانية القائمة علىٰ قوانين عمياء ومنهج غريزي لا تعقّل فيه ولا اختيار عقلاني، أو يوجد بنحو ضعيف جدّاً ـ مستندة تماماً الىٰ بناء الحياة الإنسانية علىٰ أُسس عقلانية، واستناد سلوك الإنسان علىٰ الاختيار العقلاني، وتظهر في إطار الفكر والرؤية

---

(١) يونس: ٣٥. (٢) الأنبياء: ٥٥.

الكونية، والأطر والمواصفات المعقولة والمنطقية.

بناءً علىٰ هٰذا يظهر سلوك الإنسان ـ في الحياة الإنسانية ـ في أُطر قيمية وعقلانية وهي مبتنية علىٰ المعارف والرؤىٰ العقلانية، وفي صدارتها المعرفة الإلٰهيّة.

وبعبارة أُخرىٰ إن لم يعرف الإنسان الله فانّه لا يمتلك ـ في الحقيقة ـ رؤية كونية صحيحة وعقلانية، وبفقدانها سيفقد المذهب الفكري الصحيح، وفي هٰذه الحالة لا يصدر منه سلوك إنساني صحيح.

في هٰذا المجال نلاحظ آيات قرآنية تستند الىٰ هٰذه الحقيقة بنحو ظريف وواضح في الوقت ذاته، وتُنزل الذين يفقدون المعارف ولم ينظّموا حياتهم وفق القوانين والمبادئ العقلانية والمنطقية الىٰ مستوىٰ الحيوان، بل أدنىٰ وأضلّ منه حيث تقول الآية:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

نذكّر هنا بحقيقة قد تحدّثت عنها الآيات القرآنية في موردين: قال الله تعالىٰ في المورد الأول:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وفي المورد الثاني:

---

(١) الأعراف: ١٧٩. (٢) الانفال: ٥٥.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١].

فاذا قمنا بالمطابقة بين الآيتين نستنتج أنّ فقدان الإيمان يكون معلولاً لنوع من العمىٰ الباطني، وفقدان العلم الصحيح وعدم استخدام العقل. بناءً علىٰ هٰذا فـانّ طريق تحصيل الإيمان الصحيح هو استخدام العقل، حيث تُنال به معرفة صحيحة توفّر أرضية ظهور الإيمان.

يمكن القول: إنّ الآيات التي تـماثل الآيـات المـذكورة فـي اسـتنادها الىٰ الإدراكات الإنسانية بهٰذا النحو، حيث ترى أنّ فقدانها يتقارن مع فقدان الإنسانية، وتسعىٰ من خلال ذلك لدفع الإنسان نحو استخدام الفكر وتحصيل المعارف الحقة من قبيل الآية:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢]

تؤكّد علىٰ دافع حبّ الكرامة في الإنسان، وعلىٰ أساس تجذُّر هٰذا الميل في طبيعة الإنسان تستخدمه كعامل تربوي في مسيرة تعالي الإنسان، وبهدف تحفيز وتقوية الميل نحو الكمال والكرامة الإنسانية، وهكذا ارشاده الىٰ الهدف الصحيح، وتبيّن أنّ عدم الإنتفاع الصحيح من قوىٰ الإدراك والنعم الكبيرة التي مـنحها الله للناس يعني الانحطاط الىٰ مستوىٰ الحيوان الداني.

ج ـ الدافع الثالث الذي يمكن الإشارة إليه في هٰذا المجال، ويمكن أن يكون مؤثرا في تحصيل المعرفة هو غريزة شكر المنعم وأداء حقه. فكلّ إنسان ذي فطرة سليمة حينما يُحسن إليه شخص يَعتبر نفسه مَديناً إليه، ويفكّر دوماً في إبداء شكره إزاء هٰذا الإحسان. هٰذا الميل له جذوره في أعماق الفطرة الإنسانية، وتظهر آثاره

---

(١) الانفال: ٢٢.	(٢) الفرقان: ٤٤.

في مواقع مناسبة مالم تحُلْ موانع دون تأثيره، أو يوجد انحراف في فطرة الإنسان إثر بعض الأعمال والممارسات.

بما أن الإنسان ـ حسب مستواه الفكري في هٰذا العالم ـ يدرك هٰذه الحقيقة وهي أنه يحظىٰ بنعم كثيرة، وكلما امتلك فكراً أعمق ودقةً أكبر، واستطاع أن يدرك النعم الأكثر دقةً وظرافة بنحو أفضل، فانّه يرىٰ نفسه غارقاً في النعم بصورة أكبر وأوسع وأعمق، ويطرح أمامه هٰذا السؤال:

من هو مصدر هٰذه النعم؟ ومن الذي أحسن إليَّ؟

هنا تكون غريزة معرفة الحق من العوامل القوية جدّاً، والتي تدفعه في هٰذا المجال للسعي بحثاً عن منعمه وأداء الشكر علىٰ نعمه، أو ردّ الجميل ـ لو كان ممكناً ـ تجاه كلّ هٰذا الإحسان والإنعام، إنّه يرىٰ هٰذا الموقف واجبه الإنساني، والإهمال فيه يثير عدم ارتياحه النفسيّ وعذابه الوجداني وندمه، كمن أُرسل إليه أموال كثيرة عن طريق البنك ولم يعرف المرسل، فانّه يسعىٰ بفطرته للتعرف عليه قدر المستطاع، وهٰذا الشعور لمعرفة الحق لا يدعه يستقر حتّىٰ يجده ويردَّ جميل لطفه بطريقة ما، أو ييأس من وجدانه.

إنّ هٰذا ميل فطري وغير اكتسابي قد أودعه الله سبحانه في ذات كلّ إنسان ويكون جزءً من حقيقته، فكأنه يشعر بوجود نقص في ذاته، ويسعىٰ لرفعه وإكمال إنسانيته.

إنّ القرآن يعترف بوجود هٰذا الميل في ذات الإنسان، ويعمل علىٰ تقويته وارشاده كعامل في الآية التي تقول:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[١].

إنّه من الأسئلة التي يبحث القرآن عن الإجابة عنها في أعماق الوجدان الإنساني، ويطرحه لإيقاظ الفطرة الإنسانية، وإذكاء الميل الفطري لشكر المنعم فيه، فضلا عن أنّنا لو تأملنا قليلاً في الآيات الكثيرة التي تذكّر بنعم الله، وتسند كلّ نعمة الىٰ الله سنجد أنّ هٰذِه الآيات تستهدف استخدام هٰذه الغريزة في الإنسان كعامل تربوي، وبناء شخصية الإنسان والبلوغ به الىٰ الكمال باذكائها وتحريكها وتوجيهها، وكنموذج نشير الىٰ قوله تعالىٰ:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٢].

أجل، ان الله أعطاكم هٰذِه النعم حيث جعل الأرض لكم مهداً لكي تستقروا، وشقّ فيها الطرق لكم لكي تهتدوا، وسخر لكم الفلك والحيوانات لتركبوها، ثمّ تذكروا نعمة الله وتؤدّوا شكره وتسبّحوه وتتوجهوا إليه.

د ـ الدافع الآخر الذي يمكن أن يبعث الإنسان للسعي في سبيل معرفة الحق هو ميل التقرب الىٰ صاحب المكانة العالية والموجود القوي الكامل. وإذا كان هناك إلٰه حاكم علىٰ عالم الوجود، يمكن بهدايته أن يجد الإنسان طريق كماله ويقترب

(١) الرحمن: ٦٠.

(٢) الزخرف: ٩ ـ ١٤.

منه بإطاعة أوامره والإستقرار في جوار رحمته انبعث بمقتضىٰ فطرته للبحث عنه حتّىٰ يعرفه. وهٰذا جزءٌ من رغبات الإنسان الفطريّة، ويتشعب من حبّ ذاته وحبّ كماله.

إنّ ميل التقرب من شخص قوي وذي مكانة ومنزلة والإرتباط به يمكن ملاحظته جيّداً بتأمّل يسير في الحياة اليومية والسلوك والكلام الإعتيادي بين الناس، إذ كثيراً ما يتفق أن نلاحظ أشخاصاً يرغبون في بيان ارتباطهم بشخصية ما ـ صراحة أو تلميحاً ـ من خلال سرد قصة، والزهو بذلك أمام الآخرين كقضية مهمة وجديرة وامتياز مرموق لهم.

بناءً علىٰ هٰذا يكون الميل الىٰ الموجود الكامل أمراً فطرياً في الإنسان، فإذا كان هناك موجود فوق الموجودات كلها وكامل مطلق، فانّ التقرب منه لا يمكن مقايسته أبداً مع التقرب الىٰ الموجودات الأخرى، لأنّا لو أردنا معرفة مفهوم الكمال المطلق في المبدء تعالىٰ وخالق الوجود سندرك أنّه كمال لا يكون عظماء العالم بدءً بالسلاطين وائمة الحق والباطل، وانتهاءً بالعلماء والمفكّرين، وكلّ ذي جمال وثروة تجاه ذلك الكمال الإلٰهي المطلق شيئاً يُذكر، وسيكونون كنسبة قطرة صغيرة الىٰ بحر عظيم. ومع ملاحظة هٰذه الحقيقة كيف يمكن مقايسة التقرب من هٰذا المقام العظيم مع التقرب الىٰ الشخصيات الإنسانية الظاهرية وكلهم عبيد مملوكون له لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً؟ وكيف يمكن مقايسة التقرب إليه بالتذلل أمام عباده؟

هٰذا الفكر العميق يُحيي حافزاً متجذّراً في الإنسان، ويحركه ويدفعه أحياناً كظمآن لا يرتوي للبحث عن هٰذا الكمال المطلق، لينهل من ماء عرفانه الصافي والعذِب حسب المعرفة التي يكتسبها، ثمّ يبذل غاية جهده في عبادته لكي يحظىٰ

بمكانة لديه، والإستقرار في جوار رحمته.

بديهي أنّ ذكر هٰذه الأمثلة البسيطة تنفع السائرين في بداية الطريق، أمّا الذين طووا مراحل المسير وبلغوا مستويات من القرب والتعالي فانّهم في غنىً عن هٰذه الأمثلة.

ما ذكرناه الىٰ هنا كان من أكثر الدوافع أصالة في الإنسان وتأثيراً في هٰذا المجال، وإن كان من الضروري أن نذكّر بأنّ باعثية ودافعية هٰذه الدوافع ليست قوية جدّاً في عامّة الناس، وأنّ دافع البحث عن الحقيقة أو معرفة الحق أو حبّ الكرامة أو التقرّب من الموجود المتعالي لا يمكن أن يكون له لوحده دور كبير في السعي في مجال المعرفة الإلٰهيّة بالنسبة لأغلب الناس، عدا عدد قليل منهم وثلة متميزة من بني الإنسان الذين تهمّهم هٰذه القيم السامية وتسوقهم الدوافع الإنسانية المتعالية، ويسعَون بحثا عن الحقيقة ومعرفة الحق ويبتغون الشرف والكرامة بالتقرّب الىٰ الله ربّ العباد والحُظوة بالمكانة لديه فحسب، فيستهدفون المعرفة الإلٰهيّة ويختارون عبادة الله وإطاعته.

فينبغي ذكر دوافع أُخرىٰ يكون فهمها أيسر وأثرها أوضح ونفعها أسرع، ويمكن أن تكون مؤثرة ومحركة في ساحة أوسع وفئات اجتماعية أكبر، وتؤثر علىٰ عامّة الناس وتدفعهم للتحرك والسعي كما سيأتي.

هـ ـ من دوافع النوع الثاني هو دافع (طلب المنفعة) إذْ إنّ بني الإنسان يسعَون عادةً لتحقيق المصالح الماديّة ودفع الاضرار، وينظّمون سيرهم ومساعيهم وأحاديثهم وسلوكهم علىٰ هٰذا الأساس.

والإنسان المتأثّر بمثل هٰذا الدافع إذا احتمل وجود مصالح يمكن التوصل إليها من خلال طاعة الله، كفىٰ هٰذا الاحتمال لدفعه لبذل الجهد والسعي لمعرفة الله

وإطاعته، فكما أنّ احتمال تحصيل المنفعة يدفع الإنسان لتحمل المشاق والمعاناة الكبيرة للبحث حول نجوم السماء بأمل الوصول الىٰ نتائج ومنافع قد تعود عليه فانّ هٰذا الاحتمال يؤثّر بصورة أوضح وأكمل، ويحفّز الإنسان للبحث والتحقيق في مجال المعرفة الإلٰهيّة.

ولكن السؤال هو: من أين وكيف يوجد هٰذا الاحتمال في مخيّلة الإنسان؟

الجواب: إنّ انبعاث الأنبياء وإنزال الكتب السماوية بكلّ مواعيدهم يكفي لنشوء هٰذا الاحتمال في مخيلة الناس، وهو احتمال وجود إلٰه بيده زمام الأمور كلها، ولعل في طاعته منافعَ تعود علىٰ أموال الإنسان وجسمه وشؤونه، وحدّاً لنسبة الجريمة والعدوان والسرقة في المجتمع، وتزيد من أمن الناس واستقرارهم وراحتهم، كما قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

أجل، إنّ هٰذه الاحتمالات تكفي لأن يقوم دافع البحث عن المنفعة في الإنسان ـ الذي يحفّزه دوماً تبعاً لهٰذه الاحتمالات ـ بحثّه علىٰ بذل الجهد والتحري بشأن المعرفة الإلٰهيّة، والمباشرة بالتحقيق والتدبر والبحث والدراسة والمطالعة والتعليم والتعلم وإرواء هٰذا الظمأ الباطني. لأنّ الإنسان نظراً لأُنسه بالحس وانفعاله بشدّة بالإدراكات الحسية والملذّات الظاهرية والماديّة، فانّ للاهتمام بهٰذه المكاسب الماديّة في هٰذا العالم تأثيراً أكبر في نشاطاته قياساً الىٰ الإهتمام بالجوانب المعنويّة للعالم الآخر، ولذا يمكن استثمار هٰذه العوامل بنحو جيّد في المجال التربوي أيضاً.

---

(١) الأعراف: ٩٦.

و ـ الدافع الثاني الذي يؤثر تأثيراً بالغاً في هٰذاالمجال علىٰ الصعيد العامّ هو دافع (الوقاية من الشرور) أو (دفع الآلام) ويمكن القول: يعتبر هٰذا الدافع اضافة الىٰ دافع طلب المنفعة المذكور آنفاً وجهان لعملة واحدة، ويماثله في أنّه صورة من الميل نحو المحسوسات في الإنسان.

إنّ الإنسان في تدبّر وتخطيط وسعي دائب لاستتباب الأمن من الآلام والمصائب والعذاب الدنيوي، والهروب من الوحوش والأمراض والحروب والأخطار العديدة التي تتربص به في هٰذا العالم المادي. وهٰذا الدافع من القوة ما جعله يستجمع جلّ القوىٰ والجهود والفرص والثروات الإنسانية، حتّىٰ أضحىٰ من الممكن القول: إنّ أحد العوامل المهمة في سباق التسلح بين القوىٰ الكبرىٰ وتوظيف الطاقات والقابليات الإنسانية المهمة لتصنيع اسلحة الدمار النووية، والكيميائية والبيولوجية، أو فرض الدكتاتورية وسحق الكرامة الإنسانية هو دافع الخوف من العدوّ في الجبهة المقابلة، والأخطار والآلام والاضرار التي يحتمل مواجهتها حالة الإهمال في هٰذه المجالات، ثمّ تهديد الأمن والإستقرار.

بناءً علىٰ هٰذا إنّه عامل قوي ويمثّل أحد الأبعاد الإنسانية القوية الذي يستحق الإعتماد عليه تماماً في المجالات التربوية وتوجيه التكامل الإنساني، حتّىٰ أن من الأفضل، بل من اللازم استثمار هٰذه الدوافع السطحية الحسّية أكثر من الدوافع الإنسانية السامية التي ذكرناها آنفاً بالنسبة لعامّة الناس الذين يألفون الإدراكات الظاهرية والسطحية والماديّة في هٰذا العالم، ويغفلون عن ما فوقها من إدراكات متعالية.

والقرآن الكريم يقرّ بوجود هٰذين الدافعين (طلب المنفعة) و(الوقاية من

العذاب) ونظراً لكثرة الآيات من هٰذا القبيل، لا يمكن اجراء دراسة تفصيلية بشأنها، ولكن كنماذج يمكن دراسة عدد من الآيات، كالآية:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

ففي هٰذه الآية تمّ استثمار هٰذا الدافع (الوقاية من العذاب) واستخدمت أسباب العذابِ الثلاثة لتربية المسلمين وتطهير المجتمع الإسلامي ومكافحة الفساد: الأول هو عذاب الجَلْد، والثاني عذاب عدم الإعتناء والرأفة من قبل الآخرين، والثالث عذاب الفضيحة التي يحس بها الزاني عند مشاهدته من قبل طائفة من المؤمنين، والآية:

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

ومن قبيل الآية:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[٣].

ومن قبيل الآية:

﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي

---

(١) النور: ٢.
(٢) الانفال: ٤٦.
(٣) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[١].

وفي الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[٢].

وقال تعالىٰ في آية كقانون عامّ وسنّة ثابتة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣].

هٰذه الآيات وغيرها كثيرة تفترض وجود الدافعَين اللذَين نبحث عنهما (طلب المنفعة ودفع الضرر) وتستثمرهما بهدف هداية الإنسان في طريق الرشد والكمال في المجالات الاجتماعية والفردية المختلفة.

ونقول في هٰذا المجال: من الممكن استثمار هٰذين الدافعين الشاملين والعميقين والمؤثرين في أغلب الناس لحثّهم علىٰ السعي والنشاط الفكري والإدراكي، والتقدّم بهم في طريق المعرفة الإلٰهيّة من خلال تحفيزهما وإرشادهما.

فإذا علم الإنسان بل احتمل أنّ هناك مَن بيده نفعه وضرّه، وهو قادر علىٰ ايصال نعمه اليه، أو تعريضه للبلاء والمعاناة والمصائب، فانّه سوف يبادر بالسعي والبحث بشأنه بغيةَ التعرف عليه، ثمّ التعامل معه بنحو يستدعي لطفه وفضله ونعمه، وتجنيبه من سخطه وغضبه وعذابه المحتمل.

والقرآن الكريم يخاطب بهٰذا الخصوص:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ

---

(١) الملك: ١٦ و ١٧.　(٢) الاحزاب: ٩.

(٣) الانفال: ٥٣.

يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١].

ويشير الىٰ قول جميل علىٰ لسان ابراهيم عليه السلام حيث يقول:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[٢].

ز ـ من العوامل والدوافع الماديّة المؤثرة في هٰذا المجال ويمكن استثماره هو (الميل الىٰ الراحة والإستقرار الروحي) فالإنسان في ضوء اعتقاده وايمانه بالله يجد ركناً ركيناً، وناصراً ومعيناً، ومدافعاً وسنداً مخلصاً للغاية وقويّاً، ممّا يبعثه علىٰ الشعور براحة البال واطمئنان النفس.

من القضايا المهمة التي يكثر الحديث عنها في المجتمعات البشرية يوماً بعد آخر هي آلامها النفسيّة. فقد أُجريت دراسات وبحوث كثيرة في مجال علم النفس لاكتشاف طريقة رفع القلق والاضطرابات الروحية ومكافحتها، لكي تقدِّم من خلال ذلك خدمة للإنسان والمجتمع الإنساني.

إنّنا نعتقد أنّ الإيمان بالله والأُنس معه يقدِّم أفضل استقرار روحي للمؤمن، وهٰذا في نفسه يمكن أن يكون دافعاً مهماً للذين يجدّون في البحث عن هٰذه الضالّة، أعني الراحة النفسيّة، ويسيرون في هٰذا الطريق، ويبحثون عن الرب المُطَمْئِن والإهتمام بمعرفته وهو القائل:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣].

---

(١) يونس: ١٠٦ و ١٠٧.
(٢) الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢.
(٣) الرعد: ٢٨.

لو افترضنا هنا أنّ الإنسان ـ الذي يواجه هٰذا الكمّ من العذاب والقلق والاضطراب، ويميل بشدّة الىٰ الطمأنينة، ويستعدّ لبذل هٰذا الحجم الضخم من السعي لتحقيقها، ويتحمل تكاليف باهظة ـ وإن لم يؤمن ويعتقد بهٰذه الحقيقة لواحتمل فقط أنّ من خلال هٰذا الطريق يمكن نيل الطمأنينة ومكافحة الآلام والعذاب الذي يسبّب هلاك الإنسان وإتعابه نفسياً، فانّ من الطبيعي أن يبعثه هٰذا الاحتمال ليكون ساعياً ومجدّاً في طريق المعرفة الإلٰهيّة. إنّ الذين يعرفون هٰذه الحقيقة ربما يستعدّون لتقديم كلّ ما يملكون للحصول عليها، ويستعد الأثرياء لبذل ثرواتهم الطائلة لنيلها، فمن الطبيعي أنّهم حتّىٰ لو احتملوا بدرجة ضعيفة أنّ عليهم السير في هٰذا الطريق للوصول اليه، فانّهم سوف يوجهون سعيهم بهٰذا الاتجاه.

نحن الذين نعيش في مجتمع اسلامي ونحظىٰ بنعمة الإيمان، ونتمتّع ـ بلطف الله ـ باطمئنان نسبي قد لا نستطيع إدراك مضمون هٰذا الكلام جيّداً لأن مثَلنا كمثَل السمك في الماء،لكن الأشخاص والمجتمعات الفاقدة لنعمة الإيمان يرَون الحياة بلا معنىٰ، ويشعرون بالخواء ولا يجدون من يسندهم، ويرسمون مستقبلا مظلما ومبهماً، ويعانون من الاضطراب والوحشة والقلق، وإن توفّرت لديهم النعم الماديّة كافة، فانّهم لا يشعرون بالاطمئنان بالمستوىٰ المطلوب، ويصمدون بصعوبة أمام الحوادث البسيطة. وفي المقابل يقف المؤمن والعارف بالله صامداً دون انهيار، وكما جاء في الرواية:

«المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف».

بناءً علىٰ هٰذا فانّ الإنسان الذي لم يصل بعد الىٰ المعرفة الإلٰهيّة يسعىٰ جاداً لتحقيق الراحة النفسيّة، لو احتمل ـ علىٰ الأقل ـ أنّ عبادة الله وذكره سبب لطمأنينة

قلبه، فانّه يبادر لمعرفة الله كوسيلة محتملة.

ح ـ العامل الآخر هو كسب المنافع والمصالح البشرية. فالمجتمعات البشرية تعاني من الفساد والجرائم التي تواجهها، وتكاد أن تزجّ بعض المجتمعات في مستنقع الفساد، بينما يبحث المصلحون وأصحاب الفكر في كيفية الوصول الىٰ التحرّر من الفساد والانحطاط.

فلو احتملوا أنّ هناك إلٰهاً قادراً علىٰ ارشاد الإنسان الىٰ طريق التحرّر، كان ذلك بمثابة الضالّة التي ينشدونها فلا يألون جهداً للعثور عليها. وهٰذا دافع قوي أيضاً يدفع الإنسان للبحث في مجال المعرفة الإلٰهيّة.

مثل هٰذه المشكلات والاضطرابات قد تحدث في المجتمعات الإلٰهيّة والإسلامية أيضاً، ولكنها أولاً: لا تكون شيئا يذكر قياساً الىٰ المأساة التي تعيشها المجتمعات البعيدة عن الله، وثانياً: تحدث الاضطرابات في المجتمعات الإسلامية نتيجةً لضعف الإيمان وعدم التطبيق الصحيح والدقيق للتعاليم الإلٰهيّة، فتعالج بقدر معرفة نقاط الضعف هذه، ورعاية الدقة في العمل.

ختاماً توصّلنا من خلال هٰذا البحث الىٰ هٰذه النتيجة وهي:

في الإنسان دوافع مختلفة يمكن أن تكون منشأً لإكتساب المعرفة بالله عزّوجل، ولها مبادئ عامّة: هي دافع طلب الحقيقة والكمال، وحبّ الذات، ومعرفة الحق، وكسب المنفعة ودفع الضرر. وبعضها ذو فروع مختلفة، وبالإمكان أن نستثمر هٰذه الدوافع الفطريّة ونسعى ـ من خلال تحريكها وتقويتها وتوجيهها ـ نحو نيل درجات الكمال والوصول الىٰ معرفة الربّ المتعال والإستقرار في جواره ونيل رضوانه.

* * *

القسم الثاني



موانع المعرفة

١ ـ الميل الىٰ الحس

٢ ـ التقليد

٣ ـ الإستناد الىٰ الظن

الميول المعارضة

أ ـ اللذائذ العابرة والأهواء الآنية

ب ـ النظرة الماديّة المتطرفة للمستقبل

ج ـ العداء والنفور من الله والدين والنبي ﷺ

موانع المعرفة

من خلال البحوث الماضية توصّلنا الىٰ هٰذه النتيجة، وهي أنّ مبدأ تحصيل الكمال الإنساني والأساس في الفضائل الأخلاقية في الرؤية الإسلامية هو الإيمان بالله تعالىٰ، ويتوقف تحقّق هٰذا الإيمان علىٰ العلم والمعرفة.

إذنْ اكتساب العلم كأمر اختياري وهدف متوسط يكون محبّذاً في ضوء مرغوبية الإيمان والكمال والفضائل الأخلاقية، لأنّه مقدمة للإيمان الذي يمثّل الأساس لكلّ الفضائل والكمالات الإنسانية.

وقلنا: للوصول الىٰ هٰذه الغاية لابدّ من بذل جهود جيدة (جوارحية وجوانحية) لنحصل علىٰ علم صحيح ومعرفة واقعية.

إنّنا نستعين بمعلومات أُخرىٰ تجاه أيّ مجهول نواجهه، وننظّمها بنحو يكشف لنا ذلك المجهول، وهٰذه عبارة عن عملية التفكير حسب الاصطلاح المنطقي، حيث لا يكتسب علم صحيح بدونها حتّىٰ يتحقّق الإيمان تبعاً له. وبدون الإيمان لا تتوفّر أرضية لتنمية الفضائل الأخلاقية في الإنسان.

من هنا يتوضّح السبب في التأكيد علىٰ التفكير والتعقل وما شاكلهما من قبل الآيات القرآنية، والاحاديث النبوية وأقوال المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين). وكان لنا بحث في هٰذا المجال، ونشير هنا الىٰ بعض النماذج أيضاً، من قبيل قول الكفار يوم القيامة:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

أجل، يقول الكفار يوم القيامة بحسرة وأسف: لو كنا نسمع الحق ونفكّر بشأنه لم نواجه هٰذه الأحوال ويعترفون بذنبهم. ولو كان هٰذا الإقرار بالذنب قد تمّ في هٰذا العالم لنَفَعَهم ودفعهم لمعالجة ذنوبهم السالفة مادام ذلك ممكنا، ولكن لا يمكن ذلك في العالم الآخر حيث لا ينتفع الإنسان باقراره وندمه بتاتاً.

يستفاد جيّداً من هٰذه الآية انّ مفتاح السعادة هو المعرفة الصحيحة التي يكتسبها الإنسان من خلال تفكيره وعقله تارة، وبمعونة الآخرين واتّباع المرشدين تارة أُخرىٰ. هاتان وسيلتا المعرفة الصحيحة.وبمقتضىٰ مفهوم (**لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا من اصحاب السعير**)، نفهم أنّ الذين لا يفكّرون بأنفسهم، ولا يصغون الىٰ المصلحين والأنبياء والهداة لا يرَون وجه السعادة أبداً، بسبب عدم تحصيلهم للمعرفة، وبالتالي لا يظفرون بالايمان، بل يدخلون جهنم كما قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(٢).

---

(١) الملك: ١٠ و ١١.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

هٰذه الآية تشير الىٰ أنّ السبب في دخول الكثير من الناس في جهنم هو عدم استثمارهم قوة العقل ووسائل المعرفة الأخرى، ممّا يفضي الىٰ حرمانهم من المعارف الصحيحة التي يكتسبونها بهٰذه الوسائل.

وعليه فانّ من رغب في السير نحو الكمال الإنساني، فانّ الخطوة الأُولى هي استخدامه للقوىٰ العقلية ووسائل الإدراك وهي العقل والبصر والسمع، وهو عمل اختياري، وعليه ترشيدها بإرادته وعزمه الواعي نحو طريقها الصحيح لكي يصل الىٰ نتيجة طيبة ومعارف صحيحة، لأن التفكير ليس مجرّد تأثّر نفسيّ بالعوامل الخارجيّة، بل هو نشاط داخلي وعقلاني، وينبغي للإنسان أن يصرف نظره ويحترز عند التفكير ـ سيّما حول القضايا الغيبية والموضوعات البعيدة عن متناول الحس ـ من الأعمال المزاحمة، وبعض اللذائذ المتوفّرة لديه في تلك الفرصة، من قبيل مشاهدة المناظر الجميلة وسماع الموسيقىٰ وممارسة الجماع والنوم والإستراحة واللامبالاة و.. فانّها موانع من التفكير بصورة طبيعية، ويضطر الإنسان لتركها حين التعمق في الفكر والإستغراق في التأمّل، لأنّ التفكير لا يجتمع معها، ويضطر لأن يمارس أحد الأمرين: إمّا أن يفكّر أو يتوجه الىٰ تلك الأعمال واللذائذ.

الذين اعتادوا متابعة بعض اللذائذ وتعلقت أنفسهم بها لا يهمّهم ضرورة التفكير أبداً، فبمجرّد توفّر الأجواء يتوجهون تلقائياً الىٰ اللذائذ التي اعتادوها، إذْ إنّ هٰذه اللذائذ الحسية قد أصبحت ملكة لديهم وتعلقت قلوبهم بها، كالإدمان علىٰ سماع الموسيقىٰ، فالمدمن عليها لا يفكّر أساساً في فائدة الموسيقىٰ وهل هناك عمل أفضل منها أم لا؟ وهل يوجد في العالم ما هو أشدّ لذة أم لا؟ بل إنّ هٰذه العادة

تجتذبه تلقائيا. أو الذين اعتادوا النظر الىٰ أعراض الناس سيشعرون بالعذاب ان أرادوا الانصراف عن ذلك حتّىٰ لدقيقة واحدة، ويمارسون ذلك دون تأمّـل فـي تبعات هذا العمل.

انّ جميع هٰذه العادات والملكات التي تنشأ في الإنسان فيما يتعلّق بالأعمال الخارجيّة، أو الملكات النفسانية التي تنشأ في النفس نتيجة التـفاعل مـع البـيئة والأعمال الاختيارية للإنسان نفسه، تمثّل موانـع أمـام التـفكير بـنحو صـحيح والوصول الىٰ نتائج صحيحة، فهي معارضة له في الواقع.

النتيجة التي نتوخاها من هٰذا التعارض هي أنّ الإنسان لكي يخرج من هٰـذا التعارض، ويتحرك في مفترق طريقين بحاجة الىٰ أن يـختار ويـعزم، ويـرجّـح التفكير علىٰ تلك الممارسات واللذائذ المعارضة باختياره، ولكن قد توجد هـنا موانع تصدّ الإنسان عن العمل بهٰذا الاختيار وترجيح أحد الطرفين، ولكي يتحقّق هٰذا الإنتخاب ويرجّح أحد الطرفين لابدّ من وجود دافع، حيث نلاحظ في هٰذه الحالة أنّ التفكير وكسب المعرفة نفسها بحاجة الىٰ معرفة سابقة، أي إنّ الإنسان قد يُطرح أمامه بنحو ارتكازي لا شعوري هٰذا السؤال: الآن وقد سنحت الفرصة هل أصرفها في اللذائذ الماديّة، أو أفكّر تفكيراً ليس فيه لذة فعلية، ولا يعلم الىٰ أين سينتهي؟ أجل، أيهما أفضل وأنفع: اللذة العابرة أم التفكير؟

من الطبيعي انّ الناس لا يتّخذون قراراً متشابهاً فـي الجـواب عـلى السـؤال السابق الذكر، وانّما أصحاب الرؤية السطحية التابعون لللّذات العابرة يرجّـحون اللذة وينتهزون الفرصة، بينما هناك آخرون يرجّحون التفكير علىٰ اللذات العابرة قائلين صحيح انّ التفكير لا يستلزم لذّة سريعة ولكنه يمكن أنْ يكون منشأ آثار

عظيمة ولذّات كثيرة وعميقة، غير انّه من المسلّم به انّ الآثار العظيمة للتفكير لا يتمّ الإلتفات إليها الاّ بواسطة التفكير أيضاً، فالتفكير في انّي اذا فكّرت في ذاتي و في العالَم الذي أعيش فيه ووصلت الىٰ هذه الحقيقة وهي انّ الله موجود وانّ القيامة موجودة وانّ الأنبياء موجودون، هذا نفسه يمكن أن يستتبع آثاراً عظيمة وكمالات مهمّة ولذّات كثيرة وعميقة لي، ويدفع عنّي أيضاً أضراراً عظيمة وخسارات لا تجبر.

انّ احتمال هٰذه الآثار الكبيرة يمكن أن يغيّر ـ كدافع قوي ـ مسيرة الإنسان، وينقذه من مستنقع اللذائذ الماديّة الدنيئة، ويرشده الىٰ التفكير والتأمّل حول الوجود، ويحثّه علىٰ التحرك والتسامي نحو قمم شامخة في الكمالات الإنسانية.

هٰذه الحقيقة حاكمة علىٰ الإنسان في حياته الماديّة أيضاً، فهو حينما يفكّر في لذائذه الماديّة في المستقبل يتنازل ـ كثيراً ما ـ عن لذائذه العابرة، بل يتحمل ألوان المعاناة آملاً نيل لذائذ أكبر وأدوم، أي إنّ العقل يدعو الىٰ ضرورة المقارنة بين لذائذ الإنسان، ثمّ الحكم بأنّ تحصيل لذائذ أكبر وأشدّ في المستقبل الىٰ جانب ترك لذائذ فعلية عابرة وسطحية أفضل من الإلتذاذ الآني الذي قد يعقبه عذاب دائم.

وإذا كانت تجارب هٰذا العالم تشير الىٰ أنّ الإنسان سوف يندم، وإنّه يعاني دائماً من عدم التدبر واللامبالاة في الماضي، فانّ عدم التدبر هٰذا واللامبالاة ستعقبهما معاناة أكبر وندامة أشدّ قياساً الىٰ الآخرة والسعادة الخالدة فيها، وبحكم العقل ينبغي أن يقوم الإنسان بمطالعة هٰذه الاحتمالات، حيث قلنا انّ الاحتمال في القيام بعمل يستتبع نفعاً كبيراً أو غير محدود يكون أحياناً أكبر قيمة للإنسان من اليقين بلذة محدودة زائلة.

انّ اتّباع هٰذا الحكم العقلي في العالم الحسي هٰذا يستدعي اكتساب العزة والعظمة والشرف والقيمة الإنسانية في المجتمع، علىٰ عكس اللامبالاة وعدم الإهتمام به، والتمادي في الأهواء واللذائذ العابرة، فانّه يدمّر المستقبل المادي والاجتماعي للإنسان، ويصنع منه شخصية لا قيمة لها ونادمة من اتّباع الشهوات في الماضي. ومن المعلوم انّ حياة الإنسان الماديّة والمعنويّة تتّبع قانوناً واحداً من هٰذه الجهة، وأنّ مفتاح السعادة الماديّة والمعنويّة في الدنيا والآخرة هو تفكير الإنسان وتدبره.

الآن وبعد اتضاح أهمية مبدأ التفكّر والتدبر وقرارنا ـ بمقتضىٰ العقل ـ القيام بالتفكير وترك اللذائذ المعارضة، يطرح سؤال آخر عن ما ينبغي توجيه العقل والفكر إليه، والقضية التي هي الأَولى بالدراسة والتفكير بشأنها؟

الجواب: تبرز الحاجة هنا أيضاً الىٰ انتخاب آخر ليتمّ التفكير حول ما هو أهمّ وأخطر وأثمن من بين الموضوعات والقضايا المختلفة التي يمكن التفكير بشأنها. بعبارة أُخرىٰ إنّنا أبدينا لحدّ الآن وبانتخاب وقرار صحيحين استعدادنا للتفكير في مستقبلنا، بدلاً عن صرف الزمان في اللذائذ العابرة، الاّ أنّ التفكير حول المستقبل له مصاديق مختلفة من قبيل: ماذا نصنع حتّىٰ نكتسب ثروة طائلة؟، أو نحصل علىٰ مكانة اجتماعية مرموقة؟ أو ماذا نصنع لكي نحظىٰ بثقل سياسي ممتاز؟ كما يمكن ان نفكّر بشأن الله عزّوجلّ والقيامة، ماذا نصنع لكي ندخل الجنة ونحظىٰ بالنعم الإلٰهيّة، أو ننجو من عذاب الله وجهنم؟ إذنْ لتحديد طريق التفكير يلزم انتخاب آخر للتفكير والمطالعة بشأن الأهمّ، وما يترتب عليه من قيمة أكبر.

ينبغي الإنتباه الىٰ أنّ في هٰذه المرحلة توجد بعض الموانع النفسيّة التي تصدّ

الإنسان عن التفكير الصحيح والوصول الىٰ نتيجة صحيحة ومعرفة واقعية، أي نظراً الىٰ أنّ الموضوعات والأمور الماديّة محسوسة بصورة أكبر كالثروة والمقام والموقع الاجتماعي، ولها آثار دنيويّة محسوسة ملحوظة فانّها تبدو كثيراً ما ذات جذابية أكبر في الفكرالسطحي للإنسان وتستقطب فكره وأقواله وتأملاته.

بناءً علىٰ هٰذا لكي يستعدّ الإنسان لصرف قسط من وقته للتفكير حول الموضوعات غير الماديّة بعيداً عن الحس ـ الله سبحانه والقيامة والجنة والمقامات المعنويّة والأمور الغيبية الأُخرىٰ ـ لكي ينتهي تفكيره هٰذا الىٰ المعرفة والإيمان بالغيب والأمور الغيبية هذه، فانّه بحاجة الىٰ جهاد النفس والدوافع النفسيّة، وسيحدث صراع نفسيّ بين القوىٰ والدوافع الماديّة والمعنويّة، حتّىٰ يعرف الغالب والمنتصر فيها، فإنْ كانت الدوافع والقوىٰ الماديّة في الإنسان قوية فانّها لن تسمح له بالتفكير في الأمور المعنويّة أبداً، بل تشغل ذهنه دائماً وبشدّة، وتعمل علىٰ تضعيف الدوافع المعنويّة قدر الإمكان والقضاء عليها أحياناً، حتّىٰ يمحىٰ ذكرها من فكر الإنسان، ويصبح فكره وأقواله وسعيه منصرفاً الىٰ المادة والحياة الماديّة ومكتسبات الحياة الدنيويّة، وهنا يكون هلاك الإنسان الاّ أن تنتشله اليد الإلٰهيّة بصورة اعجازية من مستنقعه هٰذا.

وعليه إنّنا بحاجة الىٰ معرفة سابقة حتّىٰ عند الصراع مع العوامل والدوافع النفسيّة، وعند تحقّق الإستعداد للتفكير الصحيح نتمكن ـ استناداً الىٰ ذلك ـ من العزم علىٰ التفكير في القضايا المطلوبة بعد تحرير أنفسنا من تأثير الدوافع المعارضة.

من هنا يمكن القول انّ مستوىً من التزكية وتهذيب النفس يتقدّم حتّىٰ علىٰ

العلم، فما لم يمتلك الإنسان قوة نفسيّة تمكنه من كَبْت بعض رغباته ومنعها مؤقتا، فانّه غير قادر من الأساس علىٰ سَوق نفسه نحو التفكير الصحيح. ولعله لهٰذه القضية جيء بالتزكية قبل التعليم في بعض الآيات القرآنية، وتكون ـ علىٰ الأقل ـ أحد العوامل في ذلك.

إذنْ بعنوان أنني فرد أروم السير في طريق التكامل لابدّ أن أكافح أولاً العَوامل التي تمنع وتزاحم التفكير، ثمّ العوامل التي تمنع التفكير الصحيح أو التدبر في الموضوعات الصالحة والقيّمة، وأخصّص ـ باختيار وعزم ـ ساعات من أيامي للتفكير، فانّ لم أعمل بهٰذه الصورة فلا أمل في أي خير أكتسبه.

يشير القرآن الكريم في هٰذا المجال الىٰ موانع وعوامل مزاحمة ومتنوعة، سنقوم هنا بالبحث حول بعضها حسب ما تمت ملاحظته:

١ ـ هناك مجموعة من المعارف تكبّل انطلاق الفكر الإنساني،أو تحدّ من قوته أو تضعّفه، أي تلك الموانع التي هي من سنخ الرؤية والمعرفة.

٢ ـ الميول التي تحول دون المعرفة الصحيحة، أو تحدّ من قوتها أو تضعّفها، أي الموانع التي هي من سنخ الميول.

نذكر هنا أولاً عدداً من موانع القسم الأول ونقوم بدراستها:

١ ـ الميل الىٰ الحس

الميل الىٰ الحس من موانع المعرفة، وهو في نفسه نوع من التعقل، وإن أمكن بلحاظ آخر اعتباره من الميول المانعة، كما يستفاد ذلك من عبارة (الميل الىٰ الحس). علىٰ أيّ حال فانّ الإنسان يعيش في عالم الطبيعة ويأنس بالمحسوسات

كثيراً، وهٰذا الأُنس هو السبب لإكتساب معلوماته عن طريق الحس أو حصرها في المحسوسات. والإنسان ـ طبعاً ـ ذو عقل، وبه يمكن أن يدرك حقائق لا تدرك بالحس، وبوسعه أن يفهم أنّ الموجودات لا تنحصر في المحسوسات، ولكن أُنسه بالطبيعة والمدركات الحسية، وإمكان تماسه المباشر بها بيُسر يدفعه لاستخدام الحس في الموضوعات غير المحسوسة وما وراء المحسوسات أيضاً بغية أمور حسية، والمراد من قول أهل المعقول: (انّ وهم الإنسان يمنعه من التفكير الصحيح) هو ما ذكرناه.

في القرآن الكريم نواجه آيات وموارد تحكي عن وجود أقوام بعث فيها الأنبياء عليهم السلام وتعاطفوا معهم، الاّ أنّهم أهملوا اكتساب ايمان صحيح وأساس راسخ لمسيرتهم الإنسانية، وحُرموا من السير نحو الرقي الإنساني.

كان بنو اسرائيل من هٰذه الأقوام، حيث أنّهم تحرّروا من ظلم الفراعنة والعبودية لفرعون مصر بقيادة النبي الالٰهي العظيم موسىٰ عليه السلام وسنحت لهم الفرصة لأن يكونوا أمة مستقلة ويعيشوا في إطار فكري مستقل، الاّ أنّهم حينما بدأ عليه السلام التحدّث عن الله والقيامة والوحي وحقائق من هٰذا القبيل ردّوه بقولهم:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[1].

وكما في الآية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[2].

كان ذلك توقّعاً غير معقول منهم، وفي غير محله وناشئاً من أُنسهم بالمحسوسات وانشدادهم الىٰ الطبيعة، فمنعهم ذلك من التفكير الصحيح بشأن الحقائق والمعرفة الالٰهيّة الصحيحة، وبالتالي الإيمان به. أجل، انّ لهٰذا الخلل في

---

(١) البقرة: ٥٥. (٢) الفرقان: ٢١.

المعرفة والتعقل والتفكير جذوراً في الميل الىٰ الحس في الإنسان.

ويمكن الإشارة الىٰ آيات أُخرىٰ في هٰذا المجال تتحدّث عن انّ أعداء الأنبياء عليهم السلام كانوا يسعون لاستخدام حالة (الميل الىٰ الحس) هٰذه لمنع الناس من القيام بتفكير صحيح، أو كانوا هم يُمنعون ـ إثر هٰذه الحالة ـ من إدراك الحقيقة، نشير الىٰ نماذج منها، كالآية:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾[1].

في هٰذه الآية الكريمة كان أعيان القوم يلقّنون الناس مستخدمين (الميل الىٰ الحس) بأن الأنبياء عليهم السلام بشر مثلكم، انّهم يأكلون ويشربون مثلكم بهدف منعهم من إدراك حقيقة الوحي اللامحسوسة ومن المطالعة الصحيحة بهٰذا الشأن، وتحقيق مآربهم السياسية ـ الإقتصادية من خلال ذلك والآية:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[2].

بديهي إنّ الحكم بالتماثل بين موسىٰ وأخيه عليهما السلام وبينهم قائم علىٰ أساس الحكم بالظاهر والميل الىٰ الحس، لأن هٰذا التماثل يكون في الظاهر في حين لا تماثل في حقيقة النبوة والوحي والخصوصيات الفكرية والأخلاقية والقيم الإلٰهيّة والمعنويّة، الاّ أنّ هٰذا الميل الىٰ الحس كان يحول دون التفكير والتأمّل لمعرفة هٰذه الحقيقة.

---

(١) المؤمنون: ٣٣ و ٣٤.

(٢) المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧.

وكالآية الكريمة:

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١].

و فيها يتردد السائل في مبدأ (المعاد) في العقيدة، ويعجز عن إدراكه إثر الإحساس بظاهر العظام النَخِرة. والله تعالىٰ يقيم الدليل في ردّه لكي ينقذه من حالة الإستغراق في الظواهر الطبيعية والإدراكات الحسية، ويرشده نحو التأمّل والتحليل العقلي وهو الطريق لمعرفة أصول العقيدة.

بهٰذا النحو تنبّه الآيات القرآنية في مجال مبادئ العقيدة الإسلامية ـ التوحيد، والمعرفة الإلٰهيّة، والمعاد، والنبوة والوحي ـ بأن بعض الأشخاص يستندون فيما يرتبط بهٰذه المبادئ الىٰ الإدراك الحسي، ونظراً لعدم حسّية أدوات إدراك هٰذه المبادئ فانّهم بدلاً من إدراكها يحرمهم هذا (الميل الىٰ الحس) من إدراك المبادئ المذكورة، ولذا ترشد الإنسان ـ من خلال ذمّهم ـ لاستخدام الأدوات الصحيحة والمناسبة لإدراك هٰذه المعارف.

من الضروري طبعاً ان نذكّر بملاحظة عامّة هي أنّ الهدف من ذمّ (الميل الىٰ الحس) في القرآن الكريم وذكره في هٰذا المقال كمانع للمعرفة ليس هو مطلق الإدراك الحسي، لأنّ الإدراك الحسي في نفسه وفي الأصل غير مذموم، ولا يمنع الإنسان من الوصول الىٰ المعرفة الصحيحة، ليس هٰذا فحسب، بل هو من المقدّمات الضرورية للوصول إليها، فمن فقَد الإدراكات الحسية عجز عن الوصول الىٰ الكثير من المعارف العقائدية والإدراكات العقلانية أيضاً. في هٰذه الحالة يُطرح

---

(١) يس: ٧٨ و ٧٩.

هٰذا السؤال: إذنْ ما المقصود من أنّ الميل الىٰ الحس يمنع الإنسان من المعرفة الصحيحة؟

للإجابة يمكن القول: المقصود من الميل الىٰ الحس والذي يعتبر مانعاً من المعرفة أمران:

١ ـ الميل الفكري المتطرّف تجاه الإدراكات الحسية، كما حصرت جماعة المنشأ الأساس لجميع الإدراكات البشرية في الإدراكات الحسية في مجال علم المعرفة والأبحاث الذهنيّة (أبيستمولوجي) وأسّسوا (مذهب الحسّيين) مقابل (مذهب العقليين). كان هٰذا القول خاوياً وبلا معنىٰ، حتّىٰ أن القائلين به نظراً لكونهم بشراً ولحكومة القواعد الذهنيّة ـ شاؤوا أم أبوا ـ علىٰ عقولهم فانّهم وإنْ أطلقوا هٰذا القول، وأسّسوا هٰذا المذهب الاّ أنّهم لم يلتزموا به عملياً، ولم يتمكنوا من ذلك لانّهم كانوا يستدلّون كغيرهم، ويتمسكون بأُصول ليس لها أساس حسي أبداً. ولو تأمّلوا لانتبهوا انّ الإلتزام بهٰذا الكلام يعني حرمانهم من المعارف الإنسانية والعجز عن الوصول إليها.

٢ ـ الميل العملي المتطرف في الإدراكات الحسية الىٰ حدّ المنع من أداء دورها، بمعنىٰ أنّ الإدراكات والمدرَكات الحسية في الواقع تكون بمثابة المادة الأولية بالنسبة لقوة التحليل العقلية، ودورها الأساس فيما يتعلّق بالمعرفة هي أنها توفّر أرضية البحث والتحليل والإستدلال العقلي، وهي في الحقيقة سُلّم نصل به الىٰ مرحلة الفكر وندرك المعارف الصحيحة. الآن، بدلاً من استخدامها كآلة ووسيلة للوصول الىٰ مراحل الفكر والمعرفة، لو استغرقنا فيها بحيث نعجز عن الفكر والإستنتاج، نقول في هٰذه الحالة: هٰذه الإدراكات الحسية بدلاً من أن ترفعنا

الىٰ الأعلىٰ، وتوصلنا الىٰ العقائد الصحيحة قد منعتنا من الوصول إليها، ومن أن نفكر بنحو صحيح ونصل الىٰ المعارف.

وعليه ان ما يبدو ضرورياً هو رعاية حدود كلّ شيء وقدره لكي يوضع في موقعه المناسب، والاّ فانّ عدم رعاية الإدراكات والمدركات الحسية وعدم الإهتمام بها أو فقدانها يكون مانعاً من الوصول الىٰ الإدراكات والمعرفة الصحيحة، بدرجة منع الميل الىٰ الحس نفسه من المعرفة الصحيحة. كما أنّ رعاية هٰذه الملاحظة ضرورية بالنسبة للموانع الأخرى، من قبيل التقليد والعمل بالظن، وسنقوم ببيان تفصيلي لهٰذه الملاحظة في موقعها المناسب.

٢ ـ التقليد

من الأمور التي تمنع التعقل واكتساب المعرفة الصحيحة هو (التقليد)، فذَوو الفكر الضعيف والمتخلفون عقليا وفكرياً يستندون بدلاً من التفكير واستخدام العقل بنحو صحيح الىٰ عقائد الآخرين استناداً كاملا، ويتلقّون معتقداتهم منهم. انّ أكثر أنواع التقليد البشري طبيعية هو تقليد الأشخاص آباءهم وأجدادهم، أو تقليد جيل اجتماعي الجيلَ السابق. يذكر القرآن الكريم وفي مواضع عديدة وبأساليب بيانية مختلفة (التقليد) كمانع أساس من التعقل والإدراك الصحيح للقضايا، وتحصيل العقيدة والمعارف الصحيحة، نشير الىٰ عدد من الآيات:

قال تعالىٰ في موضع:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(١).

اعتبرت الآية تقليد الآباء من خلال ذمّه نقطة مقابلة لاتّباع الكتاب السماوي والوحي، وأشارت الىٰ هٰذه الحقيقة في موردين:

قالت في الأول: هل إنّهم يتمسكون بالكتاب الذي أنزلناه إليهم؟ وتردّ علىٰ هٰذا السؤال الانكاري: كلا، فانّهم يذعنون ويروّجون هٰذه العقيدة الخاطئة بتقليد آبائهم.

وتقول في الثاني: انّ نبيّ الله أجابهم مرّة أُخرىٰ عن قولهم أنّنا نقتدي بآبائنا: حتّىٰ لو قُدِّمت لكم أموراً هي أهدىٰ لكم ممّا كان لدىٰ آبائكم؟

وفي موضع آخر جاء حكاية عن معركة نبي الله العظيم ابراهيم عليه السلام مع الاصنام وعبادتها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

كما جاء:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٣).

في هٰذه الآيات كان ابراهيم عليه السلام يسعىٰ من خلال ذمّ تقليد الآباء والحكم

---

(١) الزخرف: ٢١ ـ ٢٤.

(٢) الأنبياء ٥١ ـ ٥٤.

(٣) الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤.

بضلالهم في عبادة الاصنام، وضلال الأبناء في تقليدهم الأعمىٰ للآباء أن يحيي فيهم روح الإستدلال، ويحفّز فيهم قوة الإدراك العقلي ويحلّه محل التقليد، كما طرحت الآيات السابقة الوحي في مقابل التقليد.

نستنتج أنّ التقليد الأعمىٰ سبب لشقاء الإنسان، وأنّ طريق السعادة ينحصر في هٰذين الطريقين: الأول هو الفكر الصحيح، والثاني هو الإستماع الىٰ وحي السماء وهو يستند الىٰ العقل أيضاً، كما جاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

علىٰ أيّ حال فانّ الإنسان مسؤول بنفسه عن مستقبله ومصيره، وعلينا ـ بقرارنا الصحيح الذي يحتاج هو الآخر الىٰ التفكير الصحيح والتعقل ـ أن ننظّم أعمالنا وسلوكنا بنحو تكون حياتنا في المستقبل قرينة السعادة، والاّ فإنّنا في كلّ حال نكون السبب في تدمير مستقبلنا وتحمل شقائه ومرارته، فلا ينفعنا، وليس بوسعنا ارجاع السبب في ذلك الىٰ الآخرين، واعتبارهم مقصّرين وسبباً لشقائنا، لأن الله سبحانه قد أودع في فطرتنا وذواتنا قدرة تمييز الحق من الباطل، وإن عشنا في مجتمع غارق في الأباطيل والخرافات، أو في أُسَر ذات انحراف عقائدي جيلا بعد جيل، إذنْ لا ينبغي في هٰذه القضية المهمة ان نسلّم أنفسنا ومصائرنا تسليماً أعمىٰ لأفكار وعقائد الآخرين، بل يلزم بمعونة الوجدان الفطري والعقل الإلٰهي والمعايير الفطريّة أن نقوم بدراسة وتقييم الأفكار ونميّز الصحيح عن السقيم منها، ونتّعظ بالتأريخ لا أن نستسلم له استسلاماً أعمىٰ، من هنا قال تعالىٰ عن الفطرة المستقلة:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٢).

---

(١) الملك: ١٠.

(٢) الشمس: ٧ و ٨.

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

هٰذه الآيات تعتبر لكلّ فردٌ إنساني شخصية إلٰهيّة ومستقلة، ويمكن بما يناسب بحثنا أن نخرج بنتيجتين منها:

١ ـ انّ الإنسان بهٰذه الشخصية الفطريّة لا يفقد نفسه تماماً تجاه التأريخ والمجتمع ولا يذوب فيه، ولا نريد القول ـ طبعاً ـ إنّه لا يتأثّر بهما أبداً بل نقول: لا يذوب فيهما ولا يفقد حريته واختياره وعليه فانّ نظريات كنظرية الجبر التأريخي ونظرية أصالة الجمع الفلسفية بإمكانها الإنتفاع بهٰذه الرؤية الإلٰهيّة القرآنية التي تطرح الفطرة الإنسانية واستقلالية شخصية الإنسان بنحو يكون قادرا علىٰ الوقوف بوجه مسيرة التأريخ كالسدّ المنيع، وأن يستفيد منه ـ بشكل تؤخذ منه العبرة ـ حسب ما يحبّ وعلىٰ أساس اختياره الحر،بل ويغيّر مسيرة التأريخ الىٰ الوجهة المقصودة وسوقها الىٰ مسير آخر.

٢ ـ لا يمكن تبرير التقليد الأعمىٰ وتوجيه التقصير اعتمادا علىٰ التقليد كعذر بين يدي الله والأنبياء عليهم السلام، إذ مع وجود هٰذه الشخصية الفطريّة المستقلة لا يُقبل من الإنسان هٰذا العذر، لا في هٰذا العالم وبين يدي انبياء الله ورسله عليهم السلام ولا في العالم الآخر بين يدي الله سبحانه.

في الختام كما أشرنا في بحث الميل الىٰ الحس سيكون اجتناب الافراط

---

(١) الأعراف: ١٧٢ و ١٧٣.

والتفريط ملازما للحياة الإنسانية وتعاليها. نريد القول انّ (التقليد) لا يعني أبداً أنّنا لا نستفيد في الحياة من فكر أيّ إنسان، وننبذ جميع العلوم والعقائد والأفكار لدىٰ الآخرين بحجة نبذ التقليد واكتساب الإستقلال ـ سواءً أكانت قبيحة أم جميلة، حقاً أم باطلا كما هو حال بعض المتشدّدين، خاصّةً فيما يرتبط بآراء المفكّرين في الغرب، إذْ كانوا يبدون هٰذا الميل السلبي المطلق، سيّما عند ردّ وطرد بعض العظماء والمفكّرين في أوساطنا، في حين انّ هٰذا أمر غير عملي وغير ممكن، إذْ إنّ حياة النوع الإنساني تكون متناسقة وموحدة الىٰ حدّ كبير بحيث أنّ الافراد والمجتمعات في حياتهم يواجهون غالباً مشكلات متماثلة ذات حلول متشابهة، وهٰذا أمر طبيعي ومعقول جدّاً، ولاختصار الطريق تدرس الأفكار المطروحة والطرق المتّبعة من قبل الآخرين، وتستثمر تلك الأفكار والتجارب في مواصلة الحياة وحلّ المشكلات، وليس ذلك أمراً طبيعياً ومعقولاً فحسب، بل لا مفرّ منه، إذْ ليس بوسع فرد أو مجتمع أن يدّعي انّه لم يصله شيء من أفكار الآخرين وتجاربهم ومناهجهم. غاية الأمر يقوم المفكّرون والباحثون والمصلحون في المجتمعات البشرية باجراء تطورات في مجال الأفكار والعلوم والمعارف البشرية بصورة أعمق أو أكثر سطحية، أوسع أو اضيق، ويكمّلون طريقة ما ويقدِّمون منهجا جديداً، ويعرضون أصولا حديثة أو يضيفون الىٰ هٰذه العلوم والمعارف من خلال كشف المجهولات.

إذنْ ما يذمه القرآن الكريم باسم التقليد وينبغي توضيحه هنا هو أن نقوم بـ(التقليد) الأعمىٰ وبآذان مغلقة بالحيلولة دون تنمية أمورنا الماديّة والمعنويّة والعقلانية، ونحرم أنفسنا من ارشادات الوحي المباركة والمعارف السماوية العميقة الحية، ومسيرة التفكير الصحيحة والارشادات العقلانية الثابتة، والمعطيات

البشرية بصورة أعمق أو أكثر سطحية، أوسع أو اضيق، ويكمّلون طريقة ما ويقدِّمون منهجا جديداً، ويعرضون أصولا حديثة أو يضيفون الىٰ هٰذه العلوم والمعارف من خلال كشف المجهولات.

إذنْ ما يذمه القرآن الكريم باسم التقليد وينبغي توضيحه هنا هو أن نقوم بـ(التقليد) الأعمىٰ وبآذان مغلقة بالحيلولة دون تنمية أمورنا الماديّة والمعنويّة والعقلانية، ونحرم أنفسنا من ارشادات الوحي المباركة والمعارف السماوية العميقة الحية، ومسيرة التفكير الصحيحة والارشادات العقلانية الثابتة، والمعطيات الكبيرة لتجارب بني الإنسان الصحيحة والمجتمعات البشرية والقيم الإنسانية السامية. أي بدلاً من الإنتفاع بأفكار ومنجزات الماضين وآبائنا وأجدادنا أو المجتمعات الأُخرىٰ باتجاه تنمية وتوسيع وتصحيح أفكارنا ومعارفنا وأمورنا الماديّة والمعنويّة، ونعتبر بها وتكون عاملاً لرقيّنا وتعالينا تتحول الىٰ حالة تقليد أعمىٰ وسمع مغلق تسبّب سباتنا وتخلفنا وانحطاطنا.

انّ عامل (التقليد) لا يتلخّص في تقليد الآباء والماضين منا، بل كثيراً ما يفقد شعب استقلاله وشخصيته تجاه شعب آخر ذي امتياز خاصّ في الحياة الماديّة ومن المجتمعات المتقدمة ـ كما يصطلح ـ ويتفاعل ضعاف العقل في هٰذه الموارد مع الآثار النافعة التي يتلقّونها من ذلك الشعب في حياتهم الماديّة، ويبالغون في الإنجذاب إليها من الناحية الشخصية ومن ناحية الحركات والسكنات وبصورة غير منطقية، ويودّون بصورة مقزّزة تلقّي كلّ شيء من ذلك (الشعب المتقدّم).

يمكن ملاحظة النموذج الواضح لهٰذا (التقليد) في الشباب قبل الثورة الإسلامية الذين نشأوا علىٰ يد نظام الشاه (بهلوي) حيث كانت الشعارات المتطرفة لبعض السياسيين تنادي: (يجب ان نكون غربيّين في كلّ شيء) وهكذا

راس السنة الميلادية الجديدة تقليدا للأوربيّين النصارىٰ الذين لا يؤمن الكثير منهم بالنبي عيسىٰ عليه السلام والديانة المسيحية، بل يقيمون هذه الإحتفالات بغية الأُنس والإلتذاذ. كنتَ تشاهد المسلم الايراني الذي ربّاه نظام الشاه ـ وليس الايراني فحسب بل المسلم في الكثير من البلدان الإسلامية ـ وهو يقلّد الأوربيين المؤمنين أو غير المؤمنين بالمسيحية بحجة تقدّمهم المادي والصناعي الذي استهوىٰ قلبه تماماً، ويهتمّ بأداء تلك الممارسات المألوفة لديهم عشيّة الميلاد بدون تحليل عقلي.

وفي القرآن الكريم نلاحظ نماذج من تقليد الشعوب الأخرى، حيث يقول بأنّنا نذكر بني اسرائيل حينما غادروا مصر وتوجهوا الىٰ الأرض المقدسة، مرّوا في طريقهم علىٰ مدينة طاب عيش أهلها، وكانوا يمارسون عبادة الاصنام في معبد جميل عبادة مقرونة عادةً مع الرقص وشرب الخمور والطرب واللذائذ الماديّة، فلما لاحظ بنو اسرائيل تلك المشاهد ارتضوها واستهوت قلوبهم وأنفسهم حتّىٰ انّهم طلبوا من موسىٰ عليه السلام أن يجعل لهم إلٰهاً كما كان لاولئك، بدون الإلتفات الىٰ ماضيهم وأحاديث نبي الله، وقد ورد ذلك في هٰذه الآيات:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١.

كان هٰذا الطلب في الواقع تجسيداً لروح التقليد التي ظهرت لدىٰ هٰؤلاء القوم، وقد أبدى النبي موسىٰ ﷺ سخطه علىٰ هٰذا الكلام، بعد كلّ تلك الجهود والمعارك التي خاضها من أجل تحريرهم، ولامَهم علىٰ جهلهم وتحجّرهم الفكري، وتقليدهم أفكار الآخرين الخاوية والمراسم الباطلة بلا دليل، ولعل التفسير النفسيّ لهٰذا الطلب هو أنّهم لاحظوا أولئك القوم يعيشون عيشة طيبة، ولهم مدينة جميلة و ـ فرضاً ـ معبد علىٰ هضبة عالية خضراء وبساتين ذات اشجار نضرة تحمل ثماراً متنوعة، وعيون وحياض ومياه جارية ونساء جميلات وأبنية فاخرة و... فجذبتهم هٰذه المشاهد، ومن جهة أُخرىٰ قاموا بمقارنة هٰذه الحالة مع حالتهم فلاحظوا أنّهم أُناس مشرّدون دوماً، لا يملكون حياة سليمة وعامرة، فقد كانوا لمدة من البدو في الصحراء، وخدموا المصريين لمدة أُخرىٰ، وهم الآن بعد خلاصهم من سلطة فرعون مشردّون، لا يملكون مساكن ولا مدينة ولا بستانا ولا ارضا، وغير مستقرين ولهم مصير مجهول في المستقبل، في مثل هٰذه الأحوال حينما شاهدوا رفاه أهل تلك المدينة وتقدّمهم ودّوا لو يكونون مثلهم ويعيشون عيشتهم، الاّ أن الامتياز الواضح لاولئك الناس والذي لفت أنظارهم هو المعبد وعبادة الاصنام ومراسمها الخاصّة، ولذا طلبوا من موسىٰ ﷺ بأن يكون لهم إلٰه وصنم وطريقة مشابهة لعبادتهم، ويماثلونهم في طريقة الحياة والعبادة والدين، ولكنهم واجهوا نبي الله يلومهم علىٰ جهلهم.

علىٰ أيّ حال، من العوامل المانعة من اكتساب المعرفة الصحيحة هو (التقليد) الأعمىٰ واللامنطقي والخضوع للشعوب المتقدّمة، أو أيّ إنسان يلاحَظ فيه نوعٌ من الامتياز والظهور الملفت.

٣ ـ الإستناد الىٰ الظن

العامل الآخر الذي يصدّ الإنسان من اكتساب المعرفة الصحيحة هو خصلة الركون الىٰ الظن والتي تنمو في حياته تدريجيّاً. ليس بوسعنا ان نعلم علما قاطعا في شؤون حياتنا المتشعّبة والمتنوعة بكلّ ما يقع من أحداث، من هنا لا نتعب أنفسنا لتحصيله عادة، ويكون المنطلق في أعمالنا وتحركنا هو الإستناد الىٰ الظنون التي تحصل بجهد يسير وبسيط. عندما نتحرك ونركب سيارة بهدف الوصول الىٰ المقصد لا نطمئن تماماً بأنها توصلنا الىٰ المقصد، بل نحتمل طروء موانع مختلفة تحول دون وصولنا اليه، وذلك بوقوع حادث اصطدام أو عطل في السيارة أو مشكلات أُخرىٰ، ومع ذلك نظن انّ بوسعنا الإنتفاع بواسطة النقل هٰذه والوصول الىٰ المقصد، وهٰذا الظن يمثّل المنطلق لتحركنا وتنظيم برنامج حياتنا، ونقوم عادةً بأعمالنا الأُخرىٰ في الحياة علىٰ هٰذا المنوال، حتّىٰ إنّه يهيمن بصورة إدمان علىٰ مجريات حياتنا وحركاتنا وسكناتنا.

من جهة أُخرىٰ قد لا يثير الإستناد الىٰ الظن في الشؤون الإعتيادية والماديّة مشكلات كبيرة، ولكن تنجم خسائر كبيرة لا تُعوّض حينما يكون ظهور هٰذه العادة في جوانب الحياة الإعتيادية منشأ لاكتفائنا بالظن أيضاً في قضايا أهمّ دون الإهتمام بتحصيل علم قاطع وواضح وجازم.

القرآن الكريم يرجع السبب في الكثير من إشكالات المشركين والكفار الىٰ هٰذا الإعتماد اللامنطقي علىٰ الظن ويذمّهم علىٰ اتّباعهم الظنون والأوهام، نشير هنا الىٰ نماذج من الآيات:

في بعضها يعلل القرآن الكريم شرك المشركين بالإستناد الىٰ الظن بقوله:

﴿أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ

شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[١].

وقال في موضع آخر:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[٢].

في هٰذه الآيات تُلاحظ هٰذه الحقيقة، وهي أنّ الله سبحانه يرجع عقائد المشركين الباطلة وشركهم الذي لا أساس له الىٰ هٰذه القضية النفسيّة، وهي أنّ أحاديث هٰؤلاء وعقائدهم وأعمالهم ليست سوىٰ أوهام وظنون ويستندون الىٰ ظنونهم بدون جدوى.

وفي بعض الآيات يرجع الجحد بيوم القيامة، والحكم بعدم وجود عالم آخر وراء العالم المادي هٰذا الىٰ الإستناد الىٰ الظن والأوهام والخيال وتقول:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٣].

وفي آيات أُخرىٰ يحلل عقائد خرافية أُخرىٰ بهٰذا الأصل ويقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[٤].

و﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

---

(١) يونس: ٦٦.

(٢) يونس: ٣٥ و ٣٦.

(٣) ص: ٢٧ و ٢٨

(٤) النجم: ٢٧ و ٢٨.

وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[١].

كما إنّه يرجع الضلالات كلها في آية الىٰ الإستناد الىٰ هٰذا الموضوع وهو الاعتماد علىٰ الظن ويقول:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٢].

هنا يطرح هٰذا السؤال: ما المراد من الإستناد الىٰ الظن ولماذا هو قبيح؟ خاصّةً مع الإلتفات الىٰ هٰذه الحقيقة، وهي أنّ الشك والظن سُلّمان أو خطوتان نحو تحصيل العلم القاطع، ولا مفرّ الاّ أن نتردّد في كلّ مسألة ثمّ نبدأ بالتفكير، وبعد الفكر والدراسة يقوىٰ لدينا احتمال واحد أو احتمال أحد الطرفين وإن لم ينفَ الاحتمال المقابل تماماً. أي بعد الشك ندخل في الظن، وبعد التفكير والدراسة نحصل علىٰ علم قاطع في المر ة الثالثة.

مع ملاحظة ما ذكر ينبغي القول: من الضروري ـ في لحاظ ـ الإستناد الىٰ الظن للوصول الىٰ العلم، ولا مفرّ عن ذلك وعليه يكون من الضروري جدّاً الإجابة عن السؤال المذكور حول هٰذه القضية وتوضيحها وذلك بالقول:

إنّ الظن يستعمل تارة كحالة نفسيّة بسبب عدم اليقين لدىٰ الإنسان، وهٰذه الحالة لا قيمة سلبية لها فحسب، بل لها قيمة ايجابية اذْ هي بمثابة جسر يجب اجتيازه نحو اليقين والعلم القاطع، ولكن في الموارد التي يذمّ فيها الإستناد الىٰ الظن لا يكون الذمّ بلحاظ هٰذه الحالة بل بلحاظ لازمها، أعني هٰذه الحقيقة وهي أنّ الظنون لا توصل الإنسانَ الىٰ اليقين ولا تكون مقدمة لتحصيله دائماً ونظراً

---

(١) النجم: ٢١ ـ ٢٣. (٢) الانعام: ١١٦.

لتخلّفها عن الواقع في الكثير من الموارد يُلاحظ فيها حيثية اللاإنسجام مع الواقع، وبهذا اللحاظ يعتبر القرآن الكريم الموارد التي يحسب الإنسان انّه علىٰ يقين وقطع ولكن يقينه وقطعه لم يطابق الواقع من الظن، لأن الطريق مفتوح أمام هذا الإنسان ذي العقيدة القاطعة الباطلة لكي يصل الىٰ الحقيقة، فاذا دخل عن طريق العقل بصورة دقيقة وأعمل فكره بنحو جيد فسوف ينكشف وهن عقيدته، وسيصل الىٰ منهل الحقيقة الصافي والعذب.

في ضوء ما ذكر سيكون المراد من الإستناد الىٰ الظن المذموم في القرآن الكريم أمرين:

الأول: الإستناد الىٰ الإعتقاد الذي ينافي الواقع وإن كان اعتقادا قاطعا.

الثاني: الإستناد الىٰ الإعتقاد غير القاطع أي الظن وإن كان مطابقا للواقع، لأن الإنسان في الأول لا يصل الىٰ الواقع والحقيقة وإن كان قاطعا ومتيقنا، وفي الثاني لا تتصف طريقته وحالته بالاطمئنان والثبات المطلوب، ولا مؤمّن لصحته، ولا يوصل الإنسان الىٰ الحق. انّ الإنسان العاقل يبني حياته علىٰ الحقائق لا الأوهام والخيال، سيّما في القضايا العقائدية والمبادئ الأساسية للرؤية الكونية، حيث يتأكّد الإدراك القاطع للواقع والإعتقاد القاطع بشأنها، أي العلم الكاشف عن الواقع الذي يحصل وفق المنطق الصحيح، وهو الطريق الذي يسير فيه جميع الناس بمقتضىٰ فطرتهم الإنسانية عند الكشف عن الحقائق ويصلون الىٰ مقاصدهم.

إذنْ المانع الآخر من اكتساب المعرفة العلمية هي حالة الإستناد الىٰ الظنون التي لا مفرّ منها في حياتنا اليومية، ونظراً لأُنسنا بها وصيرورتها عادةً لنا فإنّنا لا نهتمّ بتحصيل العلم القاطع في الأمور الأساسية والمهمة أيضاً، والقرآن الكريم يحذّرنا من خطر هذه العادة، فانّه وإن أمكن الإكتفاء بالظن في شؤون الحياة

اليومية والقضايا البسيطة في الحياة، خاصّةً إذا كان تحصيل العلم اليقيني غير ممكن، ولكن هٰذه العادة اللاشعورية يجب أن لا توصد طريقنا لتحصيل العلم القاطع في القضايا الأساسية، فانّ ذلك لا يوصلنا الىٰ الحق، ويورد علينا ضرراً وخسارة فادحة.

الميول المعارضة

هناك موانع أُخرىٰ تصدّ الإنسان عن اكتساب المعرفة الصحيحة وتحصيل العلم وترتبط كثيراً ما ببعد الميول، كما إذا ظنّ حرمانه من بعض الخيرات الماديّة فيما لو اهتمّ باكتساب المعارف الحقة.

إن الذين يتمتّعون في الحياة الدنيا بعيشة مرفّهة منعّمة قد تيسّرت لهم أدوات الراحة والإلتذاذ كافة يتشبّثون بشدّة بأوضاعهم الجارية عادة، فانْ أحسّوا بوجود ما يشكّل خطراً علىٰ هٰذه الأوضاع فانّهم لا يودّون إشغال أذهانهم به، بل علىٰ العكس يقومون بمواجهته.

بصورة عامّة نلاحظ في الآيات القرآنية ثلاثة موانع ـ على الأقل ـ للفكر الصحيح وهي:

أ ـ اللذائذ والأهواء الآنيّة: و توجد في جميع الأشخاص إجمالاً، مع فارق أنّها تكون لدىٰ البعض في حدود معيّنة ومعقولة، فلا تتعارض مع أعمالهم الضرورية الأُخرىٰ، كما لا تحول دون التفكير والتأمّل في المستقبل، بينما تطغىٰ في البعض الآخر هٰذه اللذائذ والأهواء وتقوم بسلبهم جميع الفرص وتمنعهم من التدبر في

المستقبل، سواءً أكان مستقبلاً ماديّاً ودنيوياً أو معنوياً وأخلاقياً وأُخروياً، وبعبارة أُخرىٰ تتحوّل حياتهم الىٰ حياة غريزية وحيوانية تماماً، ويمكن استنتاج هٰذه الملاحظة من آيات كثيرة نشير هنا الىٰ نماذج منها، كالآية:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

والآية:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾[٢].

ب ـ النظرة الماديّة المتطرّفة للمستقبل:

في المرحلة الثانية هناك أشخاص ينتفعون بأفكارهم، ولا يغرقون في اللذائذ والأهواء الآنية، الاّ أن أفكارهم وأقوالهم تتلخّص بصورة عامّة في شؤون الدنيا بحيث يشغلهم جمع المال، وابتغاء القوة وتحصيل المقام والموقع الاجتماعي في الدنيا الىٰ حدّ الغفلة الكاملة عن الله عزّوجلّ والقيامة والمعنويات ومستقبلهم. في الحقيقة انّ فكر هؤلاء ليس ميتاً ومعدوماً كالمجموعة الأُولى، الاّ أنّه أسير الرغبات الماديّة الدنيويّة، وحبّ المال، والإهتمام بالمقام وابتغاء القوة، وليس بوسعهم الخروج من السجن المظلم، واستنشاق عطر الروح والريحان والجنة والنعيم والقرب والرحمة الإلٰهيّة أبداً.

قد لا يكون لهٰذه المجموعة عنادٌ خاصّ مع الله عزّوجلّ والرسول والقيامة، الاّ انّها غارقة تماماً في المال والمنصب والقوّة وبالتالي هي غافلة عن هٰذه الأمور

---

(١) الأعراف: ١٧٩.
(٢) محمد ﷺ: ١٢.

تماماً. في هٰذا المجال آيات كثيرة نشير الىٰ عدد منها، كالآية:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١].

والآية:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[٣].

بديهي ليس المراد من (**يقول**) مجرّد القول باللسان، بل انّه يريد الدنيا فقط ويبحث عنها، ويكون فكره وأقواله وتخطيطه وأعماله وسلوكه من أجل تحصيلها، والآية:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

ج ـ العداء والنفور من الله عزّوجلّ والنبيّ ﷺ والدين: في المرحلة الثالثة هناك أُناس ذَوو أفكار حيّة وليسوا كالمجموعة الأُولى التي لا تفكّر بشأن الموضوعات أبداً غير أنّ فكرهم أسير الميول السلبية والعناد والعداء مع الله عزّوجلّ والرسول ﷺ ويسعَون وينشطون في هٰذا المجال، وإن كان هٰذا العناد فرعاً وانعكاساً لتلك الميول الماديّة الايجابية، أي طلب الجاه وحبّ الدنيا وعبادة المال، ولكن هٰذه الميول تظهر علىٰ صورة عداء مباشر مع الله وعبّاده، والتكذيب والإدبار

---

(١) التكاثر: ١ و ٢.
(٢) الحجر: ٣.
(٣) البقرة: ٢٠٠.
(٤) هود: ١٥ و ١٦ وأمثالها: الإسراء: ١٨ و الشورىٰ: ٢٠.

والإستكبار والقتل وسفك الدماء، وفي هٰذا المجال يمكن الإشارة الىٰ بعض الآيات، من قبيل:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾[١].

علىٰ أيّ حال، هٰذه أنواع ثلاثة من الرغبات العامّة التي يختلف أحدها عن غيره، الاّ أنّها تصدّ الإنسان من التفكير الصحيح بشأن الموضوعات الجديرة بالتفكير.

وبإمكاننا تقسيم الرغبات التي تزاحم التفكير الصحيح بلحاظ آخر:

يعرّف القرآن الكريم شريحة من المجتمع تحت عنوان المترفين، والمسرفين، والمبادرين للخصام مع الأنبياء عليهم السلام حيث كانوا يواجهون كلّ نبي يرسل إليهم ويخالفونه، ولعلّ السّر في معارضتهم هو رغبتهم في المعيشة الرغيدة التي كانوا يحظَون بها، ولم يشعروا بنقص في حياتهم. ومن جانب آخر يظنّون ويوقنون أحياناً بأنّهم لو سلّموا بنهج الأنبياء عليهم السلام واستجابوا لدعوتهم فانّ الخطر سيهدد حياتهم الطيبة، وكان الميل الىٰ الرفاه والراحة منشأً لمعارضتهم.

الميل الثاني الذي يصدّ الإنسان عن تحصيل المعرفة هو الميل الىٰ المكانة الاجتماعية، إذْ إنّ الإنسان لو فكّر أنّ الايمان بالله عزّوجلّ والقيامة والآخرة

(١) المدثر: ١١ ـ ٢٩.

يهدد موقعه الاجتماعي، فإنّ هٰذا التفكير سيصدّه عن التدبّر بشأن الموضوعات المذكورة.

الكثير من الناس يرومون الموقع الاجتماعي كوسيلة لتحصيل مصالح ماديّة، حتّىٰ يتيسّر لهم النهب والإستغلال في ظل ما توصلوا إليه، الاّ أنّ الأمر لا يكون هكذا في كلّ مكان، إذ تكون للمقام موضوعيّة لدىٰ البعض. انّ إحدىٰ الرغبات والميول النفسيّة في الإنسان هي أن يكون ذا امتياز معتبر بين الناس، وذلك بأن يدعىٰ (الرئيس) ويقابل بالاحترام.

هٰؤلاء علىٰ عكس المجموعة الأُولى يرجّحون ان تحفظ مواقعهم عندما تتهدد مصالحهم الماديّة والمالية، وكثيراً ما ينفقون الأموال لاكتساب مكانة أو منصب أو شهرة أو للإحتفاظ بها، ممّا يدلّ علىٰ حقيقة أنّ الميل الىٰ المقام وحبّ الجاه ميل مستقلٌ في نفسه، ويصدّ الإنسان عن ممارسة التفكير الصحيح ذهنيا، وكسب نتائج ومعارف صافية وحقائق، لانّهم لو اتّبعوا الأنبياءﷺ فانّ الخطر سوف يهدد هٰذه المقامات والمناصب.

في القرآن الكريم آيات تشير الىٰ هٰذا الأمر، أو يمكن استيحاء ذلك منها علىٰ الأقل، كالآية:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾[1].

والآية: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[2].

والآية: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ

---

(١) مريم: ٨١.

(٢) النساء: ١٣٩.

الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[1].

والآية: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾[2].

من خلال هٰذه الآيات وأمثالها نستنتج انّ مجموعة من الناس كانوا يهدفون في الواقع الىٰ اكتساب العزة والموقع الاجتماعي قبل عبادة الاصنام والآلهة الباطلة، وقد سحر طلب المقام والموقع هٰذا عيونهم ومجامع قلوبهم الىٰ حدّ لم يسمحوا لأنفسهم بالتدبر في الحق والحقيقة والله تعالىٰ والقيامة والوحي والنبوة أبداً، لانّهم كانوا يرون انّ هٰذه الأفكار تزاحم مواقعهم وتعارضها.

العامل والميل النفسيّ الثالث الذي يمنعنا من التفكير الصحيح واكتساب المعرفة الصحيحة هو الميل الىٰ الإستكبار والتكبّر الذي يشتدّ ويضعف حسب الأشخاص، وقد يكون شديدا الىٰ درجة يعتبر الإنسان التواضع للغير عاراً، بل لا يمكنه الخضوع أمام الله وخالق جميع الموجودات وابداء التواضع له، وهٰذا هو أعظم مراتب الكبر وأخطرها.

كمثال ينقل التأريخ انّ أهل الطائف بعد انتصارات الرسول الأكرم ﷺ اضطروا للتسليم له ولكنهم اقترحوا عليهم بقولهم: انّنا ندخل في دينك بشرط أن ترفع عنّا الصلاة وتعفينا من السجود لله علىٰ الأرض فانّه أمر ثقيل علينا وليس بوسعنا تحمّله.

---

(١) النعكبوت: ٢٥.   (٢) المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨.

إنّ التفسير النفسيّ لهٰذا الإقتراح هو أنّ روح التكبر فيهم كان من القوة ما أعجزهم عن الخضوع لله، وهٰذا النوع من التكبر والىٰ هٰذه الدرجة من الإستكبار موجود في الشيطان أيضاً لانّه كان خاضعاً لله **(قدْ عبَد اللهَ ستَّة آلافِ سنةٍ لا يُدرى أمِن سِنيِّ الدُنيا أمْ من سِنيِّ الآخِرة)**.

أجل، إنّ الشيطان لم يشعر بالعار من السجود لله وقد مارس ذلك سنين طوالاً، ولكنه شعر بالعار من الأمر الإلٰهي بالسجود لآدم عليه السلام فعصىٰ وكان عصيانه سبباً لسقوطه. إذنْ لو وجد إنسان يشعر بالعار من الخضوع لله فانّه أسوء حالاً من الشيطان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

وهناك نماذج كثيرة ذات درجات دانية من الكبر، وقد أُشير الىٰ نماذج تأريخية كثيرة في القرآن الكريم، والىٰ الأمم السالفة التي لم تطعِ الأنبياء عليهم السلام.

وأخيراً فانّ العجب والعصبية والغرور يعدّ ـ كالكبر ـ من الميول المانعة من التفكير ومزاحمة لتحصيل المعرفة كالتعصب العرقي، والتحزّب والفئوية وبصورة عامّة العصبيات الباطلة وفي غير محلها وهكذا الغرور و...وتصدّ الإنسان من التردّد في سلوكه، ثمّ التفكير حتّىٰ يصل الىٰ الإعتقادات الصحيحة.

* * *

(١) غافر: ٦٠.

القسم الثاني

٣

آثار معرفة الإنسان بالله تعالىٰ

تأثيرات المعرفة نفسيا وسلوكياً

الرؤية القرآنية في تأثير المعرفة

القلوب غير المتفاعلة

الاخبات

الحبّ

الطريق الىٰ تحقّق الحبّ

آثار معرفة الإنسان بالله تعالىٰ

تأثيرات المعرفة نفسياً وسلوكياً

الأفعال التي يقوم بها الإنسان بهدف الإرتباط بالله عزوجل، والحالات التي تطرأ علىٰ روحه في هٰذا السياق تنشأ من معرفته بالله تعالىٰ، أي تـبعاً للـمعرفة الالٰهيّة تبدو في الإنسان حالات وتوجّهات وكيفيات نفسيّة خاصّة، فيقوم بأعمال تقتضيها هٰذه الحالات الخاصّة، وتوجهاته الىٰ الصفات الإلٰهيّة وفي دائرة الظروف الخارجيّة الخاصّة.

إنّ المعرفة التي يكتسبها افراد الإنسان عن الله عزّوجلّ ذات مستويات كثيرة متفاوتة في عمق المفاهيم وسعتها، أي ذات عرض عريض حتّىٰ يـمكن القـول: انّمراتب المعرفة الإلٰهيّة في الإنسان تقرب من اللانهاية، فمثلاً: تكـون المـعرفة التي يكتسبها عموم الناس عن الله بمستوىٰ المعرفة الاجمالية عن موجود قد خُلق العالم بسببه، أي إذا لم يكن موجودا أو كان ولم يشأ خلق العالم، فانّ العـالم لم يوجد ولكن فوق هٰذه المرتبة الاجمالية توجد مراتب مختلفة وكثيرة جدّاً ذات

تأثير كبير ودور مهم في تغيير السلوك والحالات وتصويرها، حتّىٰ تصل الىٰ معرفة الله تعالىٰ بذاته ولا تتيسّر هٰذه المعرفة ولا تكون مقدورة لموجود آخر غيره تعالىٰ.

انّ معرفة الإنسان بالله تعالىٰ ذات حالات خاصّة حسب عمق المعرفة وكمالها، ودرجة التوجه لمعرفته والمفاهيم التي تخطر في ذهنه عن الأسماء والصفات الإلٰهيّة، وهٰذه الحالات اختيارية بلحاظ مقدّماتها، ويمكن ان تكون موضوعا للأمر والنهي الأخلاقي وذات قيمة أخلاقية، وتكون في نفسها منشأً لسلوك إنساني خاص.

ويمكن القول بنحو أدق: إنّ الجذور الفطريّة موجودة في روح الإنسان، وتتبلور علىٰ صورة مشاعر وعواطف وكيفيات نفسيّة، وقسم منها ذو جوانب متعالية ترتبط بالله تعالىٰ كما يمكن القول: انّ هٰذه الحالات والمشاعر لها جانب إدراكي بصورة عامّة، أي إنّ حقيقتها إدراكية ومعلولة للعلم والمعرفه الإنسانية ومتأثّرة بها كما قال الفلاسفة: إنّ العلم يوجد الشوق، ولو شئنا الدقّة لقلنا: إنّ العلم يمنح الفعليّة والجهة للأُسس الفطريّة ويحفّز فطرة الإنسان وأبعاده الفطريّة. وعلىٰ هٰذا الأساس يكون للعلم والمعرفة بالذات الإلٰهيّة وصفاتها واسمائها تأثير فاعل في تحفيز تلك الجذور الفطريّة التي ترتبط بالله تعالىٰ، ويعود الىٰ تلك المعارف تجلّي حالات إلٰهية خاصّة في روح الإنسان، وبالتالي تحديد سلوكه في دائرة الظروف الخارجيّة.

ان الآيات والروايات تأخذ بعين الإعتبار دور المعرفة في خلق هٰذه الحالات أحياناً وفي موارد كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١]، فالعلماء هٰذه حالتهم بلحاظ كونهم علماء، أي إنّ علمهم ومعرفتهم تخلقان في أرواحهم حالة وكيفية نفسيّة هي الخشية من الله، كما ورد في رواية عن الامام الرضا عليه السلام: **(من كان بالله أعرف كان من الله أخوف)**[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **(أكثر الناس معرفة لنفسه أخوفهم لربه)** بلحاظ انّ كلّ إنسان عرف نفسه فقد عرف ربه وخافه. علىٰ أي حال فانّ هٰذا النوع من الآيات والروايات يبين العلاقة الوثيقة بين المعرفة من جهة والحالات النفسيّة من جهة أُخرىٰ، وهي التي تلاحظ هنا.

ويجدر هنا الإلتفات الىٰ هٰذه الملاحظة، وهي أنّ تأثير المعرفة في تجلّي الحالات المذكورة ليس علة تامّة، إذْ من الممكن أن توجد المعرفة بمعنىٰ التصديق الذهني والإدراك العقلي اليقيني والقطعي بدون احتمال للمعارض، ولكن لا تأثير لها في تحفيز هٰذه الحالات وبالتالي تنظيم السلوك الإنساني، أي إن تأثيرها يتوقّف علىٰ توفّر الشرائط الأُخرىٰ الىٰ جانب العلم والمعرفة، وعليه فانّ تأثير المعرفة يكون بمستوىٰ جزء العلة.

هٰذه الحالات القلبية التي تعرف بصورة عامّة كأحاسيس وعواطف وأحياناً بأسماء أُخرىٰ تُسند الىٰ القلب لأنّه مركز المشاعر والعواطف.

وقد قلنا في البحث المعنيّ بذلك: إنّ القلب هو روح الإنسان من جهة امتلاكها قوة المعرفة الحصولية والحضورية وذات مشاعر وعواطف خاصّة، والآن نقول: إنّ المعرفة والإدراك يحفّزان القلب أحياناً بأن تكون له حالة تتناسب مع تلك المعرفة، ولكنه لا يملك أحياناً هٰذا الإستعداد، وتكون حالة الإنسان النفسيّة بنحو

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠ / ٣٩٣ ح ٦٤.

لا تبرز فيه تلك الحالة والمشاعر الخاصّة رغم وجود ذلك العلم والمعرفة ذاتها، يطلق علىٰ قلب بهٰذه الحالة (القلب القاسي) وعلىٰ هٰذا الانحراف الطارىء عليه (القسوة) كما يطلق (الزيغ) علىٰ الانحراف في البعد المعرفي للـقلب. إنّ قسـوة القلب تسبّب عدم نشوء حالة الخوف والخشية والشوق وأمثالها في قلب الإنسان في الموارد التي تقتضيها. وبوسع أيّ إنسان أن يختبر هٰذه الحقيقة في نفسه وفي الأخرين. فانّه حينما يدرك أمراً ما، أو يلتفت الىٰ معنىٰ ما يحسّ في نفسه بشعور وتأثّر خاصّ تبعاً لذلك، ولكنه في المرّة الثانية يكتسب المعرفة والإلتفات ذاتهما، ولكنه لا يجد في نفسه ذلك الشعور والتأثّر الخاص. أو نلاحظ واعظا يعظ جماعة باسلوب واحد، ولكن ردود الفعل لموعظته لا تكون واحدة لدىٰ الجميع، فهناك من يتفاعل الىٰ حدّ الاغماء، في حين لا يتفاعل الآخر فحسب، بل يتعجب مـن تفاعل الأول واغمائه. إنّ المفهوم واحد وإدراكهما له واحد ولكنهما يختلفان في التفاعل وردّ الفعل القلبي.

الرؤية القرآنية في تأثير المعرفة

في آيات كثيرة يشير القرآن الكريم الىٰ فئتين من البشر مختلفتين تماماً: فئة قد تفاعلت مع الإدراكات والمعارف التي اكتسبتها، وبالتالي تشعر قلوبها بالخوف والخشية وحالات مشابهة لذلك، ويطرأ تغيير إيجابي علىٰ سلوكها، وفئة قـاسية القلب لا تتفاعل مع شيء نصفها بـ(القسوة)، بهٰذا الشأن توجد آيات كثيرة نشير هنا الىٰ آيات كنماذج:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(١).

في الآيتين أشار سبحانه وتعالىٰ الىٰ الفئتين بوضوح:

فئة ذات صدور رحبة، وتغمر خشية الله قلوبها وتلين لذكره، وفئة ذات قلوب قاسية وصلدة ولا تتفاعل مع ذكر الله.

وآيات من قبيل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

والآية:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

وهكذا: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾(٤).

الآيات المذكورة والكثير من الآيات تكشف عن هٰذه الحقيقة، وهي أنّ قلوب الناس علىٰ صورتين: فهي تارة لينة وتتأثّر بالحقائق والمعارف الحقة، وتتصف بحالات مناسبة وقيمة، وتؤدي بالتالي الىٰ تغيير سلوك الإنسان من ممارسة

---

(١) الزمر: ٢٢ و ٢٣.
(٢) الانعام: ٤٢ و ٤٣.
(٣) البقرة: ٧٤.
(٤) ق: ٣٣.

السيئات والخبائث الىٰ فعل الصالحات، وتارة قاسية لا تعرف اللين والتأثّر ولا تتفاعل مع الحقائق والمعارف حتّىٰ المعجزات، وبالتالي لا تترك أعمالها القبيحة والمذمومة أبداً.

هٰذا التأثّر الذي يطرأ علىٰ القلب يطلق عليه في الفارسية (دلشكستگى) وفي العربية (الخشوع) والتشبيهات القرآنية في هٰذا المجال وخاصّةً في بني اسرائيل **﴿فَقَسَتْ قُلوبُكمْ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾** تشير الىٰ أنّ القلب له حالة صلدة فيتصدّع إثر ضربة عامل، ولكنه يتصلّب تارة بحيث لا يتأثّر بأيّ عامل.

حينما ندرس حالاتنا نلاحظ أنّ القلب يتأثّر في حالات مختلفة، وذلك بتأثير بعض العوامل كالشعور بالحرمان والغمّ والحزن فيخشع القلب قهراً، وبحكم الترابط الموجود بين الروح والجسم تطرأ علينا حالة عصبية خاصّة، ثمّ تذرف العيون وتتساقط الدموع.

انّها الفطرة وتركيب القلب الذي جعله الله تعالىٰ بهٰذا النحو حتّىٰ يتصّف بمثل هٰذه الحالات تأثّراً بمثل هٰذه العوامل، فلا يمكن القول أنّها في ذاتها حسنة أو سيئة، بل لابدّ من ملاحظة ماهية عامل الخشوع هٰذا. فاذا كان العامل هو التعلّق بالأمور الماديّة الدنيويّة فانّه غير مرغوب فيه، كالطفل الذي يبكي حينما يفقد لعبته ويعتبر الكبار ذلك أمراً مذموما. ولكن إذا كان العامل بسبب الحرمان من أمور قيمة في العقيدة والرؤية الدينية والإسلامية فانّه يكون قيّما أيضاً، كالشعور بالحرمان من الأمور المعنويّة، أو السعادة الأبدية أو من هداية النبي والائمة (سلام الله عليهم اجمعين) أو عدم التوفيق لفعل الخير وإن كان لعجز ولم يترتب عليه عقاب ومؤاخذة، كما قال تعالىٰ:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[١].

تتحدّث هٰذه الآية عن الجهاد، إذْ عند وقوع معركة ما كان الموسرون يمتطون خيولهم ومراكبهم ويتوجهون الىٰ ساحة الحرب، أمّا الذين لم يملكوها كان عليهم أن يستخدموا المراكب الزائدة التي يقدِّمها الآخرون للحكومة الإسلامية ويتوجهوا الىٰ ساحة القتال.

من الطبيعي أنّ هٰذه الإمكانات كانت محدودة، والحكومة الإسلامية لم تكن لدىٰ تأسيسها قويّة وذات تجهيزات كافية، ولذا كان البعض مستعدّين للمشاركة في الجهاد الاّ أنّهم لم يجدوا مركبا، والحكومة الإسلامية بهٰذه التحديدات لم تكن قادرة علىٰ تزويدهم بها، ونظراً لبعد المسافة لم يكن المشي مقدوراً لهٰؤلاء فكانوا يتألّمون، والقرآن الكريم يقول من جهته أن لا حرج عليهم. إنّ القرآن لا يذمّ حالة الرقّة في قلوبهم الناشئة من همّ العجز عن المشاركة في ساحة الجهاد، بل يعتبر ذلك آية صدقهم وعلامة عزمهم علىٰ الجهاد والتضحية ويبرئهم من الذنب ويثني عليهم بكلماته. إذنْ لا ذمّ علىٰ هٰذه الرقة في القلب فحسب، بل إنّها ممدوحة أيضاً.

والىٰ جانب هٰذا الشعور بالحرمان هناك عامل للرقّة في القلب، فالشوق يسبّب أحياناً رقّة في القلب وتساقط الدموع، فعندما ينال الإنسان فجأة نعمة محبّذة لديه وغير متوقّعة فانّه يتأثّر بشدّة، حتّىٰ انه يشعر بحالة البكاء، يطلق علىٰ هٰذا النوع من البكاء: بكاء الشوق ويناظر بكاء الغمّ والحزن. هٰذا النوع من البكاء ورقة القلب هو كالنوع السابق الذي وصفناه بانّه أمر فطري وطبيعي، وقد خلق الله سبحانه قلب الإنسان بنحو يتأثّر في مثل هٰذه الحالات. إذنْ لا يمكن الحكم

---

(١) التوبة: ٩٢.

بحسنه أو سوئه الاّ مع ملاحظة العامل المسبّب لحالة الشوق هذه. فانْ كان عبارة عن النعم الماديّة والدنيويّة فلا قيمة له في منظار الدين الإسلامي حتّىٰ يقصده الإنسان ويتأثّر الىٰ حدّ البكاء عليه. ولكن إذا كان الأمر القيّم في الرؤية الإسلامية سبباً لذَرف دموع الشوق في عينيه، فانّ مثل هٰذه الحالة تكون قيّمة أيضاً. وبناءً علىٰ هٰذا فانّ قيمة حالة الخشوع ورقّة القلب تتوقف علىٰ قيمة السبب في حدوثها وهو غير متوقّع. القرآن يثني في بعض الآيات علىٰ هٰذا النوع من البكاء الحاصل بفعل عوامل قيّمة، كما يقول في مورد:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

حيث كان الذين يعبدون الله تعالىٰ ولهم قلوب رحيمة تنقلب أحوالهم عند سماع آيات الله سبحانه بعد نزولها علىٰ رسوله ﷺ حتّىٰ انّهم كانوا يبكون وتتساقط دموعهم، والله سبحانه يثني عليهم هٰذه الحالة وبتعابير مختلفة وردت في هاتين الآيتين والآيات الأخرى. إذنْ هٰذا النوع من بكاء الشوق عند نيل الأمور المعنويّة أمر مرغوب في منظار القرآن الكريم.

علىٰ هٰذا فانّ قيمة البكاء والضحك بفعل عوامل الشوق والحزن والفرح والغمّ تتوقف تماماً علىٰ قيمة عاملها النفسيّ والخارجي، فاذا كان ذا قيمة إيجابيّة فانّ هٰذه تكون قيّمة أيضاً، وإن كان ذا قيمة سلبيّة كانت بلا قيمة أيضاً.

يمكن القول بمضمون آخر: انّ هٰذه الحالات في نفسها مع الغضّ عن العوامل

---

(١) المائدة: ٨٢ و ٨٣.

تكون ذات بعد إيجابي، فانّ القلب الذي يرقّ بأيّ سبب كان قياساً الىٰ القلب القاسي والبعيد عن اللين والتعاطف له درجة من القيمة، وإن كانت رقّة القلب معلولة للتعلّق بالدنيا، لانّه يدلّ على أنّ القلب حساس، ولم تمُتْ فيه جذور الشعور والعطف. وبعبارة اُخرىٰ يمكن تقسيم القلوب الىٰ ثلاث مجموعات:

١ ـ القلوب القاسية والفاقدة للشعور والعطف، وتكون مذمومة ولا قيمة لها أبداً.

٢ ـ القلوب الحساسة واللينة والمتعاطفة، وتكون ذات قيمة قياسا الىٰ الاُولىٰ، وتنقسم بدورها الىٰ مجموعتين:

أ ـ القلوب التي تتعاطف مع العوامل الماديّة والأهواء الدنيويّة وتشعر بالرقّة وهٰذه حيثيّة سلبيّة.

ب ـ القلوب المتعاطفة أساساً مع الجوانب المعنويّة والقيم السامية والإلٰهيّة وتنتابها الرقّة، وتكون قيمتها هي الأعلىٰ.

القلوب غير المتفاعلة

إنّ القلوب القاسية فاقدة لسلامتها أساساً، حتّىٰ أنّها أحطّ من قلوب الاطفال التي تتصدّع عند فقدان اللُعب. القلب القاسي كالشجرة التي تعفّنت جذورها وانعدمت فيها قابليّة النموّ تماماً، فاذا كانت الشجرة وجذورها سالمة فانّها وإن تساقطت أوراقها وفقدت خضرتها وورودها ونضارتها في الشتاء، الاّ انّها نظراً لسلامة جذورها قابلة للإخضرار والتورّد والتورّق عند توفّر الظروف والاجواء وحلول الربيع وهطول الأمطار. ولكن إذا تعفنت جذورها وفقدت قابليتها تماماً

فانّها تكون خشبة يابسة[١]، ولا تنمو في أيّ ظرف أبداً. مثل هٰذه الحالة يـطلق عليها القرآن الكريم القسوة ويذمها بشدّة. القلب القاسي الذي كان من المفروض أن يلين ويتعاطف مع الله وما يرتبط به، وتغشاه حالة الغمّ والحـزن أو السـرور والشوق يصبح غير مكترث ولا يشعر بالألم والإدراك، وبناءً علىٰ هٰذا فانّ العلم والمعرفة لا تكونان علة تامّة لطروء الحـالات المـناسبة فـي القـلب والسـلوك المناسب في الجوارح، بل يلزم توفّر الظروف والأجواء الأُخرىٰ كما تمّ توضيحها تفصيلا. إذنْ لا يكون الشرط كافياً بل يلزم توفّره، إذْ بدونه لا تتحقّق الحـالات الروحية الايجابية وإصلاح الأعـمال والسـلوك، ويكـون تـأثيره فـي القـلوب المستعدّة قطعياً ومشهوداً، فمثلاً: إذا أدرك الإنسان عظمة الله وغـناه، وأدرك انّ ذاته تملك كلّ الكمالات ولا تفقد كمالاً، وفي المقابل يفقد كلّ موجود سواه جميع الكمالات، ولا يملك شيئا من ذاته، مثل هٰذا التصور الذي يمتلكه حسب سـعته الذهنيّة وقابليته الوجودية ـ عن العظمة الإلٰهيّة يخلق حالة نفسيّة خاصّة فيه هي (الاخبات)، ولتوضيح هٰذا القول يلزم بيان كيفية إدراك العظمة الإلـهيّة وآثـارها بتفصيل أكبر.

إنّنا حينما ننسب مفهوم العظمة الىٰ الله تعالىٰ فليس من المـقدور إدراك هـٰذه الحقيقة دفعة واحدة، بل يلزم ملاحظة ودراسة مفهوم العظمة في المـاديات، ثـمّ تجريدها ـ قدر الإمكان ـ من حيثياتها الماديّة، ثمّ إطلاقها علىٰ الله سبحانه بعد تنزيهه. هٰذه العملية لا تكون متماثلة بين جميع الناس، بل تتوقف عـلىٰ درجـة المعرفة وعمق الإدراكات، فمثلا: الذين فهموا العظمة فقط في الجبال والسهول أو

---

(١) (كأنهم خشب مسندة) المنافقون: ٤.

البحار والقفار من حواليهم، وتتبادر لهم من العظمة أشياء من هٰذا القبيل وإنْ قالوا بألسنتهم انّ عظمة الله ليست من سنخ الماديات، ولكن الموجود في أعماق أذهانهم هو المصداق المنتزع من هٰذه الموجودات الماديّة والمشاهد فيها، الاّ أنّ ذهن الإنسان كلما أدرك مصاديق أكبر وأعمق من العظمة، واستطاع تجريدها من الخصائص الماديّة بصورة أكبر كان بإمكانه نسبة معنىٰ أقرب صحة منها الىٰ الله تعالىٰ، ولكي يدرك مصاديق أجلىٰ من العظمة فمن الضروري ـ كمقدمة ذهنيّة ـ ملاحظة العظمة في المزيد من الموجودات الماديّة، فمثلا: انّ علماء الفلك بمشاهدتهم السماوات الواسعة يدركون مفهوماً أوسع للعظمة، وكأنه يلزم عليهم أيضاً تجريد مفهومها من الجوانب الماديّة، الاّ أنّ أذهانهم ذات قابلية أكبر لتصوّر مصاديق أجلىٰ وأسمىٰ للعظمة.

ورد في رواية انّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن معرفة الله، وفي الإجابة شرع ﷺ ببيان عظمة الكون، وكأنه أراد أن يُلفت ذهنه الىٰ عظمة الخالق بهٰذا الأسلوب، ممّا يدلّ على أنّ علينا لإدراك عظمة الله أن نفهم عظمة مخلوقاته، لكي نكون أهلاً لإدراك عظمته عزوجل، فانّ أذهاننا عاجزة عن تصور هٰذا الفهم بصورة دقيقة ومباشرة من دون مقدمة. ولذا قال ﷺ للسائل[1]: إنّ الكون الذي تبصره بكلّ ما فيه من سمٰاوات ونجوم هو كخاتم في صحراء بالنسبة الىٰ السماء الثانية، أي إنّه صغير الىٰ هٰذا الحدّ، وهكذا السماء الثانية بالنسبة الىٰ السماء الثالثة، والثالثة بالنسبة للرابعة و... كلّ سماء قياساً الىٰ السماء التي فوقها هي بهٰذه النسبة، أي كخاتم في صحراء واسعة. كما أنّ جميع السماوات والأرض قياساً الىٰ

(١) ما تقرأه هو الترجمة لما ورد في الكتاب وليس نصا من حديثه ﷺ ـ المترجم.

الكرسي، والكرسي الىٰ العرش هو بهٰذه النسبة. إنّ النبي ﷺ أراد في الواقع بهٰذا التوضيح والمقدمة أن يهيّيء ذهن السامع لإدراك عـظمة المـخلوقات، وتـتوفّر أرضية الإجابة عن سؤاله وأبداء الرأي عن عظمة الخالق. لأنّ الإنسان بعد إدراكه لعظمة المخلوقات قدر الإمكان يتمكن من إدراك عظمة خالقها بإرادة واحدة، أنّها موجودات كالعالم، والسمٰوات العظيمة، والمجرات، والبحار الواسعة، والنـجوم، والكواكب، و... وبملاحظة هٰذه الموجودات يقرّ الإنسان ـ في الوقت الذي يقترب بذهنه العجيب من إدراك العظمة الإلٰهيّة الىٰ حدّ ما ـ بعجزه عن معرفة الله تعالىٰ.

هٰذا المثال يعلّمنا بأنّ علينا اكتساب القابلية الذهنيّة لإدراك اسماء الله تعالىٰ وصفاته وللمعرفة الإلٰهيّة بصورة عامّة. هٰذه القابلية نكتسبها من المصاديق الممكنة والموجودات الماديّة، وبتوسعة المفاهيم المتلقاة، وتـجريدها عـن الخـصائص الماديّة ننسبها الىٰ من هو فوق الطبيعة. إنها طريقة عامّة ينبغي سلوكها في إدراك العلم والقدرة والحياة، وجميع المفاهيم التي ننسبها الىٰ الله تعالىٰ.

الإخبات

الآن لو أدرك الإنسان بالأسلوب المذكور عـظمة الله عـزّوجلّ حسب أُفـقه الذهني، والتفت الىٰ هٰذا المعنىٰ المدرَك، خاصّةً إذا تيقّظ إدراكـه الفـطري بـهٰذا التفكير وخلص علمه الحضوري، وتجلّت له العظمة الإلٰهيّة فسوف تنشأ لديه حالة خاصّة يشير إليها لفظ (الاخبات) كما هو المحتمل في الآيات والروايات.

مرّة أُخرىٰ ولتوضيح أكبر نفترض شخصا ذا عظمة كبيرة ويحظىٰ باحترامـنا الشديد، ولماذا نذهب بعيداً لنلاحظ شخصية الامام الخـميني (ره) العـظيمة فـي

عصرنا، وهو الانسان المتألّق الذي هزّ العالم بإرادته وقدرته الروحية وجذب أنظار الدول العظمىٰ اليه، وكان تأثيره فاعلا علىٰ القوىٰ الكبرىٰ ويراقب العالم ما سيتفوه به، ويقيس درجة تأثير كلامه علىٰ العالم، ويمكن القول بحق: كان شخص الامام في عصرنا اُنموذج العظمة بين بني الإنسان، الآن لو أدرك شخص هٰذا المعنىٰ جيّداً، وفهم عظمة هٰذه الشخصية بصورة صحيحة، والتفت الىٰ أنّ من أراد الوصول إليه كم هو بحاجة الىٰ المقدّمات، إنّه الشخصية التي يتمنّىٰ الملايين من البشر في العالم القاء نظرة عليها، أجل، كان من يدرك مقامه (ره) يشعر بحالة من الخشوع الباطني حينما يقف أمام هٰذه الشخصية العظيمة، وتبدو آثار هٰذه الحالة في جسمه واعضائه وجوارحه، ينصرف توجهه من أيّ شيء آخر ويتمركز فيه، وهٰذا أمر فطري في الإنسان ويعم الجميع، إذ أنّهم حينما يلتفتون الىٰ عظمة موجود ما يشعرون بالخضوع والتواضع في أنفسهم تجاه عظمته. والغافلون طبعاً مستثنون في كلّ مكان، إذْ أنّهم لا يدركون شيئا، ولا يشعرون بخضوع وتواضع في قلوبهم. الآن لو استطعنا إدراك العظمة الإلٰهيّة التي تبدو ـ قياساً إليها ـ عظمة أكبر من عظمته (ره) بمليارات المرات كقطرة الىٰ محيط كبير، فسوف نشعر بمقدار مالنا من إلتفات ومعرفة بحالة الخضوع والتواضع في أنفسنا، وكلما كانت معرفتنا أكمل كان الاحساس أكثر حيوية وعمقا. إذنْ ما نسمعه من حالات امير المؤمنين عليه السلام أو سائر المعصومين (صلوات الله عليهم اجمعين) في عبادة الله ممّا لا يكون قابلاً للتصور لدينا: حالات من قبيل ارتعاش الجسم، وشحوبة الوجه وحالات اُخرىٰ من هٰذا القبيل، ينبغي أن لا يثير سماع ذلك الدهشة وعدم التصديق فينا. إنّها حالات خاصّة تطرأ علىٰ الانسان عندما يدرك العظمة بعمق، وإنْ لم يتوجه الىٰ النعم أو العذاب الإلٰهي، ولا يفكّر أبداً بكيفية تعامل الله تعالىٰ ايّاه. انّ إدراك العظمة

هٰذا يكفي لحدوث هٰذه الحالات ومنها حالة الخضوع في نفس الإنسان، وتبعاً لها تشتد الرغبة في عبادته والسلوك المتواضع في نفسه، وتصدر منه أفعال وسلوك عبادي يظهرهما الركوع والسجود لله العظيم علىٰ الأرض في اعضائه. انّ هٰذا ميل طبيعي في الإنسان، ويعود احتمالا الىٰ جذور وأساس الميل الىٰ العبادة الذي يعتبر من الميول الفطريّة الأصيلة في الإنسان.

أجل، يميل الإنسان في فطرته الىٰ الخضوع بين يدي عظمة لا تنتهي، وعندما يدرك انّ وجوده أيضاً منه، وهو مالك الوجود كله فانّه يودّ أن يبدي مملوكيته وعبوديته بنحو ما، إنّنا نطلق (العبادة) علىٰ تلك الأمور التي تظهر حالة الخضوع الروحي والمملوكية لدىٰ الإنسان.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ من آثار المعرفة نشوء هٰذا الشعور والميل والأعمال في الإنسان: الشعور بالتواضع والحقارة في نفسه، الميل الىٰ الأعمال الناشئة من هٰذا الشعور، ومجموعة أعمال وممارسات اسمها العبادة. علىٰ أيّ حال فانّ مثل هٰذا الميل يوجد في الإنسان عند إدراك العظمة، سواءً رجع ذلك الىٰ الميل للعبادة، أو لعبادة الله ميلا ذاتيا مستقلا عنه، وكما قلنا سابقا إنّه (الاخبات).

لتوضيح كلمة ا(لاخبات) لا يوجد لها تفسير واضح سوىٰ ما ذكره بعض العرفاء في حالات الإنسان، والمستفاد من اللغة هو أن (الاخبات) تقريبا هو الشعور بالخضوع بين يدي الله تعالىٰ.

لقد استعمل لفظ (الاخبات) في ثلاثة موارد في القرآن الكريم:

المورد الأول هو الآية:

﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[١].

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٢].

يلاحظ في هٰذه الآية ثلاث جمل:

الجملة الأُولى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وترتبط بالمعرفة، أي اعلموا انّ معبودكم واحد ثمّ قال في الجملة الثانية: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وهي متفرعة ومترتبة علىٰ الجملة الأُولى، أي إذا كان معبودكم الواقعي هو الله الواحد إذنْ أسلموا له، لأنّ اللازم لألوهيّة الله عزّوجلّ هو أن يكون العبد منقاداً بين يديه، عبد لا يملك شيئا من نفسه، والله هو المالك المطلق والحقيقي له ومتعلقاته، وحقيقة الإسلام هو التسليم والانقياد. وقال في الجملة الثالثة: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ فمن الضروري لكي يسلّم الإنسان نفسه لله عزّوجلّ أن يترك أنانيته أمام الله، وهٰذا هو الذي يوجد حالة (الاخبات) في الإنسان وتكون اختيارية بلحاظ مقدّماتها، أي إنّ بوسع الإنسان الىٰ حدّ ما أن يكون له دور في خلق هٰذه الحالة من خلال كسب المعرفة بوحدانية الله وعظمته والتوجه اليه. ونظراً الىٰ أنّ هٰذه الحالة تمهّد لتسليم الإنسان وانقياده لله عزوجل، فمن الجدير أن يُبشّر صاحبها بالنسبة للنتائج والثمار الثمينة التي سوف ينالها.

بناءً علىٰ هٰذا يتوضّح مفهوم الجملة الثالثة في ضوء ما ذكر، وهو أنّ البشارة خاصّة بالذين ينشأ خضوعهم لله من شعورهم وإدراكهم للعظمة الإلٰهيّة بنحو يكون توجههم إليه كاملا، ويحفظ حواسهم من التشتت ويمنع إلتفاتهم الىٰ الموجودات

---

(١) الحج: ٣٤.　(٢) الحج: ٣٥.

المحيطة ويركّزه في عظمة الله، ولازم ذلك ظهور الخضوع والتذلّل الخاصّ في الروح الإنسانية.

والآية الثانية أشارت بصورة ظريفة الىٰ الأبعاد المختلفة لهٰذه الحالة وعلاماتها وآثارها، وفي الحقيقة انّها بمنزلة نعت المخبتين، أي إنّ (المخبتين) هم الذين تقشعرّ قلوبهم بالخوف والفزع عند ذكر الله، ولهم استقامة عند المصائب، ويقيمون الصلاة وينفقون علىٰ الآخرين ويمكن القول: انّ هٰذه كلها آثار وعلائم نفسيّة وسلوكيّة لمن نال هٰذه النعمة الكبيرة، وهي حالة (الاخبات) إثر اكتساب المعرفة والتوجه النافذ.

كان العلامة الطباطبائي (ره) ينقل عن استاذه المرحوم السيد القاضي (رضوان الله عليه) قوله: لإدراك مفهوم (الاخبات) دركاً صحيحاً علينا ان نلاحظ أصله، فانّ هٰذه الكلمة مأخوذة في أصلها من (أخبت البعير) ويعني أنّ البعير حينما يشعر بحِكّة في بدنه لوجود برغوث، أو أيّ عامل آخر يسلّم نفسه تماماً عندما يُحك جسمه ويُدلك موضع الحِكّة ويقف هادئا حتّىٰ عيناه دون حراك، هٰذه الحالة الانقيادية التي تطرأ علىٰ البعير تدعى (الاخبات).

لعل لفظ (الخشية) بمفهومها الوسيع يشمل مثل هٰذه الحالة ونظائرها، لأنّ الخشية تختلف عن الخوف قليلا، فقد قال بعض العظماء: هي الحالة التي تطرأ علىٰ الإنسان حينما يدرك العظمة الإلٰهيّة وحقارة نفسه، وتختلف عن الخوف من العذاب والعقاب.

المورد الثاني: الآية الكريمة:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ

لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

أي ليعلم أولو العلم انّ هٰذا القرآن حق ومن لدن الله سبحانه، وعندما يحصل هٰذا العلم لديهم فانّهم يؤمنون، وبايمانهم تحدث في قلوبهم حالة (الاخبات). الفاء في (فتؤمنوا به) و(فتخبت له) هي فاء التفريع في علم النحو، وتبيّن هٰذا المعنىٰ وهو أنّ الإيمان والاخبات من آثار العلم بحقانيّة القرآن الكريم التي ذكرتها العبارة السابقة.

المورد الثالث: الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

الحب

ما ذكرناه كان يدور حول ايجاد معرفة العظمة الإلٰهيّة حالة (الاخبات) في القلب، والآن نقول: قد تكون المعرفة بموضوع آخر، فتنشأ بحسبها حالة أُخرىٰ في القلب، كما إذا التفت الإنسان الىٰ أنّ الله سبحانه يتصف بالصفات الكمالية كلها، وإنّه المنشأ لكلّ جمال وحسن وفيه كلّ محبوب، لو التفت الىٰ هٰذا المعنىٰ تولّد الحبّ في قلبه، والحبّ في الحقيقة حالة تحدث في قلب موجود ذي شعور حيال ما ينسجم مع وجوده ويناسب ميوله ورغباته، ويمكن القول: إنّه قوة جذب إدراكية كالجواذب غير الإدراكية. أي كما أنّ هناك قوة الجذب والإنجذاب بين

(١) الحج: ٥٤. (٢) هود: ٢٣.

الموجودات المادّيّة الفاقدة للشعور، حيث يجذب المغناطيسُ الحديدَ بهٰذه الخصوصية وهي أنّ الجذب والإنجذاب أمر طبيعي بينهما ولا شعوري، هناك جذب وانجذاب واعٍ وقوة جذب شعورية وواضحة بين الموجودات ذات الشعور، فالقلب ينجذب الىٰ جهة، وهناك موجود يجذب القلب نحوه، و يطلق على هٰذا اسم (الحبّ). إنّ الملاك في هٰذا الجذب والإنجذاب هو الانسجام بين ذلك الموجود وبين المحبّ، وحبّ الإنسان يتعلّق بشيء قد أدرك انسجام كماله مع وجود نفسه.

والحبّ ذو درجات، فالحبّ الظاهري والدرجات الإعتيادية تنشأ من كون البعد الحسي والمرئي والصورة الظاهرية للمحبوب بنحو إذا أدركه المحبّ فانّه يرىٰ ذلك الظاهر المحسوس منسجما مع رغبته ومتلائما مع ميوله ومتطابقا مع طبعه، ويكون مركزا لتوجهه وحبّه وتمركز حواسه. وبلحاظ هٰذا التلاؤم قيل: انّ ذلك الشيء ذو جمال وجذابية ناشئة من جماله حيث انّه يستقطب القلب نحوه، وله جذابية تجذب حواس الإنسان وعواطفه نحوه.

وللحبّ درجات فوق الدرجات الإعتيادية المذكورة، وذلك لوجود نوع آخر من الكمالات غير المحسوسة والمرئية، حينما يدركها الإنسان بطرق إدراكية مناسبة سوف تكون مركزا لتوجّهه وحبّه، ويتمركز توجّه الإنسان عليها، ويشعر بحبّ يغمر قلبه تجاهها، فمثلا: ينجذب الإنسان قلبيا الىٰ أصحاب الصفات الروحية العالية من قبيل: الشجاعة، والسخاء، والعفو، والإيثار، والدرجات العلمية العالية والصفات المحبوبة الأُخرىٰ التي يجد الإنسان بصورة فطرية نوعا من الإنجذاب والإرتباط أو المعرفة والإتحاد معها في قلبه، رغم أنّها صفات غير

محسوسة وغير مرئية. وعلىٰ هٰذا فانّ هٰذا نوع من الحبّ تجاه جمال معنوي غير محسوس، ولكنه مُدرك من قبل الإنسان.

إذنْ المراد من الجمال هنا هو تلك الصفة المحبوبة لدىٰ الإنسان، وبإدراكـها يشعر بالإرتياح في وجدانه ويصبح مسروراً وفرحاً. من الطبيعي أنّ كلّ جـمال لابدّ أن ينسجم مع رغبات مدرِكه ويستدعي السرور والإرتـياح والفـرح فـيه، وواضح انّ هٰذا الأمر سيكون نسبيا لأنّ هٰذه الحقيقة ممكنة تماماً، وهي أن يحبّ الإنسان شيئا ويراه جميلا، في حين لا يحبّه إنسان آخر ويراه غير جميل وغير مرغوب فيه، فمثلا: في عالم الطبيعة ألوان هي جميلة لدىٰ بعض الأشخاص وغير جميلة لدىٰ بعض آخر وغير مرغوبة، حتّىٰ أنّ بعض الحيوانات ينجذب إليها في حين يفرّ البعض الآخر منها. وهكذا يلتذّ شخص بسماع نغمة أو موسيقىٰ بعيدا عن جوانبها المعنويّة والقيمية وينجذب إليها تماماً، بينما يتضجر وينفر منها شـخص آخر. ما ذكرناه عن المرئيات والمسموعات الموجودة في الطبيعة يصدق تماماً في الأمور المعنويّة وغير المحسوسة أيضاً، ففي الأبعاد المعنويّة هناك أمور يحبّها بنو الإنسان، ويمكن أن لا يدركها موجود آخر ولا يحبّها. وأخيراً نصل الىٰ هٰذه النتيجة وهي أنّ الموجود الجذّاب والمحبوب ـ في الحالات كلها ـ يجب أن يكون متناسبا مع الشخص المنجذِب له قلبيا ويكون محبوبا لديه، سواءً أحبّه الآخرون أم لا.

في هٰذا السياق توجد بحوث في (علم الجمال) أو (معرفة الجمال) يُـتساءل فيها: هل الجمال أمر نسبي ومشروط أم حقيقي ومطلق؟ ولا نـخوض فـي هـٰذا البحث هنا ويمكن القول اجمالا: يختلف التفات الأشخاص وميولهم تجاه هـٰذه الأمور الماديّة أو المعنويّة، وإن كان هٰذا الكلام لا يعني أنّ القيمة الواقعية للأمور

نسبية وغير مطلقة. فالجمال المعنوي ليس نسبيا بل هو كمال واقعي وحقيقي، أدركناه أم لم ندركه، شئنا ذلك أم أبينا وله قيمته الواقعية في نظام الخلق، قد ندرك قيمته قليلا أو كثيراً ونميل اليه، أحياناً وقد لا ندركه برهة من الزمن ولا نلتفت إليه ولكن بعد التعرف عليه يتوضّح لنا أنّنا قد أخطأنا وندرك كماله ونحبّه، ويبدأ الجمال من الكمالات الشائعة حتّىٰ نصل الىٰ مبدأ الوجود، وهو الأكمل والمصدر لكمالات الموجودات كافة. من الواضح انّ إدراك حقيقة الوجود بالقوىٰ الحسية والذهنيّة أمر غير ممكن، بل بالإدراك الحضوري فقط يكون بوسع كلّ إنسان أن يدرك هٰذه الحقيقة حسب سعته الوجودية، ثمّ يدنو من إدراك جمال الوجود المطلق قدر معرفته.

في نظر الفلسفة ترجع الكمالات كلها الىٰ الوجود، وتتناسب مراتب الكمال مع اختلاف مراتب الوجود، الاّ أنّ تأثير مراتب الوجود في تحقّق الحبّ تتوقف علىٰ معرفتها.

فلو أدرك شخص حقيقة الوجود فانّه سوف يحبّ كلّ موجود بلحاظ وجوده ودرجته، ولعلّ من الممكن القول انّ الآية الكريمة ﴿الَذي أحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَه﴾ تشير الىٰ هٰذه الحقيقة وهي أنّ الخلق يتقارن مع الحسن. فكلّ موجود جميل قدرما يحظىٰ به من الخلق الإلٰهي والوجود، وكلّ موجود إذا كان أكمل ويحظىٰ بوجود أكبر فانّه يبدو أكثر جمالا في الرؤية العرفانيّة والشهوديّة للعارف، وأشدّ محبوبيّة.

الآن لو لاحظنا هٰذه المراتب فسوف نرى أنّ أدنىٰ مراتب الوجود وهي الأعراض المحسوسة والخطوط والألوان والشكل الظاهري لوجه الإنسان كم هي جذابة وتستقطب القلوب نحوها، بل تجعل أشخاصا في وَلَه وانشداد إليها، فعندما

تكون أدنىٰ المراتب بهٰذا الحال أمكن الحدس كم ستكون المراتب الأعلى جذابة، وذلك ـ طبعاً ـ للموجود الذي يدركها إدراكاً صحيحاً، حتّىٰ نصل الىٰ أعلىٰ موجود يتصف بوجود لا نهائي، والموجودات الأُخرىٰ تكون منجذبة إليه بنسبة إدراكها له ومعرفتها به. السبب في أنّنا لا نحس كثيراً بهٰذه المعاني هو ضعف إدراكنا ـ الاّ أنّ انبياء الله عليهم السلام وأولياءه الذين كانت لهم معرفة أعلىٰ وأكمل بالذات الإلٰهيّة كان حبّهم وانجذابهم أشدّ بالنسبة ذاتها، وبناءً علىٰ هٰذا كلما ازداد الإنسان معرفة بالأسماء وصفات الجلال والجمال والكمال الإلٰهي، وكان أشدّ التفاتاً كان في قلبه حبّ لله أكبر.

لقد تحدّث القرآن الكريم في الكثير من الآيات عن حبّ الإنسان لله وأثنىٰ عليه، ونشير الىٰ عدة آيات كنماذج:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

انّ الله وهو الأكمل والأحبّ من كلّ شيء ويعرف وجوده وكماله بأفضل وجه، يتّصف بالحبّ الأكمل لذاته، والموجودات التي لها درجات من الكمال بحكم ارتباطها بالله تكون محبوبة لديه حسب كمالها، والذين تقصدهم الآية المذكورة هم الذين يحبّون الله ويحبّهم الله، إذنْ هٰذا حبّ متبادل ويبدأ من الله عزوجل.

قد يقال: إذا كان لكلّ موجود ـ كما ذكرنا ـ حُسن يتناسب مع وجوده، فكلّ موجود إذنْ محبوب عند الله، ولازم ذلك هو أنّ الأشرار والأشقياء محبوبون عند

(١) المائدة: ٥٤.

الله أيضاً، مع أنّنا نعلم بأنّ عليهم غضب الله وعذابه.

ينبغي الإلتفات الىٰ أنّ هٰذه القضية دقيقة وتصعب الإجابة عنها، وتحتاج الىٰ بحث فلسفي لا يطيقه هٰذا المقال، لكننا نشير هنا الىٰ الجواب اجمالا: انّ الأشقياء قد أعدّوا بأنفسهم أسباب الشقاء بسوء اختيارهم، وبدّلوا النعم والكمالات التي منّ الله عزّوجلّ بها عليهم الىٰ نقمة، أي انهم استخدموها في طريق يؤدي الىٰ نقصهم الوجودي، وأبطلوا قابليتهم لإدراك الرحمة الإلٰهيّة اللانهائيّة، وبعبارة فلسفية اكتسبوا لأنفسهم أعداما ونقائص، ومثل هٰؤلاء بنقائصهم المكتسبة وبسبب هٰذه الجوانب العدمية التي أوجدوها بأنفسهم لا تتعلّق محبّة الله بهم. قد أصبح هٰؤلاء في الواقع مبغوضين بفعل نقصائهم المكتسبة والاختيارية الناشئة بسببهم، ولم يكن ذلك في أصل الوجود الإلٰهي الذي أفاضه عليهم مبدأ الخلق. علىٰ هٰذا يمكن القول انّ الأشقياء مع قطع النظر عن شقائهم الذي أوجدوه، ومع ملاحظة كونهم مخلوقين في نظام الخلق، ومع الإلتفات الىٰ مراتبهم وحيثياتهم الوجودية فانّهم محبوبون عند الله عزوجل، وهٰذا الحبّ هو السبب لارسال الله سبحانه الأنبياء إليهم كي يتهيّأ أسباب تكاملهم بهدايتهم وارشادهم، وهٰذه هي آثار حبّ الله ايّاهم، الاّ أنّ هٰؤلاء حينما وضعوا أنفسهم ـ بسوء اختيارهم ـ في طريق ينتهي بالأعدام والنقائص قد أصبحوا بهٰذا اللحاظ مبغوضين عند الله. في هٰذا السياق يمكن ملاحظة لحن الحبّ الإلٰهي حينما قال لموسىٰ عليه السلام:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَة الْكُبْرَى﴾[١].

---

(١) النازعات: ١٧ ـ ٢٠.

فانّ فرعون وإن كان مفسدا وطاغيا، الاّ أنه حظي برعاية الله وحبّه حيث وفّر له وسيلة الكمال، وأرسل إليه رسوله العظيم موسىٰ عليه السلام لهدايته وتزكيته، وإن لم يستفد فرعون بسوء اختياره من هٰذه النعم الإلٰهيّة العظيمة.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[1].

وقد أدت أعماله غير المناسبة وعصيانه واستعلاؤه وعدم تفاعله مع الهداية الإلٰهيّة وعدم الإنتفاع بحبّ الله الىٰ أن يغضب الله سبحانه عليه:

﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[2].

هٰذه الآيات وآيات كثيرة أُخرىٰ تشير بوضوح الىٰ الحقيقة المذكورة، وهي أنّ الله رحمٰن بالمؤمن والكافر ورحيم بالمؤمنين أيضاً، أمّا الكفار الذين يغضب عليهم ويعذبهم فلسوء اختيارهم، إذنْ يمكن القول: كلّ شيء يحظىٰ من الكمال والحبّ ما يتناسب مع كونه مخلوقاً لله ويرتبط به وينال فيضاً من الوجود الإلٰهي الذي هو المنشأ لوجوده ويناله من خلال خلقه، غايته أنّ الموجود المختار في بقائه قد يفرّط ـ بانتخابه النهج الخاطىء في الحياة وسلوكه غير المناسب ـ بالقابليات الكثيرة التي امتلكها لكسب فيض أكبر وأسمىٰ، ويتحول الىٰ موجود ناقص ويصبح مبغوضا بسبب هٰذه النقائص التي أوجدها قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ﴾[3].

لقد جعل المشركون الآخرين شريكا لله، وأبدَوا لهم حبّهم، والمفروض هو أن

---

(١) النازعات: ٢١ ـ ٢٤. (٢) النازعات: ٢٥ و ٢٦.

(٣) البقرة: ١٦٥.

يكون ذلك لله، وهٰذه علامة الشرك، أمّا المؤمنون فانّهم يكنّون أشدّ الحبّ لله ولا يحبّون شيئا كحبّه. ومن هٰذه العبارة يمكن إدراك انّ علامة الإيمان هي أن يكون الله أحبّ للإنسان من أيّ شيء آخر، وهٰذا هو الحدّ الأدنىٰ وحدّ النصاب لحبّه، وهو المطلوب لأدنىٰ مراتب الإيمان، ويمكن أن يتكامل حتّىٰ لا يكون الإنسان محبّاً لشيء أصالة الاّ ذاته المقدسة، ويحبّ كلّ شيء آخر تبعاً، أي بنسبة ارتباطه بالله وحبّه تعالىٰ له.

هناك آية أُخرىٰ تشير أيضاً الىٰ حدّ النصاب هٰذا والحقيقة هٰذه، وهي أنّ كلّ شيء لا يكون محبوبا لدىٰ المؤمن أكثر من حبّه لله وتقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

أي إن كانت صفة أرواحكم هي أن تكون أمور الدنيا أحبّ إليكم من الله، وتختارونها وتفضّلونها علىٰ الله عند مفترق طريقين إذنْ انكم فاسقون فانتظروا الأمر الإلٰهي، فانّ الله لا يهدي القوم الفاسقين.

انّ عبارة **﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾** في الآية المذكورة تهديد وتشير الىٰ أنّ موقع أمثال هٰؤلاء علىٰ خطر عظيم. إذنْ إذا كان المؤمن محبّاً لشيء آخر أيضاً فانّ هٰذا الحبّ لا يكون بنحو يتعارض مع حبّ الله دائماً. ولا يصدّه عن طاعة الأوامر الإلٰهيّة والتحرك في طريق الحق، بل عند مفترق طريقين يجرّه الدافع الإلٰهي نحو الطريق الصحيح دائماً، حتّىٰ يبلغ تدريجيّاً درجة لا يحبّ فيها شيئا

(١) التوبة: ٢٤.

بصورة مستقلة حتّىٰ النبي ﷺ والامام عليه السلام.

كان ثمة أولياء لله ولعلهم موجودون حتّىٰ في هٰذا العصر لا يحبّون شيئا أصالة، لانّهم لا يرَون ـ أساساً ـ كمالاً مستقلا الّا لله، فكلّ إنسان لا يملك شيئا من نفسه، والموجود هو كمالاته وتجليّات من جماله. ويرَون انّ وجود الشيء شعاع من الوجود الالٰهي، وكمال كلّ شيء شعاع من الكمال الإلٰهي، ولأنّ حبّهم لله فانّهم يحبّون آثاره الوجوديّة تبعاً حسب درجة قربها أو بعدها عن الله.

وعن الحبّ تقول آية أُخرىٰ:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١].

لقد اشترطت هٰذه الآية أمراً لابدّ من توفّره في الجميع، وهي: انّكم إنْ كنتم تحبّون الله فاتّبعوني. نعلم أنّها في مقام بيان وجوب اتّباع النبي الكريم، وعبارة **﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ﴾** هي كعبارة **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِين ﴾** في الكثير من الآيات التي تقول: افعلوا كذا إنْ كنتم مؤمنين بالله **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَومَ الآخِرِ﴾** إذنْ تكون ضرورة حبّ الله أمراً مفروغا عنه، ولكن تذكرها علىٰ نحو الشرط لكي تنبّه الناس علىٰ مستلزمات هٰذا الحبّ.

وعليه لا ينبغي أن نتمسك بمفهومها ونقول: لا ضرورة للحبّ والاتّباع، نعم إنْ كنتم تحبّون فمن الضروري أن تتّبعوا، وإن لم تحبّوا فلا يلزم الاتّباع، بل إنّ اتّباع النبي أمر حتمي وضرورة شرطه (حبّ الله) مفروغ عنها، عليكم أن تحبّوا الله كما تدّعون وحبّ الله يقتضي أن تتّبعوني، وبالتالي فانّ اتّباعي أمر واجب. إذنْ

---

(١) آل عمران: ٣١ و ٣٢.

اتّبعوني لكي يحبّكم الله أيضاً. وتستفاد من لحن الآية القائلة ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي تجعل حبّ الله لعباده فرع طاعتهم واتّباعهم للنبي ﷺ ملاحظة اُخرىٰ لها جذور نفسيّة عريقة هي أنّ الإنسان حينما يحبّ موجوداً ذا شعور يرغب بشدّة أن يبادله الحبّ. هٰذه الحقيقة لازم لا ينفكّ عن حبّ موجود ذي شعور. والآية موضوع البحث تريد القول: إنْ كنتم تحبّون الله ويجب أن تحبّوه فانّكم تودّون في المقابل أن يحبّكم الله أيضاً، وتريدون طبعاً ان تعملوا ما يستتبع حبّ الله، وانّي اُريكم الطريق المؤدّي الىٰ ذلك وهو أن تتّبعوني لكي يحبّكم الله أيضاً.

بناءً علىٰ هٰذا يمكن القول: لقد تمّ بيان رابطتين في هاتين الآيتين:

١ ـ رابطة حبّ الإنسان لله مع اتّباعه للنبي ﷺ وقد أكدته عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ وخلاصتها إنّ حبّ الإنسان لله ليس مجرّد ادعاء، بل له أثر سلوكي، ودرجة طاعة الإنسان وانقياده تبيّن درجة حبّه لله، كما أنّ كلّ حبّ يحفّز في المحِبّ سلوكا خاصّا تجاه محبوبه.

٢ ـ رابطة اتّباع وطاعة الإنسان لله والرسول مع حبّ الله ايّاه، وقد تأكّد ذلك في الآية الاُولى والثانية نفيا واثباتا:

ففي الآية الاُولى قال تعالىٰ: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي اتّبعوني حتّىٰ يحبّكم الله، وقال في الثانية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي إذا تركتم الله والرسول ولم تطيعوهما فانّكم كافرون والله لا يحبّ الكافرين. وخلاصته هي: إنْ لم تتّبعوا فانّ الله لا يحبّكم.

الطاعة والاتباع في الواقع حلقة الوصل بين حبّ الإنسان لله وحبّ الله للإنسان المعلول لحبّ الإنسان لله والسبب لحبّ الله للإنسان.

إذنْ انّ وجود حبّ الله وعدمه يحكي ـ إنّياً ولِمّيا ـ عن وجود وعدم هٰذين

الحبّين في الانسان تجاه الله، وفي الله سبحانه تجاه الإنسان.

ما ذكر آيات نزلت لِتصرّح عن حبّ الله في القرآن الكريم، وهناك آيات قرآنية أُخرىٰ تدلّ تلميحاً علىٰ هٰذه الحقيقة ولا نتطرّق إليها هنا.

إذنْ لا مجال للشك في:

أولاً: انّ حبّ الإنسان لله أمر ممكن، علىٰ عكس ظن الذين يعتقدون بأن الحبّ لا يتعلّق بالله أساساً، وكم هو الفرق بين القائلين بأن الحبّ لا يتعلّق بالله، وبين القائلين بأن الحبّ ـ أساساً ـ لا يتعلّق بغير الله. تقول الفئة الأُولى: إنّ الحبّ يتعلّق بموجود قابل للرؤية وتكون آثاره مشهودة ويبعث علىٰ اللذة، وبما أنّ الله لا يُرىٰ فانّه لا يكون موضوعا للحبّ، ولكن تبيّن بالتوضيحات التي قدّمناها: كما يستفاد من الآيات القرآنية بنحو كامل أنّ الحبّ لا ينحصر في الأمور المحسوسة، بل إنّ الله وهو غير محسوس وغير مرئي حينما يرىٰ الإنسان اسماءه وصفاته وكماله وجماله بعين البصيرة ويشهدها، فانّه يكون موضعا لحبّ الإنسان بنحو أعمق.

ثانياً: انّ حبّ الإنسان لله أمر مطلوب جدّاً ووجوده أمر لازم.

ثالثاً: انّ حدّ النّصاب لحبّ الإنسان لله عزّوجلّ هو أن يكون أشدّ وأكبر من حبّه لأيّ موجود آخر غيره.

رابعاً: انّ تكامل حبّ الإنسان لله يكمن في أن يتجرّد قلبه تدريجيّاً من أيّ شيء آخر غيره، ويتعلّق حبّه الأصيل بالله فقط، وهٰذه الحقيقة تتوقف علىٰ اكتساب المزيد من المعرفة الإلٰهيّة، أي كلما ترقّىٰ الإنسان في توحيده اشتدّ حبّه لله أيضاً، وكان أشدّ انحصاراً ويواصل ارتقاءه حتّىٰ لا يكون أيّ شيء محبوباً لديه أصالة.

الطريق الىٰ تحقّق الحب

بعد اتضاح فضيلة حبّ الله، ونظراً الىٰ أنّ وظيفة علم الأخلاق هي اراءة الطريق لتحصيل خلُق ما بعد اثبات فضيلته، يُطرح هٰذا السؤال: ما السبيل الىٰ حبّ الله، وماذا نصنع حتّىٰ نحبّ الله؟

في الإجابة يمكن القول: إنّنا نحبّ موجوداً مّا حينما نجد فيه كمالاً، ويكون ذلك سبباً لأن نركّز التفاتنا نحو ذلك الكمال، ونفكّر فيه أكثر فأكثر، لأن مجرّد إدراك الكمال والتصديق به بلا تمركز والتفات لا يتحقّق الحبّ. ولا يوجد سبيل آخرلتحقّق حبّ الله. من البديهي أن لا تتيسّر معرفة الله العميقة وإدراك كمالاته اللانهائية للجميع، لأنّ البراهين العقليّة والفلسفيّة ونصوص الآيات والروايات تتطلّب مستوىً عالياً من القابليّة والقدرة الذهنيّة لكي يدرك الإنسان بها الكمالات الإلٰهيّة، وهٰذه القابليّة لا تتيسّر للجميع، ولكن هناك ـ لحسن الحظ ـ طريقاً أقصر وأسهل و يتيسّر سلوكه للجميع، وهو أن نتأمّل في النعم الإلٰهيّة الكثيرة والقيّمة علينا، وهو من الطرق الواضحة لتحقّق الحبّ. كما انّ من المسلّم به بصورة عامّة إنّنا نزداد حبّاً لمن له احسان ولطف أكبر بحقّنا، وقام بتلبية أكبر عدد من الحوائج وذلك في حالة توجّهنا اليه.

لو قمنا بدراسة الخدمات التي أسديت الينا من قبل الآخرين، وأبدينا حبّنا الشديد إليهم أحياناً، كم وما هي نسبة الحوائج التي قامت برفعها قياساً الىٰ مجموع حوائجنا في الحياة، ونقيسها الىٰ النعم العظيمة التي لا تُحصىٰ وقد أعطانا ايّاها ولي النعمة والخالق القدير والرحيم، أمكن أن ندرك عن هٰذا الطريق عظمة النعم

الإلٰهيّة وتأثيرها في قضاء الحوائج الكثيرة والحياتية وفي تكاملنا ومعرفتنا هذه، والتفاتنا الىٰ هٰذه النعم يزيد من شدّة حبّنا لولي نعمتنا، ويوجه عواطفنا نحو الألطاف الإلٰهيّة ورحمته ورعايته بحقنا، وهٰذا طريق سهل لتحقّق حبّ الله وهو متيسّر للجميع، وقد ورد في حديث قدسيّ بأن الله خاطب النبي موسىٰ عليه السلام[1]: ألقِ محبّتي في قلوب مخلوقاتي واجعلني محبوباً عندهم، فسأل موسىٰ ربّه: ما السبيل الىٰ جعل محبّتك في قلوب خلقك؟ فأجاب تعالىٰ: ألفِت انظارهمْ الىٰ النعم الكثيرة التي أعطيتها لهم.

مع ملاحظة هٰذا التحليل للحبّ الذي قلنا إنّه ينشأ إثر إدراك كمال المحبوب نذكّر بهٰذه الحقيقة، وهي أنّ الله تعالىٰ لا يتّصف بما يثير نفور الإنسان واشمئزازه، لأنّهما ردّ فعل نفساني في الإنسان حينما يدرك النقص ومرفوضية الشيء المدرَك، وتعود كلها الىٰ حيثيات عدمية، في حين انّ الله تعالىٰ ذو وجود وكمال غير متناه، تنزّهت ذاته من أيّ عيب ونقص.

إذنْ إذا عرف الإنسان الله تعالىٰ جيّداً وبصورة صحيحة فمن المستحيل أن لا يكنّ له الحبّ، ولكن نواجه عملياً أشخاصا ليس في قلوبهم حبّ الله ويصرفون وجوههم عنه بنفور خاص. السؤال هو: إذا لم يكن لهٰذه الحالات في هٰؤلاء الأشخاص منشأ في الذات الإلٰهيّة فما هي إذنْ عللها وعواملها؟ بعبارة أُخرىٰ إنّنا كما يجب أن نعرف الطريق لنشوء حبّ الله عزّوجلّ وكيفيّة اشتداده لكي نبادر لايجاد حبّه وتقويته في قلوبنا، فانّ من الضروري أن نعرف العوامل التي توجب

---

(١) ما تقرأه هو ترجمة لما في الكتاب وليس نصا للحديث الشريف (المترجم).

ضعف الحبّ الإلٰهيّ ونحترز منها، وبهٰذا اللحاظ نبحث عن علل وعوامل ضعف الحبّ.

في الإجابة يمكن القول: في الدرجة الأُولى يكون أيّ لون من الحبّ الإستقلالي لغير الله عزّوجلّ مزاحماً لحبّ الله **﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾**[١]، فلو أراد شخص أن يكون قلبه موضعاً لحبّ الله فقط، ولا يتعارض حبّ غيره في قلبه مع حبّ الله فعليه أن يدرك هٰذه الحقيقة، وهي أنّ أيّ موجود غير الله ليس له أيّ نحو من الإستقلال في نفسه؟ وكلّ كمال وجمال منه في الواقع أينما كان، وقد أودع في الأشياء الأُخرىٰ كعارية.

وليس من اليسير اكتساب مثل هٰذه المعرفة، بل نحتاج الىٰ جهود كبيرة وتدبر واستدلالات وتمارين عملية وتهذيب للأخلاق حتّىٰ نصل في ضوئها تدريجياً الىٰ مرحلة تتوفّر فينا القدرة علىٰ مثل هٰذا الإدراك والمعرفة ثمّ ندرك هٰذه الحقيقة. لذا يُبتلىٰ بنو الإنسان ـ حتّىٰ الذين لهم درجات عالية من الإيمان ـ بحبّ غير الله، الاّ أولياء الله المقربين الذين أذهب الله عن قلوبهم حبّ الأغيار، فلا يحبّون غير الله تعالىٰ كما ورد في مناجاة المعصومين: **(أنت الذي أزلت الاغيار عن قلوب احبّائك حتّىٰ لم يحبّوا سواك)**[٢].

في الدرجة الثانية يمكن أن يكون الحبّ الشديد لغير الله مانعاً لحبّ الله وسبباً للإعراض عن العمل بالواجبات الإلٰهيّة. علىٰ هٰذا الأساس وُضع نصاب لحبّ الله، ومن الضروري أن يكون حبّ الإنسان لله غالباً علىٰ حبّه للاشياء الأُخرىٰ كحدّ أدنىٰ.

---

(١) الاحزاب: ٤.

(٢) دعاء الامام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾[١].

انّ حبّ المخلوق يجب أن لا يصدّه عن العمل بمقتضىٰ حبّ الخالق أبداً (**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**)[٢]، بناءً علىٰ هٰذا إذا كان لله أمر الزامي بعمل ما وكان حبّ الآخرين مانعاً ومزاحما لامتثاله، كما في الصلاة التي أوجبها الله علىٰ المكلف فيقوم صديق محبوب بمنعه من ادائها، في هٰذه الحالة يقتضي ايمان الإنسان وجود درجة منَ الحبّ في قلبه تمنحه القدرة علىٰ اتخاذ القرار اللازم لأداء الواجبات وترك المحرمات، ويعجز حبّ غير الله من صدّه عن العمل بوظائفه. وفي درجة أعلىٰ يمكن أن يبلغها المكلف تدريجيّاً يهيمن حبّ الله علىٰ قلبه بنحو لا تقوىٰ حالات الحبّ الأُخرىٰ من صدّه حتّىٰ عن العمل بالمستحبّات وترك المكروهات.

علىٰ هٰذا يمكن القول: إنّ المانع من وجود أو تزايد أو تكامل حبّ الله هو ما في قلب الإنسان من تعلّقات بغير الله ويشمل جميع مخلوقاته، هٰذه التعلقات إذا كانت بمستوىٰ تزاحم فيه ترتّب آثار حبّ الله فانّ المسلّم به أن تكون مرفوضة، ولكن إذا لم تكن بهٰذا المستوى فانّها لا تسبّب ضرراً فادحاً علىٰ المؤمنين في مستوى اعتيادي ومتوسط. الاّ أنّها تكون بمثابة الشرك بالنسبة للأولياء المقربين. انّ ولي الله الذي سلّم قلبه الىٰ الله فقط لا يحبّ غيره حبّاً مستقلا أبداً.

المحصلة النهائية التي نتالها من هٰذه المباحث هي أنّ ذات الله ليس فيها ما يثير عداء الإنسان واشمئزازه لتنزّهه من كلّ نقص وعيب، فالذين لم يعرفوا الله جيّداً

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ١٠ / ٢٢٤ الرواية ١.

بعدُ فلم يستقر حبّ الله بصورة متجذّرة في قلوبهم وسلّموها الىٰ الأخرين يشعرون حينما يجدون أنفسهم علىٰ مفترق طريقين بحكم هٰذه الحالة بأن حبّ الله يصدّهم عن محبوبهم الدنيوي، ومن أجل هٰذا العامل الخارجي أي الحبّ الشديد الذي يكنّونه لغير الله يشعرون عرَضاً بحالة الإشمئزاز والعداء لله في قلوبهم. انّ حبّ غير الله ذو آثار تتعارض في موارد مع مقتضىٰ الحبّ الإلٰهي ولا يمكن الجمع بينهما، ولو كان حبّ غير الله أشدّ في هٰذه الموارد فانّه يقوم بتضعيف حبّ الله ويمحو آثاره.

بناءً علىٰ هٰذا يمكن أن يشعر أشخاص بالعداء والإشمئزاز تجاه الله، ولكن ليس بلحاظ وجود عامل.لهٰذا العداء في ذات الله عزوجل، بل بلحاظ عامل نفسيّ في الإنسان الذي تعلّق قلبه بغير الله، قال تعالىٰ بهٰذا الشأن:

﴿وَإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[١].

الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعتقدون بوجود شيء وراء الدنيا تنحصر تعلقاتهم في الأمور الدنيويّة والماديّة، ويشمئزّون من كلّ ما يتغارض مع هٰذه التعلّقات فمثلاً: إذا واجه الغارقون في اللهو واللعب ولذائذ الحياة مانعاً في مجالس أنسهم، وكان اهتمامهم منصرفاً الىٰ لذائذ مترتبة علىٰ عدة أعمال، ثمّ صدّهم عامل ما عن دوامها وأخلّ في حياتهم، كما إذا ذكّرهم شخص بالله والقيامة وعذاب الله ومنعهم من تلك الأعمال، فمن الطبيعي أن يشعروا حياله بردّ فعل

---

(١) الزمر: ٤٥.

نفسيّ وحالة من النفور والإشمئزاز.

حتّىٰ ذَوو الإيمان الضعيف يواجهون أحياناً أحداثاً مرّة قد تـهدّد ايـمانهم، تصوّروا أُمّاً يموت ولدها المحبوب الشاب الوسيم الذي تعبت من أجله برهة من الزمان، في وقت ينبغي أن تأنس به ويكون عوناً لها في حلّ مشكلات الحياة، فاذا كان ايمانها ضعيفا فانّها قد تشعر بالعداء لله تعالىٰ في قلبها، لأنّها لا تحظىٰ بايمان ومعرفة كافية لإدراك أنّ أفعال الله كلها تكون علىٰ أساس المصلحة، ويقوم هٰـذا الشعور أحياناً بسلب ايمانها تدريجيّاً. وقد ورد في بعض الروايات[1] انّ بعض المؤمنين يفقدون ايمانهم ساعة الاحتضار، ويمكن القول إنّ السبب في ذلك هو أنّهم ذَوو مجموعة من التعلّقات والآمال في الدنيا، فيشعرون عند الموت بأنّ الله يفصلهم عن محبوبهم ولذا يشعرون بالبغض والعداء له، وبُغض الله يعادل الكـفر، ولعل من الممكن استفادة هٰذه الحقيقة بصورة واضحه من بعض الآيـات حـيث يقول تعالىٰ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٩ ـ كتاب الإيمان والكفر ـ الباب ٣٤.

(٢) البقرة: ٩٤ ـ ٩٨.

من هٰذه الآيات يمكن بوضوح استخراج العلاقة الواضحة بين حبّ الله وتمنّي الموت من جهة، وبين الإستيحاش من الموت والعداء مع الله من جهة أُخرىٰ. انّهم يستوحشون من الموت ولا يودّونه أبداً لحرصهم علىٰ الحياة، ويتمنَّون الحياة ألف سنة وأكثر، وهٰؤلاء بهٰذه الخصلة يعادون الله وانبياءه وملائكته.

علىٰ أيّ حال علينا الحذر من التعلق الشديد بالمخلوقات الىٰ مستوىٰ يضعف في قلوبنا حبّ الله ويسلب الإيمان منّا تدريجيّاً. وكم هو جميل أن ينتخب الإنسان أصدقاءه من بين الصالحين والمهذّبين حتّىٰ لا تتوفّر فيه أرضية مثل هٰذا التعارض، لأن أمثال هٰؤلاء الأشخاص لا يطلبون ارتكاب المعصية من أحد أبداً، ولا يرتضون أداء فعل يتعارض مع مشيئة الله، أمّا حبّ الذين لا يمتلكون إيماناً وصلاحاً كافياً فقد يترتب عليه مثل هٰذه الأخطار، وأخيراً يلزم في درجة أعلىٰ الحدّ من التعلّق بأيّ شيء آخر غير الله، ثمّ نتقدّم الىٰ الامام حتّىٰ لا يبقىٰ في قلوبنا تعلّق الاّ بالله وما يرتبط به لأجل ذلك الإرتباط.

* * *

القسم الثاني

٤

الآثار النفسيّة والسلوكية لمعرفة الأفعال الإلٰهيّة

حالة الشكر

العبادة والعبودية

الخوف والرجاء

الدور التربوي للخوف في القرآن

مفهوم الرجاء

الرجاء في الآيات القرآنية

مفهوم آخر للرجاء

مجموعة ملاحظات

الخشوع

التضرع والإستكانة

الآثار النفسيّة والسلوكية لمعرفة الأفعال الإلٰهيّة

انّ الأفعال الإلٰهيّة تجلّيات للصفات الإلٰهيّة، فاذا تمّ معرفتها وإدراكها من قبل الإنسان فانّ آثاراً خاصّةً سوف تظهر في قلبه ثمّ في عمله وسلوكه، ونظراً لتنوّع وجوه الأفعال الإلٰهيّة، بمعنىٰ انتزاع مفاهيم مختلفة منها وارتباطها مع القابليات الروحية المختلفة في الإنسان. يُطرح بهٰذا الشأن عدد من الصفات والأفعال الأخلاقية التي تتناسب مع تلكم القابليات:

حالة الشكر

من جملة المعارف المرتبطة بالصفات والأفعال الإلٰهيّة هي معرفة هٰذه الحقيقة، وهي أنّ الله سبحانه قد أعطىٰ الإنسان نعماً كثيرة، وإنّه قادر علىٰ مواصلة هٰذا العطاء والإنعام في الدنيا، كما إنّه قادر علىٰ مضاعفة هٰذه النعم الدنيويّة، مضافاً الىٰ

إنّه قادر علىٰ التفضل علىٰ الإنسان بنعم أُخرىٰ أفضل وأرقىٰ وأزيد من هٰذه النعم في عالم الآخرة، وفي المقابل معرفة هٰذه الحقيقة، وهي أنّ الله قادر علىٰ سلب هٰذه النعم الدنيويّة من الإنسان، وإنّه قادر علىٰ حرمانه في العالم الأبدي من جميع النعم وجعله في عذاب وألم دائمَين.

انّ معرفة الله بلحاظ هٰذه القدرة، والإلتفات الىٰ مثل هٰذه الأفعال الإلٰهيّة يمكن أن يخلق في الإنسان حالات نفسيّة وسلوكية خاصّة، وحالة الشكر هي الحالة الأُولى التي تظهر في الإنسان عند ملاحظة كون الله منعماً ومعرفته وليّاً للنعمة، ومن الأفضل أن نقول: إنّه الميل الأول الذي يستيقظ في الإنسان بعد هٰذه المعرفة. انّ حالة الشكر ميل فطري يشعر به الإنسان في نفسه تجاه كلّ منعم بلحاظ إنعامه. وبوسع كلّ فرد أن يختبر ذلك في باطنه، أي عندما يحسن شخص الىٰ شخص آخر ويعطيه نعمة فانّ المنعَم عليه يشعر بشعور خاصّ تجاه المنعِم، فيكون ذلك منشأً لشكره واحترامه، يقدّره بلسانه ويسعىٰ عملياً بأن يتناسب سلوكه مع إحسانه، هٰذه كلها مراتب الشكر والمنشأ لجميعها هو الشعور الذي ينشأ في قلبه.

الآن مع ملاحظة هٰذا الميل العامّ والفطرة لنوع الإنسان نقول: نظراً الىٰ إمكانية إدراك انّ الله هو المنعم الأول للإنسان بالمعرفة الدقيقة، وإنّه هو الذي يعطي المخلوقات النعم الصغيرة والكبيرة، الباطنة والظاهرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، هٰذا الشعور إزاء الله يجب أن يكون في قلب الإنسان أعمق وأكمل لأنّ نعمه كبيرة وعميقة ولا تُحصىٰ **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾**[1] الاّ أن يفقد الإنسان سلامة فطرته ويعلو الصدأ والحجب الداكنة والظلام علىٰ مرآة قلبه فلا

---

(١) ابراهيم: ٣٤.

يتفاعل مع النعم الإلٰهيّة بسهولة. لو لم تتلوّث فطرة الإنسان وبقي قلبه سليما فانّ ملاحظة كل هٰذه النعم تكفي لأن تخلق حالة الشكر في القلب وتظهر عبادة الله في سلوكه.

العبادة والعبودية

نشير هنا الىٰ هٰذه الحقيقة: انّ حالة الخضوع التي ـ كما قلنا سابقا ـ تنشأ إثر إدراك العظمه الإلٰهيّة، وحالة الشكر التي قلنا أنّها تتحقّق في الإنسان إثر إدراك إنعام الله عليه تكونان من أقوىٰ الدوافع في الإنسان لعبادة الله، وتضفيان علىٰ عبادته أرفع القيم. وتأييداً لهٰذا القول نذكّر ببعض الروايات التي قسّمت العبادة الىٰ ثلاثة أنواع:

الأول: العبادة التي تؤدّىٰ خوفا من عذاب النار.

الثاني: العبادة التي تؤدّىٰ رجاء تحصيل الثواب والاجر.

الثالث: العبادة التي تختلف عن هٰذين النوعين اختلافا جوهرياً وقد ذكرت تعابير مختلفة للدافع في هٰذا النوع من العبادة.

في بعض الروايات ذُكر حبّ الله كدافع للنوع الثالث، والشكر لله في بعض آخر، وأهليّة الله تعالىٰ لأن يكون معبوداً للإنسان في موارد أُخرىٰ وأُنيطت عبادته الىٰ كونه أهلاً للعبادة[1].

---

(١) ورد في الرواية عن المعصوم: (ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وأن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وأن قوما عبدوه شكراً فتلك عبادة الاحرار). بحار الأنوار ج ٧٨ / ص ٦٩.

ولعله من الممكن القول إنّ النوع الثالث لعدم كونه معروفاً بنحو كامل للجميع، ولتعلّقات عموم الناس فانّ هٰذه الحالات قليلاً ما تطرأ علىٰ قلوبهم، ولم يتعرفوا عليها جيّداً فقد ذُكرت بصور مختلفة وعُرضت في كلّ مورد بنحو يتناسب مع فهم السامع، ولكن يمكن القول إنّه في الحقيقة ذو مراتب مختلفة، عبّر عن أعلىٰ مرتبة فيه بـ(**وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك**). بمعرفة العظمه الإلٰهيّة تحصل حالة الخضوع في الإنسان، ويكون منشأً للتسليم بين يدي الله عزوجل، وعندما يعرف الإنسان انّ هيئة خاصّةً من العبادة كالصلاة مطلوبة لله يتبلور شعوره بالخضوع بأداء الصلاة والركوع أو السجود، ولو لم يكن هناك أيّ دافع آخر فانّ معرفة الله ومعرفة العظمة الإلٰهيّة تكفيان لدفع الإنسان نحو العبادة.

فالله تعالىٰ إله ولا يمكن ممارسة فعل ما إزاءه سوى عبادته، انّ هٰذا أعلىٰ رغبة فطرية للإنسان، وذلك بأن يخضع بدون طمع في أجر بين يدي موجود عظيم وغني وكامل مطلق، وستكون هٰذه أعلىٰ وأخلص مراتب العبادة.

في المرتبة الثانية تكون العبادة أكثر قيمة وذلك حينما يكون دافعها هو حبّ الله، حيث تنشأ في الإنسان قوة عاطفية جاذبة نحو الله تدفعه نحو العبادة، أي إنّه يعمل ما يرضي الله. يلاحظ في هٰذه العبادة عدم وجود دافع آخر ـ من ثواب أو

وفي رواية أُخرىٰ عن الامام الصادق عليه السلام: (إن العباد[ة] ثلاثة قوم عبدوا الله عزّوجلّ خوفا فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالىٰ طلب الثواب فتلك عبادة الاجراء، وقوم عبدوا الله عزّوجلّ حبّا له فتلك عبادة الاحرار، وهي أفضل العبادة). بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٥٥.

وفي رواية ثالثة عن الامام علي بن الحسين عليه السلام: انّي اكره ان اعبد الله ولا غرض لي الا ثوابه فاكون كالعبد الطمع ان طمع عمل والا لم يعمل، واكره ان [لا] اعبده الا لخوف عقابه فاكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل، قيل فلم تعبده؟ قال: لما هو أهله بأياديه علي وانعامه). بحار الأنوار ج ١٠ ص ٢١٠.

عذاب ـ سوى الله وحبّه أيضاً.

في المرتبة الثالثة تكون العبادة أكثر قيمة حينما يكون دافعها هو شكر الله علىٰ نعمه التي سخّرها للإنسان، أي عندما يرىٰ انّه ليس بوسعه أن يُجزي علىٰ نعم الله ويقدِّم شيئاً إزاء نعمه، لأنّ كلّ ما لديه هو منه أصالة، يصل الىٰ هٰذه النتيجة وهي إظهار الخضوع والعجز والتذلل والحقارة من خلال ممارسة العبادات.

هٰذه ثلاثة أنواع من الدافع لعبادة الله، وهي ذات مستوىٰ أعلىٰ من الدوافع العامّة والمألوفة، فعلىٰ الإنسان الوصول الىٰ المرتبة الأكمل من المعرفة وحبّ الله لكي يمارس عبادة الله بهٰذا النحو.

الخوف والرجاء

من معارف الإنسان بالله تعالىٰ هي معرفته بهٰذه الحقيقة، وهي أنّ الله قادر علىٰ استرجاع جميع النعم التي أعطاها ايّاه في هٰذه الدنيا، من قبيل العمر والصحة والسلامة والاصدقاء والأقرباء والأولاد والأموال وغيرها، أي يسلبها منه بعبارة أُخرىٰ، وهكذا المعرفة بانّه قادر في العالم الخالد أن يحرمه من جميع النعم ويعرّضه للعذاب والمعاناة ويُبعده عن الجنة ونعمها، والأمرّ من الجميع هو أن يبتليه بالبُعد عنه وعن رحمته، وفي المقابل هو قادر علىٰ إدامة النعم التي تفضّل بها أو يزيدها في المستقبل كماً وكيفاً، وهكذا يمتعنا بنعم أكثر وأعلىٰ في الآخرة.

انّ الإلتفات الىٰ هٰذا المعنىٰ ومعرفة الله بلحاظ قدرته هٰذه وأنّ بيده سعادة الإنسان وشقاءه في الدنيا والآخرة يحفّز فينا حالتَي (الخوف) و(الرجاء) الروحيتين والنفسيتين.

بناءً علىٰ هٰذا يرتبط (الخوف) و(الرجاء) كلاهما بمستقبل الإنسان، علىٰ عكس الشكر حيث يكون بإزاء النعم التي أعطاها الله للإنسان في الماضي، كما أنّ هاتين الحالتين ـ الخوف والرجاء ـ مختلفتان في الاصل، لأن (الخوف) حالة ناشئة من معرفة الله بلحاظ كونه قادرا علىٰ حرماننا من نعم الدنيا في المستقبل وهكذا النعم الأُخروية، بينما (الرجاء) حالة ناشئة من معرفة الله بلحاظ كونه قادراً علىٰ ادامة إعطاء هٰذه النعم الدنيويّة في المستقبل، ويزيدها كماً وكيفاً ويمتّعنا أيضاً بالنعم الأُخروية العظيمة.

انّ الخوف من الحرمان والرجاء بمستقبل أفضل متجذّران في فطرة الإنسان، وهما عاملان قويّان لدفع الإنسان نحو بذل الجهد والسعي وبناء الذات وإصلاح شؤونه الماديّة والمعنويّة، وبلحاظ دورهما وأهميتهما هٰذه يؤكّد القرآن الكريم عليهما في بُعده التربوي ويهتمّ بتفعيلهما وتوجيههما الوجهة الصحيحة بأساليب مختلفة، وفي مناسبات مختلفة، فيلزم هنا الإشارة الىٰ بعض الآيات:

الدور التربوي للخوف في القرآن

١ ـ هناك آيات تؤكّد أنّ السعادة الأبدية تكون من نصيب الذين يشعرون بالخوف والخشية كالآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[١].

(١) البينة: ٧ و ٨.

أي يمكن أن يستفاد من الآيتين بأن خوفهم وخشيتهم هما اللتان أوصلتاهم الىٰ هٰذا المقام السامي والقيّم. وكالآية:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

وكالآيات: **﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾**[2].

وكالآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾**[3].

وكالآية: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾**[4].

٢ ـ في مجموعة أُخرىٰ من الآيات القرآنية عُرّفت الخشية بتعابير مختلفة كشرط لقبول دعوة الأنبياء والهداية الإلٰهيّة والتأثّر بالنذُر السماوية كالآيتين:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[5].

إنّ الذين يتّصفون بخشية الله ويخافون يوم القيامة يميّزون بين الحق والباطل في ضوء الكتب السماوية، ويتحلّون بالتقوىٰ من خلال الإنتفاع بالمواعظ والتذكير.

---

(١) التوبة: ١٨.

(٢) الرعد: ٢١ ـ ٢٤.

(٣) الملك: ١٢.

(٤) النازعات: ٤٠ و ٤١.

(٥) الأنبياء: ٤٨ و ٤٩.

وكالآية: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[١].

وكالآيات: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[٢].

وكالآية: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾[٣].

وكالآية: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ﴾[٤].

وكالآيات: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾[٥].

٣ ـ المجموعة الثالثة تعرّف الخوف والخشية بتعابير مختلفة كعاملين لفعل الخيرات والإسراع فيها، كالآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ في الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٦].

في هٰذه الآيات يتنوّع التعبير فتارة تذكر الخشية، وتارة أُخرىٰ تذكر الإشفاق، وأُخرىٰ الوجل، وكلها تؤكّد علىٰ هٰذه الحقيقة وهي أنّ صفة الخوف والخشية من الله والقيامة تدفع الإنسان ليصبح فعّالاً في أعمال الخير ويسارع للقيام بها.

٤ ـ المجموعة الرابعة من الآيات تدلّ بتعابير مختلفة على أنّ الخشية لا تجوز من أيّ شيئ سوى الله وحده، كالآية:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[٧].

وكالآية: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾[٨].

---

(١) يس: ١١.
(٢) طه: ١ ـ ٣.
(٣) النازعات: ٤٥.
(٤) فاطر: ١٨.
(٥) الأعلىٰ: ٩ ـ ١١.
(٦) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.
(٧) الاحزاب: ٣٧.
(٨) الاحزاب: ٣٩.

هٰذه الآية تثني علىٰ الأنبياءعليهم السلام وتذكر خصلة الخوف من الله فيهم وعدم خوفهم من غيره، والتي يتصفون بها كصفة بارزة وممدوحة.

وكالآية: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[1].

والآية: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾[2].

وكالآية: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3].

وكالآية: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

٥ ـ بعض الآيات تؤكّد علىٰ الخشية كشرط للإعتبار بالحوادث، كما جاء في آيتين بعد ذكر قصة فرعون:

﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[5].

إضافةً الىٰ هٰذه الآيات التي استعملت لفظ الخشية، هناك آيات استُخدم فيها لفظ (الخوف)، فهل للخوف مفهوم الخشية أم يختلف عنها؟ نُقلت أقوال لبعض المفسرين وأهل اللغة وهي قابلة للنقض الىٰ حدّ ما ولا تبدو مُتقنة، وعلىٰ الرغم من أنّ ظاهر بعض الآيات يحكي عن وجود اختلاف مفهومي بين الخوف

---

(١) المائدة: ٤ (٢) المائدة: ٤٤.

(٣) البقرة: ١٥٠. (٤) التوبة: ١٣.

(٥) النازعات: ٢٥ و ٢٦

والخشية، ولكن لا يمكن الإشارة بصورة يقينية الىٰ وجود اختلاف لغوي بينهما.

قلنا انّ ظاهر بعض الآيات يحكي عن وجود اختلاف مفهومي بين الخوف والخشية، قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾(١).

انّ تقارن الخوف والخشية في هٰذه الآية وتعلقهما بشيء واحد يبيّن لنا هٰذه الحقيقة، ولها ظهور في وجود اختلاف بين اللفظين قطعاً، وقال بعض: الخشية حالة نفسيّة تحدث حينما يشعر الإنسان بعظمة شخص أو خطر قد يهدّده، بينما الخوف لا ينحصر في هٰذا المورد بل له شمول أوسع، ولكن بملاحظة الآيات نجد بدقةٍ أنّ الخشية استُعملت في المواضع التي استُعمل فيها الخوف، ولا يبدو وجود أيّ اختلاف بين موارد الخشية مع موارد الخوف، وتقارن الخوف والخشية في الآية **﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾** لا يدلّ بالضرورة علىٰ الاختلاف بينهما، بل يحتمل كونه من باب تأكيد لفظ بلفظ آخر، ولا يتنافىٰ مع اتحاد معنَييهما وترادفهما.

الآيات التي ورد فيها لفظ الخوف كثيرة ومتنوعة أيضاً، فتارة يُنسب الخوف في هٰذه الآيات الىٰ ذات الله سبحانه بتعابير مختلفة، كالآية:

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾(٢).

وكالآيتين:

(١) طه: ٧٧.

(٢) ابراهيم: ١٤.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هي الْمَأْوَى﴾[١].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٢].

وفي موارد اُخرىٰ ورد الخوف من العذاب كالآية:

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

هٰذه العبارة نقلت عن لسان انبياء الله العظام في موارد عديدة.

جاء في بعض الآيات انّ الأنبياء كانوا يخوّفون أقوامهم ـ ارشاداً لهم وانذاراً ـ من يوم القيامة، أو اليوم الذي ينزل فيه العذاب عليهم، كالآيتين:

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[٤].

وآيات اُخرىٰ نظير:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥] أو ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[٦] أو ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[٧] أو ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[٨].

وهناك ثناء ـ في موارد من الآيات ـ علىٰ الذين يخشون عذاب يوم القيامه أو يوم القيامة بلحاظ أخطاره طبعاً.

في إحدىٰ هٰذه الآيات ذُكر هٰذا اللون من الخوف كصفة بارزة للعقلاء، فقالت في تعريف أولي الألباب أي ذوي العقول.

---

(١) النازعات: ٤٠ و ٤١.
(٢) الرحمن: ٤٦.
(٣) الانعام: ١٥، يونس: ١١٥، الزمر: ١٣.
(٤) غافر: ٣٢ و ٣٣.
(٥) الأعراف: ٥٩.
(٦) هود: ٢٦.
(٧) هود: ٣.
(٨) هود: ٨٤.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[١].

وفي آية أُخرىٰ ذُكر الخوف من الله كصفة ممدوحة للملائكة وعباد الله المصطفين حيث قالت:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢].

وتُثني آية أُخرىٰ علىٰ رجال طاهرين وأُناس عظام،: يسبحون الله صباحا ومساء في بيوت نورانية كالمعابد والمساجد ومنازل الأنبياء وأولياء الله، ولهم صفات سامية منها صفة الخوف من يوم القيامة حيث تقول:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٣].

وهناك تأكيد ـ في آيات أُخرىٰ علىٰ أفعال الأبرار وصفاتهم عند وصفهم وبيان معايير البِرّ والإحسان فيهم، من أهمّها صفة الخوف من القيامة والتي تكررت مرتين، فتقول مرّة: **﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾**[٤] وتقول مرّة أُخرىٰ علىٰ لسان الأبرار: **﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾**[٥].

وقد نهي في موارد عن الخوف من الآخرين وأُمر بالخوف من الله فقط، فكما كان بلفظ الخشية: **﴿فلاَ تَخشَوهمْ وَاخْشَون﴾** فقد جاء في بعض الآيات: **﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتم مُؤْمِنِينَ﴾**[٦].

---

(١) الرعد: ٢١.
(٢) النحل: ٥٠.
(٣) النور: ٣٧.
(٤) الإنسان: ٧.
(٥) الإنسان: ١٠.
(٦) آل عمران: ١٧٥.

وفي هٰذا السياق وردت الفاظ أُخرىٰ في القرآن الكريم متماثلة في المفهوم نوعا ما، أحدها: لفظ (الرهبة) أو (رهب) بمعنىٰ الخوف وقد استعمل في عدة آيات نظير الآية ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1] والآية ﴿فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾[2]، ونظير الآية التي تثني علىٰ التوراة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[3].

وتقول آية أُخرىٰ في هٰذا السياق:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ في الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[4].

ثانيها: لفظ (الإشفاق) كالآية: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[5] فقد استُند فيها الىٰ الإشفاق من الله كثمرة للخشية وصفة بارزة، كما ورد هٰذا المضمون في الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾[6].

والإشفاق ورد تارة من العذاب وتارة من يوم القيامة، كالآية:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[7].

وكالآية: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ في السَّاعَةِ لَفي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[8].

الآيتان تشيران الىٰ أنّ الإشفاق والخوف من القيامة أثر للعلم بحقانيّتها

(١) البقرة: ٤٠.
(٢) النحل: ٥١.
(٣) الأعراف، ١٥٤.
(٤) الأنبياء: ٩٠.
(٥) الأنبياء: ٢٨.
(٦) المؤمنون: ٥٧.
(٧) الأنبياء: ٤٩.
(٨) الشورىٰ: ١٧ و ١٨.

والمعرفة بها.

وورد الإشفاق تارة ثالثة من العذاب، قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾[١].

هٰذه الآية تشير الىٰ أنّ المصلّين هم الذين يصدّقون بيوم القيامة ويخافون من عذاب ربهم، وخوفهم ناشيء من المعرفة بيوم القيامة والتصديق بيوم الجزاء، حيث جاء قبل هٰذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[٢].

وثالثها: لفظ (وجل) وقد استعمل في آيات كالآية:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

وكالآية: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

هٰذه الآية تستند بنحو خاصّ الىٰ معرفة الله والإعتقاد بوحدانيته، وهٰذه المعرفة تكون منشأً لظهور حالة الوجل في القلوب، وتستفيد الآية منه كعامل تربوي لهداية الأخرين، حيث أنّ المخبتين ينشأ لديهم هٰذا الإعتقاد ويتبعه ظهور هٰذه الحالات، فلهم البشارة علىٰ هٰذه السعادة، فأنتم أيضاً سيروا في هٰذا الطريق حتّىٰ تبلغوا السعادة التي نالوها.

وكالآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[٥].

---

(١) المعارج: ٢٧.
(٢) المعارج: ٢٦.
(٣) الانفال: ٢.
(٤) الحج: ٣٤ و ٣٥.
(٥) المؤنون: ٦٠.

مع فارق كون القلوب في الآيات السابقة علىٰ وجل من الله وذكره، وهنا علىٰ وجل من القيامة والرجوع الىٰ الله.

الىٰ هنا بحثنا عن الآيات المتعلقة بالخوف والخشية والألفاظ المرادفة لهما، وقد أوضحنا مفهومهما وكيفية ظهورهما، ويمكن الإشارة الىٰ عدة ملاحظات:

١ ـ إنّ الملحوظ في الخوف هو النظر الىٰ المستقبل وليس الماضي أبداً، الاّ بلحاظ النتائج المترتبة علىٰ حدث واقع في الماضي.

٢ ـ يتعلق الخوف أصالة بأمر غير محبّذ قد يواجهه الإنسان وهو قلِق علىٰ مستقبله، ولذا فانّ ما يكون متعلَّقا للخوف أولاً وبالذات هو مرارة حرمان الإنسان من الأمور المحبّذة ورغباته، والابتلاء بأمور مكروهة ومزعجة ولكن الخوف ينسب أحياناً ـ ثانياً وبالعرض ـ الىٰ أمور أُخرى، فمثلاً: ننسبه أحياناً الىٰ شخص سبّب ظهور مثل هٰذا الوضع المكروه، أو الىٰ أعماله التي سبّبت عدم ارتياحنا أو الىٰ مكان ذلك العمل والحدث المكروه أو زمانه، ونقول انّا نخاف من العمل الكذائي أو المكان والزمان الكذائي، وعليه يُنسب الخوف إليها جميعاً، ولكن كما قلنا إنّ المنشأ الاصلي لهٰذه كلها هو عدم الإرتياح الذي يرد علىٰ الإنسان.

٣ ـ في مقابل الخوف الوارد في الآيات المذكورة استُعمل لفظ الرجاء في آيات عديدة، الرجاء والخوف ليسا علىٰ طرفي نقيض تماماً، أي إنّ الرجاء لا يعني عدم الخوف تماماً، ولا الخوف يعني عدم الرجاء تماماً، بل انّهما حالتان وجوديتان متضادتان تنشأ إحداهما في النفس الإنسانية من الشعور بالخطر في المستقبل، وثانيتهما تنشأ في روح الإنسان وتظهر في إحساسه من الشعور بالتنعّم والتمتّع بالنعم في المستقبل.

مفهوم الرجاء

عندما يظن الإنسان انّ نعمة ما سينالها في المستقبل ويلتذّ ويتمتّع بـها، فـانّه يشعر إثر ذلك بشعور طيب وحالة محبّذة وجميلة نسميها (الرجاء) و(الأمل).

إذنْ تُلحظ في (الرجاء) و(الأمل) خصوصيتان كما هو حال الخوف، إحداهما: النظر الىٰ المستقبل، ولذا لا علاقة للرجاء بالماضي بل بـلحاظ نـتائجه التـالية، ثانيتهما: إنّ المنشأ الأساس للأمل والرجاء هو اللذة والراحة التي تحصل للإنسان نفسه، ولكن تُنسب هٰذه الحالة أيضاً الىٰ أشياء أُخرىٰ عرَضا.

فمثلاً: يلتفت الإنسان تارة إلىٰ النعمة التي تبعث علىٰ التذاذه وراحته فينجذب قلبه إليها ويكون آملاً، وتارة الىٰ من يعطيه هٰذه النعمة ويأمل به، وتارة الىٰ الزمان أو المكان الذي سيتمتّع فيه بتلك النعمة، في هٰذه الحالة يمكن نسبة رجائه أو أمله الىٰ ذلك الزمان أو المكان، ولكن المتعلَّق الأساس والمنشأ الأول لظـهور هٰـذه الحالة في النفس الإنسانية هو التذاذ الإنسان وتمتعه، أي إن علته باطنية وتتعلّق بالإنسان نفسه.

الرجاء في الآيات القرآنية

لقد نُسب (الرجاء) الىٰ الله في موارد من القرآن الكريم، والىٰ الرحمة الإلٰهيّة في موارد أُخرىٰ، والىٰ يوم القيامة في بعض الموارد لأنّ القـيامة عـالم يكـون الإنسان فيه مشمولاً للرحمة الإلٰهيّة. نشير الىٰ بعض هٰذه الآيات علىٰ التوالي: في آيتين نُسب الرجاء الىٰ الله كالآية:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[١].

وكالآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢].

ففي الآية الأُولى عُرّف رسول الله الكريم علىٰ أنّه أسوة ومقتدىٰ، وفي الثانية ابراهيم عليه السلام وأتباعه. وفي عدد من الآيات اعتبر لقاء الله متعلّقا لـ(الرجاء)، وهٰذه الآيات تنقسم الىٰ مجموعتين: مجموعة بشأن الذين يرجون لقاء الله كالآية:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٣].

وكالآية: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤].

في هاتين الآيتين تمّ الإلتفات الىٰ (الرجاء)، ولكن بلحاظ لازمه الذي لاينفك عنه، أي إنّ الآية تؤكّد انّ (الرجاء) وإنْ كان حالة روحية ونفسيّة، ولكنه ذو لازم سلوكي لا ينفك عنه ويكون منشأً لصدور أعمال خاصّة في الإنسان. من هنا فانّ الآية إمّا تؤكّد تأكيداً صريحاً علىٰ لزوم أداء العمل الصالح وتشير بعبارة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ الىٰ هٰذا اللازم السلوكي، أو تؤكّد عليه بصورة كنائية، وعبارة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ تعبير كنائي ظاهراً عن وجوب السلوك الصالح ووجوب أداء الوظيفة، أو تعرّف الأسوة والنموذج في السلوك حتّىٰ تقول بأنّ الذين يرجون الله عليهم تنظيم سلوكهم طبقاً لهٰذه النماذج، والتحرك خلف هٰذه الأُسوات والإقتداء بهٰذه القُدوات، وسيكون نبي الله محمد صلى الله عليه وآله وابراهيم عليه السلام خير أُسوتين لهم.

---

(١) الاحزاب: ٢١.
(٢) الممتحنة: ٦.
(٣) الكهف: ١١٠.
(٤) العنكبوت: ٥.

علىٰ أيّ حال فانّ هٰذه الآيات تذكّر بهٰذه الحقيقة بتعابير مختلفة، وهي انّ لوجود (الأمل) و(الرجاء) في قلب الإنسان منشأ وآثاراً وعلامات، والعلامة البارزة للأمل بالله ويوم القيامة هي ممارسة العمل الصالح واجتناب الشرك.

والمجموعة الثانية تذمّ الذين لا يرجون لقاء الله، كالآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وكالآية: **﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**(٢).

وكالآية: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾**(٣).

وكالآية: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾**(٤).

هٰذه الآيات كسابقتها تتحدّث عن لقاء الله، ولكن مع هٰذا الفارق وهو أنها تتحدّث عن الذين لا يرجون اللقاء، وتبيّن لوازم هٰذا اليأس وعوارضه وآثاره: إنّ الذين لا يرجون لقاء الله قد تعلقت قلوبهم بالدنيا وفرحوا بها، وغفلوا عن الله وآياته ويرتكبون القبائح ويطغَون ويتشبّثون بذرائع واهية، ويطلبون ما لا يكون مناسبا، وأخيراً يتعرّضون الىٰ عقوبة هٰذه الأعمال والسلوك ونتائجه الوخيمة.

الملاحظة الجديرة بالذكر وتناسب الموضوع الأصلي لهٰذا البحث هي أنّ الآيات الكريمة قد صرحت بهٰذه الحقيقة، وهي أنّ منشأ اليأس هو الغفلة عن الله

---

(١) يونس: ٧ و ٨.

(٢) يونس: ١١.

(٣) يونس: ١٥.

(٤) الفرقان: ٢١.

وآياته والغفلة في نفسها معلولة لعدم معرفته جيّداً، وعليه فانّ المعرفة تمثّل مقدمة وشرطا ضروريا لظهور حالة (الرجاء) والرجاء حالة تنشأ من نوع من المعرفة الإلٰهيّة في نفس الإنسان، وتكون منشأً لآثار عملية. أي إنّ رجاء لقاء الله واليأس منه ـ بعد المعرفة التي هي أكثر تجذّراً وأرسخ ـ هما العلة والأساس لارتكاب أعمال صالحة أو قبيحة، وهكذا في صلاح الإنسان وفساده، وبالتالي هما العامل لنيل الثواب والعقاب الأُخروي.

بناءً علىٰ هٰذا فانّ الرجاء بلقاء الله أثر ومعلول للمعرفة من جهة، ويزول نتيجةً لضعف المعرفة وللغفلة عن الله والقيامة، ومن جهة أُخرىٰ يكون علة وعاملاً مؤثرا لتغيير سلوك الإنسان، وبالتالي نيل السعادة الأبدية ويؤدي عدمه الىٰ الشقاء الأبدي.

في بعض الآيات يكون عالم الآخرة متعلّقا للرجاء كالآية:

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١)، وهكذا العبارة:

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾(٢).

وقد وردت رحمة الله في موارد كمتعلّق لـ(الرجاء) كالآية:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(٣).

هٰذه الآية تطرح أولاً وبأُسلوب جذّاب الخوف والرجاء معاً وتذكر عللهما وآثارهما ثانياً، فمن جهة تؤكد أنّ عامل احياء الليل وطاعة الله وعبادته في

---

(١) العنكبوت: ٣٦. (٢) الاحزاب: ٢١.

(٣) الزمر: ٩.

هٰؤلاء الرجال الإلٰهيّين هو الخوف من الآخرة ورجاء رحمة الله، ومن جهة أُخرىٰ تلفتنا الىٰ هٰذه الحقيقة وهي أنّ الخوف من القيامة، والرجاء لرحمة الله هو من نصيب ذوي العقول والألباب وأرباب العلم والمعرفة.

انّ عمق معرفة هٰؤلاء بباطن الوجود وخلود حياة الإنسان، والنعم والنقم التي أعدها الله عزّوجلّ للصالحين والطالحين هي التي تبعث في قلوبهم حالات الخوف من القيامة ورجاء الرحمة، وتُبعد عنهم التغافل والترف والكسل وتدفعهم نحو الجد والاجتهاد والعبادة واحياء الليل.

وكالآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

هٰذه الآية تبيّن هٰذه الحقيقة أيضاً، وهي أنّ رجاء رحمة الله وإنْ كان حالة روحية الّا انّ له آثاراً وعلامات سلوكية لا تنفك عنه، فالملتزمون عملياً ويهاجرون ويجاهدون هم الذين يحق لهم أن يدّعوا انّ لهم رجاء برحمة الله.

وهناك عناوين أُخرىٰ اعتُبرت في موارد متعلّقات للرجاء، كالآية:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[2].

وكالآيتين: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[3].

---

(١) البقرة: ٢١٨. (٢) النساء: ١٠٤.

(٣) فاطر: ٢٩ و ٣٠.

واعتُبر الحساب في الآية التالية متعلّقا لـ(الرجاء)، قال تعالىٰ:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾[١].

علينا أن لا نغفل عن هٰذه الملاحظة وهي أنّ (الرجاء) حالة نفسيّة تنشأ من العلم والمعرفة بالمبدأ والمعاد، كمانطق بذلك الكثير من الآيات، كما أنّ جميع الآيات تؤكّد علىٰ أنّ الرجاء أساس لجميع الجهود الإنسانية النافعة والمثمرة، ومنشأ لإصلاح شؤون المجتمع، ووصول الإنسان الىٰ السعادة إلأبدية، كما إنّ اليأس أو قطع الرجاء من الله ويوم القيامة هو المنشأ لكلّ فساد وجريمة وتعرّض الإنسان الىٰ الشقاء الأبدي.

مفهوم آخر للرجاء

في بعض الآيات يحتمل أن لا يكون (الرجاء) بمعنىٰ الأمل بوقوع أمر محبّذ فقط، بل لعل المراد منه هو انتظار شيء قد يكون نافعا للإنسان أو ضارّاً. في جميع الآيات التي ورد فيها (رجاء اليوم الآخر) بل (رجاء اللقاء). يُحتمل أن يكون الرجاء قد استُعمل بالمعنىٰ المطلق للإنتظار، نظير لفظ الظن الوارد في بعض الآيات كـ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فهٰذه العبارة تعطي هٰذا المعنىٰ وهو أنّهم يعتقدون بوجود يوم القيامة، كما يمكن استنتاج هٰذا الأمر بدقةٍ من الآيات التي استُعمل فيها لقاء الله أو (لقاء الربّ). واللقاء بمعناه العرفاني مقبول طبعا ولا نريد انكاره، بل نريد القول إنّ اللقاء في القرآن هو أعمُّ من هٰذا اللقاء الخاص بالمؤمنين

---

(١) النبأ: ٢٧.

، بل إنّه لقاء يشمل الكافرين أيضاً. فمثلاً: جاء في الآية **﴿يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾**[1] فانّ هٰذا اللقاء لا يختص بالمؤمن بل تصرح الآية بانّه يرتبط بكلّ إنسان، وهو خطاب للإنسان وليس للمؤمن، بل يمكن القول: نظراً الىٰ أنّ الآية في مقام الانذار فانّ ظهورها في لقاء غير المؤمن أقوىٰ.

وعليه يُحتمل أن يكون رجاء لقاء الله أو اليوم الآخر بمعنىٰ مجرّد الإنتظار أو وقوع وتحقّق القيامة بكلّ ما فيها من نعم ونقم، سواءً أكان الإنسان فيها منعّما أو متعرّضا للنقمة والعذاب، وليس من الضروري أن يكون بمعنىٰ رجاء السعادة، بل نظراً الىٰ ايمانهم بوقوع القيامة فانّهم ينتظرون ذلك، الاّ أنّ انتظارهم قد يصاحبه الخوف من العذاب أو الرجاء بالرحمة. وقد يكون السرّ في اعتبار بعض المفسرين بعض موارد (الرجاء) بمعنىٰ الخوف هو أنّ الرجاء أعمُّ من توقّع الخير أو الشر، وفي المقابل لا ينتظر المنكرون للقيامة خيرها ولا شرّها. في الكثير من الموارد يشير القرآن الىٰ أنّ (الرجاء) قد استُعمل في المفهوم المقابل للخوف، ويبيّن أحد شقّي الإنتظار وهو الذي ينتهي بالتنعّم واللذة، كما أنّ (الخوف) يبيّن الشق الآخر من الإنتظار والذي ينتهي بالنقمة والعذاب.

ان عِدْلَي الإنتظار هٰذين بمثابة عاملي حركة الإنسان، إمّا يجذبه الرجاء نحو الصلاح وإمّا الخوف، ومن الواضح انّ الخوف من القيامة أو رجاءها يحصلان في حالة الإيمان بتحققها والإعتقاد بوقوعها في نفس الإنسان، والله سبحانه يؤكّد علىٰ هٰذين العاملين القويين للحركة في تربية المؤمنين، وإذا كان لـ(الرجاء) بيوم القيامة أو (اللقاء) في بعض الآيات ظهور في مطلق الإنتظار واستعمل بمعنىٰ

(١) الانشقاق: ٦.

اعتقاد الإنسان بتحققه وينتظره، فانّه بلحاظ هٰذه العلاقة الوثيقة بين الإعتقاد والعلم بتحقّق القيامة من جهة، والأمل باللذائذ أو الخوف من عذابها من جهة أُخرىٰ. هٰذه العلاقة هي من الوثاقة والشدّة بحيث تدعو الىٰ اطلاق (الرجاء) أحياناً علىٰ أصل الإعتقاد بالوقوع وانتظار التحقق. وهٰذا الاطلاق أوضح في الآيات التي تنفي الرجاء كقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾[1] أو ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾[2]، ولـ(لا يرجون) في هٰذه الموارد مفهوم (لا ينتظرون) لشحّة الذين يعتقدون بتحقّق القيامة ثمّ لا يشعرون بخوف أو رجاء، وأغلب الذين لا يرجون يعود عدم رجائهم لعدم اعتقادهم بتحققها من الأساس لكي يشعروا بخوف أو رجاء إزاءها، وهٰذه الغالبية والعلاقة بين عدم الإعتقاد وبين فقدان الأمل والرجاء من القوة والتماسك بحيث يمكن القول: إنّ من لا يرجو القيامة لا يعتقد بتحقّقها عادة، بل يمكن استعمال فقدان الأمل في عدم الإنتظار والإعتقاد، ومن المحتمل استعماله في الآيات في هذا المعنىٰ بهذا اللحاظ أيضاً.

مجموعة ملاحظات

١ ـ بلحاظ ما سبق يعتبر الخوف والرجاء حالتين نفسيّتين لوحظ فيهما النظر الىٰ المستقبل، ويكون ذلك منشأً لظهور الحالتين في الإنسان، مع فارق هو أنّ الإنسان في إحداهما يلاحظ احتمال كونه متألّما ومبتلىً بألوان البلاء والعذاب في المستقبل، فيدعوه الشعور المزعج بالخوف والقلق في روحه الىٰ ترك بعض الأعمال أو ادائها، وفي الثانية يلاحظ احتمال كونه متمتّعا ومتنعّما ومنتفعا ببعض

---

(١) الفرقان: ٤٠.

(٢) الجاثية: ١٤.

النعم في المستقبل، ولذا ينشأ في قلبه شعور بالسرور ويدفعه نحو السعي والحركة. وكما قلنا قد يستعمل ذلك في مطلق الإنتظار بحكم العلاقة الوثيقة بين هٰذه الحالة وبين الإعتقاد والإنتظار.

٢ ـ نظراً الىٰ أنّ الإنسان المعتقد والمؤمن يرىٰ أنّ الله قد يمتّعه بنعم في المستقبل، وقد يحرمه حتّىٰ من النعم الموجودة، فانّ هٰذه الرؤية تكون منشأً لخوفه من الله وأمله به، حتّىٰ يبلغ المستوىٰ الأكمل وهو أنّ الله سبحانه وحده هو القادر علىٰ أن ينعمّه أو يحرمه في المسقبل، وهٰذه الرؤية تكون سبباً لخوفه من الله وتعلّق قلبه به فقط، وهٰذه من الصفات البارزة في الإنسان العارف بالله والصالح.

٣ ـ الخوف والرجاء من الصفات الضرورية التي ينبغي أن يتّصف بهما الإنسان العازم علىٰ السير في طريق الكمال والصلاح، وفقدان أحدهما ـ في الواقع ـ نقص في الخصال الإنسانية والنفسيّة، ويترك آثاره السيئة علىٰ سلوكه وبالتالي علىٰ سعادته ومعنوياته.

إنّ الخوف والرجاء بمثابة قوة التنفيذ أو جناحي الطيران والحركة، ويكونان العامل المباشر لجهود الإنسان وجدّيتة وسلوكه، أي يمكن القول: بصورة عامّة يكون سلوك الانسان كله من آثار وتجلّيات هٰذين الميلَين في النفس، وهو أعمُّ من الأعمال الماديّة والمعنويّة والدنيويّة والاُخروية، والإلتفات الىٰ هٰذه الملاحظة أمر ضروري وهي أنّ متعلَّق الخوف والرجاء ليس واحداً، ويكون مختلفا اختلافا شديدا حسب درجات المعرفة المختلفة، ولكن ما يبحث عنه في هٰذا المقال هو الخوف والرجاء من الله والقيامة، وكلما تعمّقت معرفة الإنسان بالله سبحانه والقيامة تضاعف خوفه ورجاؤه، كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ**

الْعُلَمَاءُ﴾[١]، كما روي عن المعصوم عليه السلام: **(من كان بالله أعرف كان من الله اخوف)**.

من هنا تؤكّد الآيات والروايات بشدّة علىٰ هاتين الحالتين، كالآية:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢].

والروايات في هٰذا المجال كثيرة لأنّ الخوف والرجاء هما اللذان يدفعان الإنسان ـ سراً وعلنا ـ للسعي والتحرك والجد.

٤ ـ لابدّ من التوازن بين الخوف والرجاء، فقد ورد في روايات لو قيس الخوف والرجاء معاً لدىٰ المؤمن كانت هاتان الحالتان متكافئتين في قلبه دون أن يترجّح أحدهما علىٰ الآخر، وقد ذُكرا معاً في آيات، قال تعالىٰ:

﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٣] و**﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾**[٤].

وورد في رواية عن الامام الصادق عليه السلام:

(كان أبي يقول: إنّه ليس من عبد مؤمن الا (و) في قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هٰذا لم يزد علىٰ هٰذا، ولو وزن هٰذا لم يزد علىٰ هٰذا)[٥].

٥ ـ الخوف والرجاء حالتان وجوديتان ولا ينفي أيّ منهما الآخر لكي يعتبر الطرف المقابل له تماماً، فالخوف لا يعني عدم الرجاء، كما لا يعني الرجاء عدم الخوف، بل لكلّ منهما طرفه المقابل، كما ورد في الروايات أنّ النقطة المقابلة

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) السجدة: ١٦.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) السجدة: ١٦.
(٥) اصول الكافي: ج ٢ ص ٥٧ ح ١٣.

لـ(الخوف) هو الأمن والتجرّي، والنقطة المقابلة للرجاء هو اليأس أو القنوط وهما من الذنوب الكبيرة، فاليأس من رحمة الله يعني افتقاد الرجاء وهو معصية، كما إنّ الشعور بالأمن الكامل من العذاب الإلٰهي بمعنىٰ عدم الخوف من الله والقيامة معصية أيضاً.

لا ينبغي الغفلة عن أنّ هاتين الحالتين (الخوف والرجاء) وإن لم تكونا متقابلتين بنحو التناقض بأن تنفي إحداهما الأُخرىٰ، ولكن بينهما تأثير وتأثّر متبادل قطعاً، فمثلاً: إذا تعدّىٰ خوف الإنسان حالة الإعتدال فانّ أمله سوف يضعف حتماً ويكون دون المستوىٰ المطلوب، وبالعكس لو تجاوز الأمل ورجاء الإنسان حدّه تبدّلت حالة الخوف في الإنسان الىٰ الشعور بالأمن والتجرّي علىٰ الله وأحكامه، ولذا ورد عن الامام الصادق عليه السلام:

(أرجُ الله رجاء لا يجرئك علىٰ معاصيه، وخفِ الله خوفا لا يؤيسك من رحمته)[1].

من هٰذه العلاقة والتأثير والتأثّر يمكن استنتاج أنّ الخوف والرجاء ليسا متقابلين تماماً، ولكن لكلّ منهما نوع ملازمة مع مقابل الثاني.

الخشوع

هٰذا اللفظ يلازم الخوف والخشية الىٰ حدّ ما. فالخشوع يعني خضوع القلب، ويشير الىٰ حالة الليونة في القلب مقابل (القسوة) التي تطلق علىٰ صلابة القلب وعدم تأثّره.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٨٤ ـ ح ٣٩.

قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

هٰذه الآية ترغّب المؤمنين بأن يتحلَّوا بالخشوع والخضوع في القلب ولا تقسو قلوبهم ولا يكونوا غير متعاطفين، وليكونوا متواضعين خاضعين إزاء كلمات الله وآياته والكتب السماوية والحق والحقيقة، ولينظّموا شؤون حياتهم ويعطوا الصورة الصحيحة لأعمالهم وسلوكهم بوحي منها، وتذمّ الذين وصفتهم بأنّهم قساة القلب الذين نزلت عليهم الكتب المساوية والتوراة ولكن لم تؤثّر علىٰ حياتهم، وبدلاً من الخروج من حالة الغفلة والميل الىٰ الحق تمادت قلوبهم في قسوتها ومارسوا الفسق والفجور، وتطلب الآية من المؤمنين السعي لجعل قلوبهم خاشعة تجاه الحق واسم الله وأن لا يبتلوا بمصير بني اسرائيل.

انّ تعامل الآية المذكورة مع خشوع القلب وقسوته يبيّن هٰذه الحقيقة وهي أنّ تحصيل الخشوع أمر اختياري الىٰ حدّ ما، أي الإنسان بتوفير المقدّمات وممارسة أعمال خاصّة قادر علىٰ إيجاد هٰذه الحالة في القلب، كما أنّ القسوة ـ وهي النقطة المقابلة للخشوع ـ يمكن إيجادها في القلب عن طريق مقدماتها الاختيارية ولذا توجه الذمّ الىٰ قاسي القلب.

وعليه فانّ جذور الخشوع موجودة في الفطرة الإنسانية كسائر المشاعر والعواطف، وهي قابلة للقوة والضعف فعلينا تقوية جذورها الفطريّة حينما تضعف.

يعتبر القرآن الكريم (الخشوع) من الصفات البارزة للإنسان الصالح، ويشير

---

(١) الحديد: ١٦.

الىٰ هٰذه الصفة في مقام الثناء علىٰ الأشخاص والجماعات باعتبارها نقطة امتياز، كما قال في مدح الأنبياء عليهم السلام:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ في الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

في آية أُخرىٰ يذكر (الخاشعين) و(الخاشعات) ـ بعد اعتبارهم فئة لها هٰذه الصفة الممتازة ـ ضمن فئات أُخرىٰ ذات صفات بارزة أُخرىٰ، وتقول أخيراً كأجر علىٰ هٰذه الصفات الصالحة:

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[2]، وفي مورد المصلّين يستند الىٰ اتّصافهم بالخشوع كرمز للاستقامة والتحمل حيث يقول تعالىٰ:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3].

ومن الجدير بالإلتفات أنّ هٰذه الآية تشير بدقةٍ الىٰ موضوع البحث وتسلّط الاضواء علىٰ العلاقة بين حالة الخشوع وبين معرفة المبدأ والمعاد وبعض الأفعال الإلٰهيّة، ببيان انّ حالة الخشوع من صفات الذين يظنون أنّهم يلاقون الله ويرجعون اليه.

وفي آية أُخرىٰ يبيّن تعالىٰ الخشوع في الصلاة كعلامة بارزة للإيمان الذي يكون هو المنشأ لفلاح الإنسان، حيث يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ في صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[4].

وفي مورد آخر أكثر تفصيلا يتطرق الىٰ علامات النقطة المقابلة لصفة الخشوع

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) الاحزاب: ٣٥.

(٣) البقرة: ٤٥ و ٤٦.

(٤) المؤمنون ١ و ٢.

ويقول:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[١].

لقد شرح الله سبحانه صدور بعض الناس وأعطاهم قلوباً تذعن للإسلام وتكون تحت شعاع من نور ربهم، تقشعرّ جلودهم من سماع آيات الله، وتلين قلوبهم وجلودهم لذكر الله، وهٰذه كلها آثار وعلامات لخصائل تحكي عن الخشوع في القلب، وفي المقابل أشار سبحانه الىٰ (الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ) وهم الذين لا يملكون شيئا من هٰذه الخصال ولا يتأثّرون أبداً بالحق ممّا يدلّ علىٰ ضلالهم المبين.

أجل، إنّها حالة وكيفية خاصّة في الجهاز العصبي للإنسان بأن يقشعرّ جلده حينما يجد نفسه فجأة بين يدي موجود عظيم، ثمّ يلين قلبه وبالتبع جلده، ويشعر في نفسه وهو أمام الله لينا وخشوعا وتواضعا، وهٰذه علامة اهتدائه. كما أنّ آيات أُخرىٰ تذكر علامات أُخرىٰ كالسجود علىٰ الأرض والبكاء بتأثير من الإستماع الىٰ الآيات الإلٰهيّة، حيث تقول:

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٢].

أو تقول: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[٣].

---

(١) الزمر: ٢٢ و ٢٣.
(٢) مريم: ٥٨.
(٣) الإسراء: ١٠٩.

كما قالت في آيتين سابقتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً﴾[١].

ومرّة أُخرىٰ يلزم الإنتباه الىٰ هٰذه الملاحظة، وهي أنّ هٰذه الآية تشير الىٰ العلاقة بين الخشوع بعلاماته وآثاره وبين العلم والمعرفة، وأنّ هٰذه الحالة كالحالات المماثلة لها تنشأ من المعرفة، حيث أنّ الذين أوتوا العلم هم ذَوو المعرفة الذين يشعرون بالخشوع في قلوبهم ويسجدون لله.

التضرّع والإستكانة

تذكر آيات من القرآن الكريم حالتي التضرّع والإستكانة وهما تشيران الىٰ حالة تحدث إثر الخوف والخشية، فالتضرع لغةً هو التصاغر والتذلل وأثره البكاء والنحيب، ولكنه في عرفنا يستعمل بمعنىٰ البكاء والنحيب الذي يحدث إثر التضرع، ولكن كما قلنا: إنّ التضرع حالة قلبية وليس عملاً عضويّاً. إنّه الشعور بالحقارة والضياع ويكون منشأً للبكاء والنحيب لدىٰ المتضرع، ولكن ما هو المنشأ لظهور هٰذه الحالة في قلب الإنسان؟

في الإجابة يمكن القول: إنّ العامل الذي ينبّه الإنسان علىٰ ضعفه وحقارته وحيرته تجاه الحوادث والمشكلات في الحياة هو السبب لظهور هٰذه الحالة في قلبه. أجل، انّ الابتلاء، والحرمان، والفقر والمرض، والسيل والزلزال وما شاكلها تنبّه الإنسان وتخرجه من الغرور والغفلة، ويمكن الإستفادة من القرآن بأنّ الله

---

(١) الإسراء: ١٠٧.

حينما كان يرسل الأنبياء الىٰ أقوامهم كان يبتليهم بالبلاء لكي تحصل لديهم حالة التضرع، ويؤمنوا بدين الله ويهتدوا الىٰ طريق الحق والحقيقة باتّباع الأنبياء كما قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾(٢).

وفي آية أُخرىٰ يُظهر هٰذه الحقيقة بلسان آخر ويقول:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(٣).

هٰذه الآية تؤكّد الحقيقة نفسها التي وردت في الآيات السابقة، أي إنّ الله يبتلي الأمم لكي تتضرع له، ولكن رغم ذلك لم يكن لبني الإنسان ردّ فعل متماثل في هٰذه الابتلاءات، فبعضهم لم يتأثّر بهٰذه العوامل بسبب قسوة القلب، في حين كان المتوقّع هو أن ينتبهوا ويستيقظوا من نوم الغفلة، ويخرجوا من الجهل والظلام ويلاحظوا حقيقة وجودهم في هٰذا الكون العظيم، ويشعروا بحقارتهم بين يدي الله القدير المهيمن علىٰ هٰذاالوجود العظيم والمالك لكلّ ما لدىٰ الجميع، وقد أُفيض عليهم من ذلك المصدر الفياض، فيعظّموه ويذعنوا بعبوديتهم.

هنا يُطرح هٰذا السؤال: لماذا يقسو قلب بعض الناس، ولا ينتبهون بعوامل

---

(١) الانعام: ٤٢ و ٤٣.
(٢) الأعراف: ٩٤.
(٣) المؤمنون: ٧٦.

التحذير واليقظة هٰذه ولا يدركون عظمة الوجود وحقارتهم، ولا يرجعون الىٰ خالق الوجود وربّهم بالتضرع والإنابة؟ مع انّ هٰذه الابتلاءات والمشكلات تقتضي الرجوع الىٰ أنفسهم في هٰذه الأوضاع، فما هو العامل الذي يصدّ الناس من التضرع والرجوع الىٰ الله حتّىٰ مع وجود الابتلاءات والمصائب؟

للإجابة عن السؤال قلنا سابقا انّ حبّ الدنيا والتشبّث بالماديات يقسّي قلب الإنسان، ويجعله غير متعاطف مع الأمور المعنويّة، فمن الطبيعي جدّاً حينما يركّز الإنسان اهتماماته علىٰ شيء ويتعلّق قلبه به فسوف يضعف اهتمامه بشيء آخر يضاده أو يزاحمه ولا يعبأ به، ولهٰذا حينما تشتد علاقة الإنسان بشخص معيّن فانّه يضعف اهتمامه بالآخرين.

إنّ الذين يحبّون الدنيا والأمور الماديّة بشدّة وتعلّقت قلوبهم بها، نظراً الىٰ أنّ القيم المعنويّة وعالم الآخرة والأُنس مع الله من سنخ آخر ولا علاقة لها باللذائذ الماديّة الدنيويّة سوف يضعف اهتمامهم بتلكم القيم المعنويّة. وهٰذا الأمر يؤثّر ليس علىٰ العواطف والمشاعر فحسب، بل علىٰ الأبعاد الروحية والنفسيّة والسلوكية الأخرى. فمثلا: الذين يكثرون من الأكل والنوم تموت فيهم أرضية الحالات الروحية الظريفة، أي إنّ ذلك لا يبعد الإنسان من الله فحسب، بل يضعف ما فيه من مشاعر إنسانية ظريفة سواءً ارتبطت هٰذه المشاعر بالدنيا أو الآخرة.

والقرآن الكريم قد أثنىٰ علىٰ النصارىٰ بسبب هٰذه الميزة بقوله:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾[١].

---

(١) المائدة: ٨٢ و ٨٣.

انّ حالة اعتزال الدنيا الموجودة في القسّيسين والرهبان النصارىٰ وعدم تعلّق قلوبهم باللذائذ الماديّة هو السبب في بقاء مشاعرهم وأحاسيسهم حيّة وكونهم ذوي رأفة ورُحماء. وفي مقابل النصارىٰ يذكر اليهود كثيراً بوصفهم يفكّرون دائماً بالماديات كما قال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[١].

أجل، انّ **﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾** يبيّن نفسيّة اليهود، وبهٰذه الميزة لا يبقىٰ مجال للدموع، والشوق، والبكاء و... وسوف تموت في هٰذا الإنسان المشاعر والأحاسيس الظريفة حتّىٰ ما يرتبط منها بالدنيا، وسوف تتحكّم فيه لذة البطن والفرج فقط.

بناءً علىٰ هٰذا، يكون لـ(قسوة القلب) عاملان: عامل مادي يرتبط غالباً بالجسم أي الإهتمام بالبطن والغريزة الجنسية، والآخر عامل نفسيّ وهو عبارة عن تعلّق القلب بكلّ ما يعارض ويزاحم المشاعر المعنويّة والأمور الاُخروية.

العامل الأول يضعف المشاعر والأحاسيس بصورة عامّة، والعامل الثاني يحرف مسيرة الأحاسيس والمشاعر المتجهة الىٰ الله والآخرة والمعنويات الىٰ الأمور الماديّة والدنيويّة الزائلة.

وأخيراً للوقاية ومعالجة (القسوة) التي تعدّ من الأمراض الخطيرة في قلب الإنسان من الضروري أن نستند الىٰ هٰذين العاملين: السعي حتّىٰ لا يتمتّع الجسم

---

(١) البقرة: ٦١.

باللذائذ الماديّة والجسميّة فوق المستوى المطلوب، وهكذا السعي حتّىٰ لا تتعلّق قلوبنا كثيراً بالماديات والأمور التي تزاحم المعنويات، ونطهّر قلوبنا من هٰذه التعلقات.

* * *

الفهرست

* * *